أهل البيت

حمزة بن عبد المطلب
العباس بن عبد المطلب
على بن أبى طالب
فاطمة الزهراء
الحسن بن على
الحسين بن على
السيدة زينب
السيدة نفيسه

محمود الشرقاوى

الإدارة : ٥٨ شارع ٢٦ يوليو - القاهرة
ت : ٧٦١٦٦٥ - ٧٧٢٨٢١



الغلاف بريشة : محمد حاكم

مقدمة

أهل البيت هم مصابيح الهدى . شجرة النبوة ، مهبط الرسالة ، ومنبع الرحمة ، ومعدن العلم ، العاملون بالقرآن المجيد ، المستجاب دعاؤهم ، الذين رضوا عن الله فرضى الله عنهم .

روى البخارى عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال :

— « لكل شيء أساس ، وأساس الاسلام حب اصحابى واهل بيتى » .
وقال صلى الله عليه وسلم :

— « من مات على حب آل محمد مات شهيدا ، الا ومن مات على حب آل محمد مات مغفورا له ، الا ومن مات على حب آل محمد مات تائبا . الا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمنا مستكمل الايمان ، الا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة ثم منكر ونكير ، الا ومن مات على حب آل محمد يزف الى الجنة كما تزف العروس الى بيت زوجها . الا ومن مات على حب آل محمد فتح له فى قبره بابان الى الجنة ، الا من مات على حب آل محمد جعل قبره مزار ملائكة الرحمة الا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة . الا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله ، الا ومن مات على بغض آل محمد مات كافرا ، الا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة » .

وقد خصهم الله تعالى بمزايا منها تحريم الصدقة عليهم لكونها أوساخ الناس وتعويضهم من الفيء والغنيمة ، وطلب اكرامهم وتوقيرهم .

وحث الرسول صلى الله عليه وسلم على الاقتداء بهم والتعلم منهم فقد برأهم الله تعالى من كل وصمة وسقطة وعثار وميزهم بأنهم الحائزون لقصب السبق فى كل كمال ومضمار .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— « الحمد لله الذى جعل فينا الحكمة أهل البيت » .

وروى الديلمى والطبرانى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال :

ـ لا يؤمن عبد حتى اكون احب اليه من نفسه ، وتكون عشرتى احب اليه من عشرته واهلى احب اليه من اهله وذاتى احب اليه من ذاته .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

ـ توفى لصفية بنت عبد المطلب رضى الله عنها ابن ، فبكت عليه ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ تبكين يا عمة ، من توفى له ولد فى الاسلام كان له بيت فى الجنة يسكنه .

فلما خرجت لقيها رجل ، فقال لها :

ـ ان قرابة محمد لن تغنى عنك من الله شيئا ، فبكت ، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوتها ، ففزع من ذلك فخرج ، وكان صلى الله عليه وسلم مكرما لها يبرها ويحبها ، فقال لها :

ـ يا عمة ، تبكين ، وقد قلت لك ما قلت ؟

قالت : ليس ذلك أبكانى ، واخبرته بما قال الرجل ، فغضب صلى الله عليه وسلم وقال :

ـ ما بال اقوام يزعمون ان قرابتى لا تنفع ان كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة الا سببى ونسبى وأن رحمى موصولة فى الدنيا والآخرة .

وروى عن كعب بن شجرة أنه قال : لما نزلت الآية الكريمة :

« ان الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » .

قلنا : يا رسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلى عليك ؟

فقال : قولوا اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد .

وروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله :

ـ « لا تصلوا على الصلاة البتراء » .

فقالوا : وما الصلاة البتراء .

قال : تقولون اللهم صلى على محمد وتمسكون بل قولوا اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد .

قال الامام الشافعى رضى الله عنه :

يا أهل بيت رسول الله حبكم
فرض من الله فى القرآن أنزله

كفـاكم من عظيم القـدر أنكم
من لم يصل عليكم لا صلاة له(1)

وحب اهل البيت واجب . فهم اساس الدين ، وعماد اليقين : يقول الامام محيى الدين بن عربى :

رايت ولائى آل طه فريضـة
على رغم البعـد يورثنى القـربا

فما طلب المبعوث أجرا على الهدى
بتبليغه الا المـودة فى القـربى

ويقول الامام الشافعى رضى الله عنه :

آل النبى ذريعـتى
وهـو اليـه وسـيلتى

ارجـو بهم أعطى غـدا
بيـد اليمين صحيفتى

وكان السلف الصالح يتوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآله الطاهرين وعترته المباركين ، فيفرج الله تعالى كروبهم ، ويكشف غمومهم ، فقد قصدوا مهابط يستجاب فيها الدعاء ، وتحيط بها ملائكة السماء .

فهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ثانى الخلفاء الراشدين ، من أعز الله به الاسلام ، وقد عرف للعباس بن عبد المطلب رضى الله عليه ، عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصنو ابيه ، قدره ، توسل به فى حاجته وحاجة المسلمين ، ففى عام الرمادة ، رئى عمر ، متبـدلا ، متضرعا ، وعن يمينه العباس بن عبد المطلب خرج للاستسقاء ، فدعا يومئذ وهو مستقبل القبلة رافعا يديه الى السماء يقول :

ـ اللهم انا كنا اذا قحطنا توسلنا بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم فتسقينا ، وانا نتوسل اليك بعم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ونستشفع به اليك فاسقنا .

---

(1) اى لا صلاة له صحيحة او لا صلاة له كاملة (الصواعق المحرقة ص ٨٨)

وقال العباس :

— اللهم انه لم ينزل بلاء من السماء ، الا بذنب ، ولا يكشف الا بتوبة ، وقد توجه بى القوم اليك لمكانى من نبيك ، وهذه أيدينا اليك بالذنوب ، ونواصينا بالتوبة ، وانت الراعى لا تهمل الضالة ، ولا تدع الكسير بدار وضيعة فقد ضرع الصغير ، ورق الكبير ، وارتفعت الشكوى ، وانت تعلم السر واخفى ؛ اللهم فاغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا فانه لا ييأس من رحمتك الا القوم الكافرون .

فمـا اتم دعاءه ، حتى هطل المطر ، ويروى لابن عفيف فى الاستسقاء بالعباس :

ما زال عبـاس بن شـيبة غاية
للنـاس عنـد تنـكر الأيام
رجل تفتحت السـماء لصوته
لمـا دعـا بدعـاوة الاسـلام
فتحت له أبوابهـا لمـا دعـا
فيهـا بجنـد معلمين كـرام
عـم النبى فـلا كمـن هـو عمـه
ولـد ولا كالعم فى الأعمـام
عرفت قريش يوم قام مقـامه
فيـه له فضـل عـلى الأقـوام

وروى ابن ماجة عن أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه . ان رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من خرج من بيته الى الصلاة ، فقال : اللهم انى أسألك بحق السائلين عليك ، وأسألك بحق ممشاى اليك ، فانى لم أخرج اشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة ، انما خرجت اتقاء سخطك ، وابتغاء مرضاتك ، فأسألك ان تعيذنى من النار ، وأن تغفر لى ذنوبى ، فانه لا يغفر الذنوب الا انت ، اقبل الله تعالى عليه ، واستغفرت له الملائكة » .

وفى هذا الحديث الشريف ، حث الرسول صلى الله عليه وسلم على التقرب بالسائلين ، والتوسل بهم . ومن أولى بذلك من سائلى السـادة المقربين ، الطاهرين ، وهم آل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم .

روى ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم لـما ماتت فاطمة بنت اسد ، ام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، قال :

ـ اللهم اغفر لأمى فاطمة بنت اسد ووسع عليها مدخلها بحق نبيـك والأنبياء الذين من قبلى » .

فثبت بهذا الحديث ، جواز التوسل بالأنبياء ، مما يؤيد ثبوت أصل التوسل بلا مراء .

وروى البخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم جاءه ضرير فقال :

ـ يا رسول الله ، أدع الله لى أن يعافينى .

فأمره بأن يتوضأ ، ويحسن الوضوء ، ويقول :

ـ اللهم انى أسألك واتوجه اليك ، بنبيك محمـــد نبى الرحمة ، يا محمد انى اتوجه بك الى ربك فى حاجتى لتقضى ، اللهم شفعه فى . ففعل فعاد بصيرا .

وفى هذا الحديث ، أمر من رسول الهدى بالتوسل بالنبى عليه السلام، وهو رأس التوسل ، وفى بنائه أساس متين . وكان الصحابة رضوان الله عليهم يتوسلون بالرسول صلى الله عليه وسلم ، بعد انتقاله الى الرفيق الأعلى ، وهم نجوم الهدى ، ومنار الرشاد ، وقدوة العباد .

روى ابن شيبة والبيهقى أن الناس اصابهم قحط شديد فى خلافة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، فجاء بلال بن الحرث ، الى قبر النبى صلى الله عليه وسلم وقال :

ـ يا رسول الله ، استسق لأمتك فانهم قد هلكوا

فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال :

ـ ايت عمر فاقرئه السلام ، وأخبره انهم يسقون .

فقام من نومه مسرورا ، وسقاهم ربهم شرابا طهورا .

وهذا نص صريح فى توسل الصحابة عن الامة برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاته . وهو دامغ لمن لا يجيز التوسل به صلوات الله عليـه بعد لحوقه بالرفيق الأعلى ، وآية على جواز التوسل بمن مات من آل بيته رضى الله عنهم ، لأنهم جزؤه ، وبضعه منه .

قال صلى الله عليه وسلم :

ـ حياتى خير لكم تحدثون ويحدث لكم ، ومماتى خير لكم تعرض على اعمالكم ، فما رأيت من خير حمدت الله تعالى عليه ، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم .

يقول الأستاذ الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية سابقا فى مقدمته لكتاب « شفاء السقام » للامام السبكى :

« كما جاز ان يتوسط حى فى قضاء مصلحة حى او ميت ، والفعل لله وحده ، جاز ان يتوسط ميت فى قضاء مصلحة حى أو ميت ، والفعل لله وحده ، فالأرواح باقية على الحياة » .

ويقول الأستاذ الشيخ محمد حسنين مخلوف :

« ان الروح تبقى فى البرزخ مدركة تسمع وتبصر وتسبح صبحا فى ملك الله حيث اراد الله وقدر ، وتتصل بالأرواح الاخرى ، وتأنس بها وتناجيها سواء أكانت أرواح أحياء ام ارواح اموات » .

وقال أيضا :

ـ « وقد تواترت الروايات الصحيحة والرؤى من أصناف بنى آدم على فعل الأرواح بعد موتها ، وانها تقرأ القرآن وتصلى وتخبر أرواح الأحياء عند لقائها ، وتقضى حوائج الناس ، وانها تقدر على ما لا تقدر على مثله حال اتصالها بالبدن فى الدنيا من هزيمة الجيوش الكبيرة بالعدد القليل ، متمثلة وغير متمثلة وظاهر ان هذا هو لبعض الأرواح التى يؤذن لها بذلك » .

وأهل البيت فى برزخهم ، يفيضون ، كما كانوا يفيضون فى الحياة الدنيا، حيوية ومحبة ، ومن علاهم يمدون أيديهم ويهدون علمهم ، ويبثون ايحاءاتهم للاحياء بالعمل الصالح ، والاقبال على طاعة الله تعالى .

وهذا الكتاب يروى صفحات مشرقة عطرة من حياة اهل البيت النبوى الكريم ، سادات العباد ، وأنوار الله فى جميع البلاد .

كانت حياتهم — رضى الله عنهم — عطرا فواحا لا يفنى بمرور الزمن . ولا يذهب ريحه الطيب الزكى بتوالى الحقب والأيام ، انما هو عطر خالد باق نستروحه فى كل حين فنجد أنه هو العطر الفواح الذى تهدأ به النفس، وينشرح له الصدر ، ونستقبل به الحياة — فى دفاعنا عن الحق . وذودنا عن المبادىء الشريفة — احسن الاستقبال . وما احرنا ان نقتبس من منهجهم القويم ، وطريقهم المستقيم فى الحياة ما يوصلنا الى خير الدنيا والآخرة .

والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق

محمود على الشرقاوى

فارس الاسلام

علي بن أبي طالب

ولد داخل الكعبـة ، وربى فى منزل الوحى ، وتتلمذ للقرآن الـكريم واستوحاه ، فأوتى الحكمة وفصل الخطاب ، هو كما قال عنه أبو الحسن البصرى : كان والله سهما صائبا من مرامى الله على عدوه ، ربانى هـذه الأمة ، أعطى القرآن عزائمه ، وعلم ما فيه حتى قبضه الله اليه ، فكان امام الفقهاء وعلماء الشريعة ، وأقدرهم على استنباط الأحكام الدينيـة ، واليه رجع الخلفاء من قبله فى مشكلات الحكم والقضاء .

وهو رضى الله عنه ، فتى الفتيان ، وفارس الاسلام .

قال الرسول صلى الله عليه وسلم عن فتوة الاسلام :

ـ لفتيان أمتى عشر علامات .

وسأل سائل :

ـ وهل لأمتك فتيان يا رسول الله ؟

أجاب عليه الصلاة والسلام :

ـ نعم . وأين الفتوة الأولى ، من فتوة أمتى ؟

ـ وما تلك العلامات يا رسول الله ؟

ـ صدق الحديث ، والوفاء بالعهد ، واداء الأمانة ، وترك الـكذب ، والرحمة باليتيم ، واعطاء السائل ، وبذل النائل ، واكثار الصنائع ، وقرى الضيف ، والحياء .

لقد كان السائل هو نفسه على بن أبى طـالب ، وكان لا يدرى انه سيكون فتى الفتيان ، لأنه كان أشجع فرسان الاسـلام ، فى الصـبر على المكاره ، ومواجهة المصاعب ، بقلب المؤمن وبموقف القدوة ، وضرب المثل .

يقول الرسول الأعظم :

ـ لا سيف الا ذو الفقار ، ولا فتى الا على .

وعلى كرم الله وجهه هو ابن أبى طالب بن عبـد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف ، وهى أول هاشمية ولدت لهاشمى . وهى أول امرأة بايعت الرسول صلى الله عليه وسلم من النساء ، ثم هاجرت الى المدينة وتوفيت بها . وكان الرسول

صلى الله عليه وسلم يكرمها ويعظمها ويدعوها « أمى » . وقد أوصت اليه حين حضرتها الوفاة ، فقبل وصيتها ، وصلى عليها ، ونزل لحدها ، واضطجع معها فيه بعد أن البسها قميصه وقال :

ــ اللهم اغفر لأمى فاطمة بنت اسد ولقنها حجتها ووسع عليها مدخلها بحق نبيك محمد والأنبياء الذين من قبلك فانك أرحم الراحمين .

فقال له أصحابه :

ــ انا ما رأيناك صنعت ــ يا رسول الله ــ بأحد ما صنعت بها .

فقال عليه الصلاة والسلام :

ــ انه لم يكن احد بعد أبو طالب ابر بى منها ، انما البستها قميصى لتكسى من حلل الجنة ، واضطجعت معها ليهون عليها ضغطة القبر .

ولد على قبل البعثة بعشر سنين ، وكان ابوه ابو طالب كثير العيال ، فلما اصاب مكة جدب ، سأل الرسول عمه العباس أن يخفف عن أبى طالب مشقة العيش بأن يعول بعض ولده ، وذهب الرسول والعباس الى أبى طالب ، وعرضا عليه المساعدة فقبل ، فضم العباس جعفرا ، وضم الرسول عليا ، وقد نشأ على فى بيت الرسول الأعظم ، وعاش فى كنفه ، ونعم بقربه ، وظفر بعطفه ، وكان أقرب الناس الى قلبه ، وأحبهم الى نفسه .

ولما بعث الله (جلت قدرته) محمدا الى الناس مبشرا وهاديا ونذيرا ؛ كان على بن ابى طالب اول من اقتبس من ذلك النور الالهى ، فانشرح صدره بهذه الدعوة الكريمة ، وقد روى عنه أنه قال : « لقد عبدت الله قبل أن يعبده احد من هذه الأمة خمس سنين ، فكان بذلك اول من صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : روى عن أنس بن مالك أنه قال : استنبىء النبى صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين ، وصلى على يوم الثلاثاء .

وروى يعقوب بن ابراهيم بن سعد قال : حدثنا يحيى بن الأشعث عن اسماعيل بن اياس بن عفيف الكندى عن جده قال :

« كنت أمرا تاجرا فقدمت الحج فأتيت العباس بن عبد المطلب لأبتاع منه بعض التجارة . وكان امرا تاجرا ، فوالله انى لعنده بمنى ، اذ خرج رجل من خباء قريب منه . فنظر الى الشمس ، فلما رآها قد مالت قام يصلى ، ثم خرجت امراة من ذلك المخبأ الذى خرج منه ذلك الرجل ، فقامت خلفه تصلى ، ثم خرج غلام قد راهق الحلم من ذلك المخبأ فقام

معهما يصلى ، فقلت للعباس . من هذا يا عباس ؟ . قال : هذا محمد بن عبد الله ابن اخى . قلت : من هذه المراة ؟ قال : هذه امراته خديجة بنت خـــويلد قلت : من هذا الفتى ؟ ، قال : على بن ابى طالب ابن عمـــه . قلت : ماهذا الذى يصنع ؟ . قال : يصلى ، وهو يزعم انه نبى ، ولم يتبعه فيما ادعى الا امراته وابن عمه هذا الغلام ، وهو يزعم انه سيفتح عليه كنوز كسرى وقيصر » فى هذا البيت الذى ترفرف عليه اجنحة العناية الالهية ، ويتضوع بأريج الدعوة المباركة ، ويشع منه نور الهداية ، عاش على بن أبى طالب ، فنشأ على الفضيلة ، والتقى والورع ، وخشية الله جل شأنه .

يقول ابن أبى حديد . « كان أعبد الناس واكثرهم صلاة وصوما ، كما كان غاية الغايات فى التقوى والورع ، ومنه تعلم الناس صلاة الليل وملازمة الأوراد وقيام النافلة ، وما ظنك برجـل يبلغ من محافظته على ورده ان يبسط له نطع بين الصفين ليلة الهرير ، فيصلى عليه ورده ، والسهام تقع بين يديه ، وتمر على صماخيه يمينا وشمالا ، فلا يرتاع لذلك ولا يقوم حتى يفرغ من وظيفته ، وما ظنك برجـل كانت جبهته كثفنة (١) البعـير لطول سجوده ، وانت اذا تأملت دعواته ومناجاته وقفت على ما فيها من تعظيم الله سبحانه واجلاله ، ومايتضـمنه من الخضـوع لهيبته والخشـوع لعزته والاستخذاء له ، عرفت ما ينطوى عليه من الاخلاص وفهمت من أى قلب خرجت وعلى أى لسان جرت » .

ظل على يشارك الرسول أفراحه واتراحه ، ويقاسمه حلو العيش ومره ؛ يفرح اذا راى الدعوة الاسلامية مرفوعة اللواء ، ويبتئس اذا اصـــاب الرسول ضر قريش وايذاؤها فى هذه الدعوة الكريمة .

يقول البدر العينى فى شرح البخارى : « على بن أبى طالب الهاشمى المكى المدنى ، هو اخو رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمؤاخاة ، قال له : أنت أخى فى الدنيا والآخرة ، وأبو السبطين ريحانتى الرسول ، واول هاشمى ولد بين هاشميين ، وأول خليفة من بنى هاشم ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة . واحد الستة من أصحاب الشورى الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، واحد الخلفاء الراشدين ، وأحد العلماء الربانيين ، واحد الشجعان المشهورين ، والزهاد المذكورين ، وأحد السابقين الى الاسلام ، واحد الثابتين يوم أحد ، شهد مع الرسول صلى الله عليه وسلم المشاهد كلها الا تبوك ، استخلفه فيها الرسول على المدينة ، واصابته

---

(١) الثفنة من البعير والناقة : الركبة .

يوم « أحد » ست عشرة ضربة ، واعطاه الرسول صلى الله عليه وسلم الراية يوم خيبر ، واخبر أن الفتح يكون على يديه ، ومنـــاقبه جمة ، واحواله فى الشجاعة مشهورة » ويقول المسعودى فى كتـــابه « مروج الذهب » :

« والأشياء التى استحق بها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الفضل هى السبق الى الايمان ، والهجرة ، والنصرة لرسول الله صلى الله عليه السـلم والقربى منـــه ، والقناعة ، وبذل النفس ، والعلم بالكتاب والتنزيل ، والجهاد فى سبيل الله ، والورع والزهد ، والقضاء والحكم ، والفقه ، وكان لعلى عليه السلام منها النصيب الأوفر والحظ الأكبر ؛ الى ما ينفرد به من قول رسول الله صلى الله عليـه وسـلم – حين آخى بين أصحابه « انت اخى » وهو صلى الله عليه وســلم – لا ضد له ولا ند –

وقوله صلوات الله عليه : « أنت منى بمنزله هرون من موسى الا أنه لا نبى بعدى »

* * *

كان على بن ابى طالب رضى الله عنه — كما قال واصفوه — ربعة بين الرجال الى القصر اقرب ، أسمر اللون ، حسن الوجه ، واضح البشاشة ، ادعج (١) العينين عظيمها اذلف (٢) الأنف ، أصلع ليس فى رأسه شعر الا من خلفه ، ناتىء الجبهة له صفاف (٣) كأنه اكليل ، وكان عنقه إبريق فضة ، كث اللحية طويلها تملأ صدره لا يغير شيبه ، عريض المنكبين لهما مشاش(٤) كمشاش السبع الضارى ، ولا يبين عضده من ساعده قد ادمجت ادماجا ، عبل (٥) الذراعين ، شثن (٦) الكفين ، وكان كبير البطن ، يميل الى السمنة فى غير افراط ، أقرى (٧) الظهر ، عريض الصدر كثير شعره ، ضخم الكسور (٨) ، عظيم الكراديس (٩) غليظ العضلات ، ممشى (١٠) الساقين ، ضخم عضلة الذراع ، دقيق مستدقها ، ضخم عضلة الساق دقيق مستدقها ، ينكفأ فى مشيته على نحو يقارب مشية النبى ، واذا مشى الى الحرب هرول .

وقد نشأ رضى الله عنه ، قوى البنيان مكين التكوين ، وظل كذلك فى شبابه وكهولته وفى شيخوخته ، فكان — كما قال واصفوه — قوى الساعد واليد قوة بالغة ، ما صارع أحدا الا صرعه ، ولم يبارز أحد الا قتله ، اذا أمسك بذراع أحد فكأنه أمسك بنفسه فلا يستطيع أن يتنفس ، وقد يقتلع الفارس من ظهر جواده بيده ، ويرمى به الأرض غير جاهد ولا حافل فعل ذلك أيام « صفين » « بأحمر » مولى بنى أمية ، لما هم أن يضرب عليا بعد ان قتل « كيسان » مولاه ، فوضع على كرم الله وجهه يده فى جيب درع ، « أحمر » وجذبه عن فرسه وحمله على عاتقه ثم ضرب به الأرض

---

(١) الدعج : شدة سواد العين مع سعتها .

(٢) الذلف : قصر الانف وصغره .

(٣) الصفاف : الطرة حول رأس الاصلع .

(٤) المشاش : رءوس العظام كالمنكبين والمرفقين والركبتين ، والمراد أن رءوس عظام المنكبين منه كرؤوس عظام منكبى الاسد فى الغلظ .

(٥) عبل الذراعين : ضخمها .

(٦) شثن : غليظ

(٧) شـــديد

(٨) الاعضـــاء

(٩) الكراديس جمع كردوس وهو كل عظمتين التقتا فى مفصل .

(١٠) دقيقهما .

فكسر منكبه وعضديه واجهز عليه الحسين ومحمد بن الحنفية رضى الله عنهما . وهو الذي حمل بابا بخيبر ، عجز عن قلبه النفر من الاشداء ، واتخذه ترسا حين سقط ترسه عند فتح حصن ناعم احد حصون خيبر المنيعة .

روى الطبرى عن أبى رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

خرجنا مع على بن أبى طالب حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم برايته . فلما دنا من الحصن خرج اليه اهله فقاتلهم ، فضربه رجل من اليهود فطاح ترسه من يده ، فتناول على رضى الله عنه بابا كان عند الحصن ، فتترس به عن نفسه ، فلم يزل فى يده ، وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ، ثم القاه من يده حين فرغ ، فقد رايتنى فى نفر سبعة انا ثامنهم ، نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه . » .

وورد انه جعل الباب قنطرة اجتاز المسلمون عليها « الخندق » الى داخل أبنية الحصن . وكان اول ما عرف عن شجاعة على رضى الله عنه ، مبيتة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ليلة الهجرة ، وهو يعلم ما تأتمر به قريش من قتل الراقد على فراشه ، وان فتية منهم يحاصرون البيت ، ويترصدونه ، حتى اذا خرج يقتلونه ، فلم يثنه ذلك عن المبيت ، وفدائه الرسول بنفسه ، فضرب المثل الأعلى فى التضحية والفداء . ثم أدرك الرسول المدينة سالما على بركة الله ، وتتابع المسلمون الى المدينة مهاجرين، فهاجر على مع من هاجر من المسلمين ، ثم آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار وقال لعلى : انت اخى فى الدنيا والآخرة ، وآخى بينه وبين نفسه.

وقد ظل هذا الرباط الوثيق بين على وابن عمه الرسول ، ثم ازداد وثاقه بزواجه من ابنته السيدة فاطمة الزهراء .

* * *

ورد فى فضله آيات كريمة ، واحاديث شريفة جمة ، فقد نقل الواحدى فى كتابه « أسباب التنزيل » ان الحسن والشعبى والقرطبى قالوا : ان عليا رضى الله عنه والعباس بن عبد المطلب وعثمان بن شيبة افتخروا فقال عثمان ابن شيبة : « اعطانى الله رسول الله صلى الله عليه وسلم السدانة يعنى مفاتيح الكعبة » وقال العباس بن عبد المطلب : اعطانى رسول الله صلى الله عليه وسلم السقاية ، وهى زمزم » قالا : « ولم يعطك شيئا يا على . فأنزل الله تعالى : « اجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله (الى ان قال) الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وانفسهم اعظم درجة عند الله واولئك هم الفائزون » .

ونقل الواحدى فى تفسيره عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان مع على رضى الله عنه اربعة دراهم لا يملك غيرها فتصدق بدرهم ليلا ، وبدرهم نهارا ، وبدرهم سرا ، وبدرهم علانية فأنزل الله تعالى :

« الذين ينفقون اموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

وقال الامام ابو اسحق الثعلبى فى تفسيره ان سفيان بن عيينة سئل عن قوله تعالى : « سأل سائل بعذاب واقع » فيمن نزلت ؟ فقال السائل : لقد سألتنى عن مسألة لم يسألنى عنها احد قبلك . حدثنى أبى عن جعفر ابن محمد عن آبائه رضى الله عنهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى الناس فاجتمعوا فأخذ بيد على رضى الله عنه وقال :

ــ من كنت مولاه فعلى مولاه .

فشاع ذلك فى البلاد ، وبلغ الحرث بن النعمان الفهرى فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقة له فأناخ راحلته ونزل عنها وقال :

ــ يا محمد امرتنا عن الله عز وجل ان نشهد ان لا اله الا الله وانك رسول الله فقبلنا منك ، وامرتنا ان نصلى خمسا فقبلنا منك ، وامرتنا بالزكاة فقبلنا ، وامرتنا إن نصوم رمضان فقبلنا ، وامرتنا بالحج فقبلنا ، ثم لم ترض بهذا حتى رفعت ابن عمك تفضله علينا فقلت : من كنت مولاه فعلى مولاه ، فهذا شيء منك ام من الله عز وجل ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

ــ والذى لا آله الا هو أن هذا من الله عز وجل .

فولى الحرث بن النعمان يريد راحلته وهو يقول :

ـ اللهم انَ كان ما يقول محمد حقا فان علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم .

فما وصل الى راحلته حتى رماه الله عز وجل بحجر سقط على هامته فقتله .

فأنزل الله تعالى :

« سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع . من الله ذى المعارج » .

واخرج مسلم عن على بن ابى طالب رضى الله عنه قال :

ـ « والذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، انه لعهد النبى الأمى انه لا يحبنى الا مؤمن ولا يبغضنى الا منافق » .

واخرج الحاكم وصححه عن على قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اليمن . فقلت : يا رسول الله بعثتنى وانا شاب اقضى بينهم ولا ادرى ما القضاء . فضرب صدرى ، ثم قال :

ـ اللهم اهد قلبه وثبت لسانه . فوالذى فلق الحبة ما شككت فى قضاء بين اثنين بعد .

واخرج الطبرانى بسند حسن عن ام سلمة رضى الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :

ـ من احب عليا فقد احبنى ، ومن احبنى فقد احب الله . ومن ابغض عليا فقد ابغضنى ومن ابغضنى فقد ابغض الله .

واخرج الطبرانى فى الأوسط عن ام سلمة رضى الله عنها قالت :

ـ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : على مع القرآن ، والقرآن مع على لا يفترقان حتى يردا على الحوض .

وعن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

قال رسول الله صلى الله لميه وسلم :

ـ « انا مدينة العلم ، وعلى بابها ، فمن اراد العلم فليأت به » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ان قتل جعفر بن ابى طالب رضى الله عنه بمؤتة من ارض الشام ـ لا يبعث بعلى فى وجه من الوجوه الا وهو يقول :

« رب لا تذرني فردا وانت خير الوارثين » .

وحمل علي يوم أحد على كردوس من المشركين خشن فكشفهم . فقال جبريل عليه السلام :

ـ يا محمد ، ان هذه لهي المواساة .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

ـ يا جبريل ان عليا مني .

قال جبريل عليه السلام :

ـ وانا منكم .

وقال عمار بن ياسر . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعلي بن ابي طالب :

ـ يا علي ، ان الله عز وجل قد زينك بزينة لم يتزين العباد بزينة احب اليه منها :

الزهد في الدنيا . فجعلك لا تنال من الدنيا شيئا ، ولا تنال الدنيا منك شيئا ، ووهب لك حب المساكين . ورضوا بك اماما ، ورضيت بهم اتباعا، فطوبى لمن احبك ، وصدق فيك ، وويل لمن أبغضك وكذب عليك ، فأما الذين احبوك وصدقوا فيك ، فهم جيرانك في دارك ، ورفقاؤك في قصرك ، واما الذين ابغضوك وكذبوا عليك ، فحق على الله ان يوقفهم موقف الكذابين يوم القيامة .

سئل ابن عباس رضي الله عنهما ذات يوم ، أين علمك من علم علي ابن عمك ؟

فاجاب : كقطرة المطر الى البحر المحيط .

وكان علي رضي الله عنه حجة المسلمين في الفقه والتفسير والفتيا حتى ان عمر بن الخطاب ، على جلالة قدره وعلمه ، كان يرجع اليه فيما يشكل عليه من أمور الدين ، وقد قال : لا يفتين احد في المسجد وعلي حاضر ، كما قال رضي الله عنه : لولا علي لهلك عمر .

وقال سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص لعبد الله بن عياش بن ابي ربيعة :

ـ يا عم : لم كان ميل الناس الى علي ؟

فأجاب :

– يابن أخى ، ان عليا كان له ما شئت من ضرس قاطع فى العلم ، وكان له البسطة فى العشيرة ، والقدم فى الاسلام ، والصهر لرسول الله ، والفقه فى السنة ، والنجدة فى الحرب ، والجود بالماعون .

سأل معاوية بن ابى سفيان سعدا بن ابى وقاص :

– ما يمنعك ان تسب ابا تراب (١) « على رضى الله عنه » .

قال :

– اما ما ذكرت ثلاثا قالهن رسول الله فلن أسبه ، لأن يكون لى واحدة منهن احب الى من حمر النعم ، سمعت رسول الله يقول لعلى ، وخلفه فى بعض مغازيه .

فقال له على : يا رسول الله ، تخلفنى مع النساء والصبيان ؟

فقال له رسول الله : اما ترضى ان تكون منى بمنزلة هرون من موسى الا أنه لا نبى بعدى .

وسمعته يقول يوم خيبر : لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله . قال : فتطاولنا لها ، فقال : ادعوا لى عليا ، فأتاه وبه رمد ، فبصق فى عينيه ، ودفع الراية اليه ، ففتح الله عليه .

ولما انزلت هذه الآية : « فقل تعالوا ندع أبناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وانفسكم ... « آل عمران : ٦١ » . دعا الرسول صلى الله عليه وسلم عليا وفاطمة وحسنا وحسنيا وقال : « اللهم هؤلاء اهلى » .

---

(١) كنية كناه بها الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى قصة معروفة رواها الامام البخارى وهى : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت فاطمة الزهراء ، فلم يجد عليا فى البيت ، فقال : أين ابن عمك ؟ قالت : كان بينى وبينه شىء فغاضبنى ، فخرج فلم يقل عندى (من القيلولة) « فقال رسول الله لانسان : انظر اين هو ؟ فجاء فقال : يا رسول الله ، هو فى المسجد راقد ، فجاء الرسول وهو مضطجع قد رداؤه عن شقه واصابه تراب ، فجعل الرسول يمسحه عنه ويقول : « قم ابا تراب » وقد كانت هذه الكنية احب الكنى اليه . ولكن اعداء الامام من بنى أمية كانوا يعيرون بها الامام على بن ابى طالب ، ويسبونه بها على المنابر ، ويجعلونها له نقيصة ووصمة ، فكأنما كسوه بها الحلى والحلل – كما يقول الحسن البصرى

تولى الامام على بن ابى طالب الحكم ، فلم تغير الخلافة ما اتصف به من البعد عن الهوى ، والزهد فى الدنيا والعمل للاخرة ابتغاء وجه الله العـزيز الحكيم ، وكان يلبس من اللباس أخشنه .

روى عن عبد الله بن ابى الهذيل قال :

« رأيت عليا خرج وعليه قميص غليظ دارس ، اذا مد كم قميصـه بلغ الظفر ، واذا ارسله صار الى نصف الساعد » .

وروى ابحر بن جرموز عن ابيه قال :

« قال رايت عليا بن ابى طالب يخرج من الكوفة وعليه قطريتان (نوع من البرود) متزرا بالواحدة مترديا بالأخرى ، وازاره الى نصف الساق ، وهو يطوف بالأسواق ، ومعه درة يأمرهم بتقوى الله وصدق الحديث وحسن البيع والوفاء بالكيل والميزان » .

كان على رضى الله عنه يسوى بين الناس ، لا يحب ان يرى فى بيت المال مالا الا انفقه على الفقراء والمحتاجين .

روى انه اذا ورد عليه مال لم يبق منه شيء الا قسـمه ، ولا يترك فى بيت المال منه الا ما يعجز عن قسمته فى يومه ذلك ، ويقول : يا دنيا غرى غـيرى .

كان لا يفرق فى العطاء بين عربى أو عجمى ، أو بين قريب او بعيـد . جاءه عقيل اخوه ، وقد لزمه دين يريد ان يسده عنه خليفة المسـلمين ، القابض على بيت المـال ، فأضافه على . ودعا بعشائه ، فاذا خبـز وملح وبقل . فقال عقيل متسائلا عن الوليمة التى كان ينتظـرها : ما هـو الا ما ارى ؟

فأخبره على أنه لا سبيل الى تغيير هذا الطعام

فقال عقيل : فتقضى دينى ؟

قال على : وكم دينك ؟

قال : اربعـون الفا .

قال على : ما هى عندى ، ولكن أصبر حتى يخرج عطائى فانه اربعـة آلاف درهم فأدفعه اليك .

فقال عقيل : بيوت المال بيدك ، وانت تسوفنى بعطائك ؟

فقال على : تامرنى ان ادفع اليك اموال المسلمين وقد ائتمنونى عليها !!

وقد شهد له معاوية بن ابى سفيان بهذه النزاهة النزيهة ، فقد حج معاوية بعد استشهاد على كرم الله وجهه فسأل عن امراة يقال لها الدرامية الحجونية كانت من انصار الامام الشهيد ، فلما جاءت قال لها :

ـ أتدرين لم بعثت اليك ؟

اجابت :

ـ لا يعلم الغيب الا الله .

قال :

ـ بعثت اليك لأسالك علام أجبت عليا وأبغضتنى ، وواليته وعاديتنى ؟

قالت :

ـ او تعفينى ؟

قال :

ـ لا اعفيك .

قالت :

ـ اما اذا أبيت . فانى أجبت عليا على عدله فى الرعية ، وقسمه بالسوية ، وابغضتك على قتال من هو اولى منك بالأمر ، وطلبتك ماليس لك بحق ، وواليت عليا على ما عقد له رسول الله من الولاء ، وحبه المساكين ، واعظامه لأهل الدين ، وعاديتك على سفكك الدماء ، وجورك فى القضاء ، وحكمك بالهوى .

قال :

ـ هل رأيت عليا ؟

قالت :

ـ اى والله .

قال :

ــ كيف رايته ؟

قالت :

ــ رايته والله لم يفتنه الملك الذى فتنك ، ولم تشغله النعمـــة التى

قال :

شــغلتك .

قال :

ــ فهل لك حاجة تقضيها ؟

قالت :

ــ او تفعل اذ سالتك ؟

قال : نعم .

قالت :

ــ تعطينى مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها .

ــ تصنعين بها ماذا ؟

ــ اغذو بالبانها الصغار ، واستحيى بها الكبار ، واكتسب بها المكارم ، واصلح بها بين العشائر .

ــ فان اعطيتك ذلك فهل احل عندك محل على بن ابى طالب .

ــ سبحان الله ! او دونه .

فانشأ يقــول :

اذا لم اعــد بالحــلم منى عليكم
فمن ذا الذى بعدى يؤمل للحلم ؟
خذيها هنيئا واذكرى فعل ما جد
جزاك على حرب العداوة بالسلم

ثم قال : والله لو كان على حيا ما اعطاك منها شيئا .

قالت : لا والله ولا برة واحدة من مال المسلمين ! !

قال على عليه السلام : ان الدنيا قد ارتحلت مدبرة ، وان الآخرة قــد ارتحلت مقبلة ، ولكل واحدة منها بنون ؛ فكونوا من ابناء الآخرة ، ولا تكونوا

من ابناء الدنيا . الا ان الزاهدين فى الدنيا اتخذوا الأرض بساطا ، والتراب فراشا ، والماء طيبا . الا من اشتاق الى الجنة سلا عن الشهوات ، ومن اشفق من النار رجع عن الحرمات ، ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات، الا ان لله عبادا كمن راى اهل الجنة فى الجنة مخلدين ، واهل النار فى النار معذبين : شرورهم مأمونة ، وقلوبهم محزونة ، وانفسهم عفيفة ، وحوائجهم خفيفة . صبروا اياما قليلة لعقبى راحة طويلة . اما بالليل فصافوا اقدامهم تجرى دموعهم على خدودهم ، يجأرون الى الله : ربنا ربنا ؛ يطلبون فكاك رقابهم ، واما بالنهار فحلماء علماء ، بررة اتقياء ؛ كأنهم القداح ، ينظر اليهم الناظر فيقول : مرضى ! وما بالقوم مرضى ، ويقول : خولطوا ! وقد خالط القوم امر عظيم ! !

***

أوضح الاسلام طبيعة العلاقة بين الحاكم والشعب ، ووضع الأساس المكين لدولة ديمقراطية روحية ، تمتزج فيها الفكرة الديمقراطية الحقة بالروح الدينى ، وتقوم فلسفتها على أساس الاعتناء بوحدانية الخالق ، وبكرامة الانسان والمساواة الكاملة بين أفراد الشعب فى الحقوق والواجبات.

وقد حدد الامام على بن ابى طالب مهمة الحاكم فى الرسالة التى بعث بها الى مالك بن الحارث الأشتر حين ولاه مصر بأنها : جباية خراجها ، وجهاد عدوها ، واستصلاح أهلها ، وعمارة بلادها ، وامره بتقوى الله ، وايثار طاعته ، واتباع ما امر به فى كتابه ، من فرائضه ، وسننه التى لا يسعد احد الا باتباعها ، ولا يشقى الا مع جحودها واضاعتها ، وان ينصر الله سبحانه بقلبه ويده ولسانه ، فانه جل شأنه ، قد تكفل بنصر من نصره ، واعزاز من اعزه .

وامره ان يكسر نفسه من الشهوات ويزعها عند الجمحات (١) ، فان النفس امارة بالسوء ، الا ما رحم الله .

ويفصل الامام ما اجمل ، فيبدأ برسم الخطوط الرئيسية لشخصية الحاكم المسلم ، وسلوكه وصلاته بالناس ، يقول الامام لواليه :

« املك هواك وشح بنفسك عما لا يحل لك ، فان الشح بالنفس الانصاف منها فيما احبت او كرهت . واشعر قلبك الرحمة للرعية ، والمحبة لهم ، واللطف بهم ، ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم اكلهم فانهم صنفان : اما اخ لك فى الدين ، او نظير لك فى الخلق ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذى تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه ، فانك فوقهم ، ووالى الأمر عليك فوقك والله فوق من ولاك ! وقد استكفاك (٢) امرهم ، وابتلاك بهم ، ولا تنصبن نفسك لحرب الله (٣) فانه لا يد لك بنقمته ، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته .

ولا تندمن على عفو ، ولا تبجحن — أى لا تفرح — بعقوبة ، ولا تسرعن

---

(١) يزعها : اى يكفها عن مطامعها اذا جمحت عليه فلا تنقاد الا لقائد العقل الصحيح والشرع الصحيح .

(٢) استكفاك : طلب منك كفاية امرهم والقيام بتدبير مصالحهم .

(٣) أراد بحرب الله مخالفة شريعته بالظلم « ولا يد لك بنقمته » اى ليس لك يد تدفع نقمته — اى لا طاقة لك بها .

الى بادرة وجدت منها مندوحة . ولا تقول انى مؤمر — اى مسلط — فأطاع فان ذلك اوغال — افساد — فى القلب ، ومنهكة للدين ، وتقرب من الغير .

اياك ومساماة الله فى عظمته ، والتشبه به فى جبروته ، فان الله يذل كل جبار ، ويهين كل مختال .

انصف الله وانصف الناس من نفسك ومن خاصة اهلك ومن لك فيه هوى من رعيتك .

وليكن احب الأمور اليك وسطها فى الحق ، واعمها فى العدل واجمعها لرضى الرعية ، وانما عماد الدين ، وجماع المسلمين ، والعدة للاعداء العامة فى الأمة ، فليكن صفوك لهم ، وميلك معهم .

وليكن ابعد رعيتك منك واشنأهم — ابغضهم — عندك اطلبهم لمسائب الناس ، فان فى الناس عيوبا ، الوالى أحق من سترها ، وأطلق من الناس عقدة كل حقد ، ولا تعجلن الى تصديق ساع ، فان الساعى غاش وان تشبه بالناصحين .

ولا تدخلن فى مشورتك بخيلا يعدل بك عن الفضل — اى الاحسان بالبذل — ، ويعدك الفقر ، ولا جبانا يضعفك عن الامور ، ولا حريصا يزين لك الشدة بالجور ، فان البخل والجبن والحرص غرائز شتى ، يجمعها سوء الظن بالله !

ان شر وزرائك من كان للاشرار قبلك وزيرا ، ومن شركهم فى الآثام فلا يكونن لك بطانة فانهم اعوان الآثمة واخوان الظلمة . وليكن آثر اعوانك عندك اقولهم بمر الحق لك ، والصق بأهل الورع والصدق ، ثم رضهم على الا يطروك (١) ، ولا يبجحوك (٢) بباطل لم تفعله ، فان كثرة الاطراء تحدث الزهو وتدنى من العزة .

ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء ، واعلم انه ليس شيء بأوعى الى حسن ظن راع برعيته من احسانه اليهم ، وتخفيفه المؤونات عليهم .

ولا تنقضى سنة صالحة عمل بها صدر هذه الامة ، ولا تحدثن سنة تضر بشيء من ماضى تلك السنة ، واكثر مدارسة العلماء ، ومناقشة الحكماء فى تثبيت ما صلح عليه امر بلادك .

---

(١) رضهم : اى عودهم على ان لا يطروك — اى يزيدوا فى مدحك .

(٢) ولا يبجحوك : اى يفرحوك بنسبة عمل عظيم اليك ولم تكن فعلته .

بهذا يرسم الامام على بن ابى طالب صورة واضحة للحاكم الصالح فى شخصه وما يجب عليه ان يكون موقفه من الشعب ، والصفات التى ينبغى ان يتطلبها فى وزرائه ومستشاريه . ثم يوضح الامام بعد ذلك الفئات التى يتكون منها المجتمع ، وحق كل منها من عناية الحاكم ورعايته فيقول :

« واعلم ان الرعية طبقات لا يصلح بعضها الا ببعض ، ولا غنى ببعضها عن بعض : فمنها جنود الله ، ومنها كتاب العامة والخاصة (١) . ومنها قضاة العدل ، ومنها عمال الانصاف والرفق ومنها اهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس ، ومنها التجار واهل الصناعات ، ومنها الطبقة السفلى من ذوى الحاجة والمسكنة ، وكل قد سمى الله له سهمه — اى نصيبه من الحق — ووضع على حده فريضة فى كتابه او سنة نبيه — صلى الله عليه وسلم — عهدا منه عندنا محفوظا .

ويفصل الامام على كرم الله وجهه ما اجمل فى هذا التقسيم ، فيوضح الدور الذى تقوم به كل فئة من هذه الفئات فى حياة المجتمع ، وما به صلاحها ، ويبين المزالق التى يمكن أن تنحرف اليها اى واحدة منها اذا هضمت حقوقها ، او اسيئت معالجة شئونها ، أو اختير لقيادتها من لا يصلح لها ، أو شعرت باختلال ميزان العدالة فيها

والامام فى تصويره لأحوال هذه الفئات يصدر عن عقل راجح ، وبصيرة نافذة فى احوال النفوس ، وفى علاقات الجماعات ، وتعرضها للصلاح والفساد ، فهو فى توجيهه للوالى فى أمر القضاء يقول :

اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك فى نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تحكمه (٢) الخصوم ولا يتمادى فى الزلة ، ولا يحصر — أى لا يضيق صدره — من الفيء الى الحق اذا عرفه ، ولا تشرف نفسه على طمع ، ولا يكتفى بأدنى فهم دون اقصاه وأوقفهم فى الشبهات واخذهم بالحجج ، واقلهم تبرما بمراجعة الخصم ، واصبرهم على كشف الأمور ، واصرمهم عند اتضاح الحكم ، ممن لا يزدهيه اطراء ولا يستميله اغراء .

ثم اكثر تعاهد قضائه ، وافسح له فى البذل ما يزيل علته ، وتقل معه

---

(١) كتاب : جمع كاتب . والكتبة منهم عاملون للعامة كالمحاسبين فى المعتاد لشئون العامة كالخراج والمظالم ، ومنهم مختصان بالحاكم يفضى اليهم بأسراره ، ويوليهم النظر فيما يكتب لاوليائه واعدائه ، وما يقرر فى شئون حربه وسلمه مثلا .

(٢) امحكه : جعله محكان ، اى عسر الخلق ، أو اغضبه .

حاجته الى الناس ، واعطه المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال عندك .

فاذا ما جاء الى شئون التجار وذوى الصناعات أوصى بهم خيرا ، وبين له الدور الإيجابى الذى يقومون به لخـدمة المجتمع ، ثم حذره من انحراف بعضهم فقال :

« ثم استوصى بالتجار وذوى الصناعات واوصى بهم خـيرا : المقيم والمضطرب (١) بماله والمترفق ببدنه ، فانهم مواد المنافع ..

واعلم — مع ذلك — ان فى كثير منهم ضيقا فاحشا ، وشـحا قبيحا واحتكارا المنافع ، وتحكما فى البياعات ، وذلك باب مضرة للعـامة ، وعيب على الولاة ، فامنع فى الاحتكار فان رسول الله صلى الله عليه وسلم — منع منه . وليكن البيع بيعا سمحا ، بموازين عدل ، واسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع — اى المشترى — فمن قارف حكره بعد نهيك اياه فنكل به ، وعاقبه فى غير اسراف » .

ويوجه الامام على عناية خاصة الى الطبقة المحدودة الدخل او العاجزة عن الكسب فيقول :

ثم الله الله فى الطبقـة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المسـاكين والمحتاجين من اهل البؤس والزمنى (٢) فان فى هذه الطبقة قانعـا — اى سائل — ومعتزا — اى المتعرض للعطاء بلا سؤال — واحفظ الله ما استحفظك من حقه عليهم واجعل لهم قسما من بيت مالك ، وقسما من غلات صوافى الاسلام — اى ارض الغنيمة — فى كل بلد ، فان للاقصى منهم مثـل الذى للادنى ، وكل قد استرعيت حقه .

فلا تشخص همك عنهم ، ولا تصعر خدك لهم ، وتفقد امور من لا يصل اليك منهم ممن تقتحمه العيون — اى تكره ان تنظر اليه احتقارا — وتحقره الرجال ، ففرغ لأولئك ثقتك من اهل الخشية والتواضع ، فليرجع اليـك امورهم ، ثم اعمل فيهم بالاعذار الى الله يوم تلقاه ، فان هـؤلاء من بين الرعية احوج الى الانصاف من غيرهم ، وتعهد اهل اليتيم وذوى الرقة فى السن — اى المتقدمون فيه — ممن لا حيلة له ، واجعل لذوى الحاجات منك

---

(١) المضطرب : المتردد بأمواله بين البلدان ، والمترفق : المكتسب .

(٢) الزمنى : جمع زمين ، وهو المصاب بالزمانة اى العاهة يريد أرباب العاهات المانعة لهم عن الاكتساب .

قسما تفرغ لهم فيه شخصك ، وتجلس لهم مجلسا عاما فتتواضع فيه لله الذى خلقك ، وتقعد عنهم جندك واعوانك من حراسك ، وشرطك حتى يكلمك متكلمهم غير متتعتع — اى غير خائف — فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى غير موطن : « لن تقدس امة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوى غير متتعتع » .

ويتحدث الامام بعد ذلك الى عامله فى أمور عامة ، تعين الحاكم على النجاح : منها ان يحرص على اصدار حاجات الناس يوم ورودها ، وان يمضى لكل يوم عمله ، فان لكل يوم ما فيه ، وان يجعل لنفسه فيما بينه وبين الله افضل تلك المواقيت وأن كانت كلها لله اذا صلحت النية وسلمت الرعية والا يطيل احتجابه عن الرعية فان احتجاب الولاة عن الرعية شعبة من الضيق ، وقلة علم بالأمور ، وان يحول بين بطانته وخاصته وبين ما ينحرفون اليه من استئثار وتطاول وانصاف فى معاملة ، وان يظهر للرعية بعذره ان ظنت به حيفا ، والا يدفعن صلحا دعاه اليه عدوه ولله فيه رضا ، وان يحذر مع ذلك كل الحذر من عدوه بعد صلحه . وان يحوط عهده بالوفاء ويرعى ذمته بالأمانة ، وأن يبرىء نفسه من الاعجاب بها ومن حب الاطراء وان يتحاشى المن على الرعية بالاحسان والعجلة بالامور قبل أوانها والتسقط — اى التهاون — فيها عند امكانها ، او اللجاجة فيها اذا تنكرت، أو الوهن عنها اذا استوضحت » .

هذه الرسالة تترجم روح التعاليم الاسلامية فى الحكم والادارة الى دستور واضح محدد المعالم ، وتنبع من المعين الأول الذى فجرته آيات القرآن المجيد وسنة الرسول الكريم .

لما حضرت الوفاة الامام على بن ابى طالب اوصى ، فكانت وصيته :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما اوصى به على بن ابى طالب ، اوصى انه يشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وان محمدا عبده ورسوله ، ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . ثم ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك امرت وانا من المسلمين ؛ ثم اوصيك يا حسن وجميع ولدى واهلى بتقوى الله ربكم ، ولا تموتن الا وانتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا فانى سمعت ابا القاسم صلى الله عليه وسلم يقول : « ان صلاح ذات البين افضل من عامة الصلاة والصيام » . انظروا الى ذوى ارحامكم فصلوهم يهون الله عليكم الحساب ، الله الله فى الايتام ، فلا تعفوا افواههم ، ولا يفيض بحضرتكم . والله الله فى جيرانكم ، فانهم وصية نبيكم صلى الله عليه وسلم ، مازال يوصى به حتى ظننا انه سيورثه ، والله الله فى القرآن . فلا يسبقنكم الى العمل به غيركم ، ووالله الله فى الصلاة ، فانها عمود دينكم ، ووالله الله فى بيت ربكم فلا تخلوه ما بقيتم ، فانه ان ترك لم ينـاظر . والله والله فى الجهاد فى سبيل الله بأموالكم وانفسكم . والله الله فى الزكاة ، فانها تطفىء غضب الرب ، والله الله فى ذمة نبيكم ، فلا يظلمن بين اظهركم ، والله الله فى اصحاب نبيكم ، فان رسول الله اوصى بهم ، والله الله فى الفقراء والمساكين فأشركوهم فى معايشكم ، والله الله فيما ملكت ايمانكم . الصلاة الصلاة . لا تخافن فى الله لومة لائم ، يكفيكم من ارادكم وبغى عليكم . وقولوا للناس حسنا كما امركم الله ، اولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيولى الأمر شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم . وعليكم بالتواصل ، والتباذل ، واياكم والتدابر والتقاطع والتفرق وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ، واتقوا الله ان الله شديد العقاب . حفظكم الله من اهل بيت ، وحفظ فيكم نبيكم ، استودعكم الله ، واقرا عليكم السلام ورحمة الله » .

لما استشهد على عليه السلام — فى شهر رمضان سنة اربعين من الهجرة — قام الحسن بن على رضى الله عنه خطيبا فقال :

« لقد قتلتم الليلة رجلا فى ليلة فيها نزل القرآن ، وفيها رفع عيسى بن مريم عليه السلام ، وفيها قتل يوشع بن نون فتى موسى عليهما السلام

والله ما سبقه احد كان قبله ، ولا يدركه احد يكون بعـــده ، والله ان كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبعثه فى السرية وجبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره ، والله ما ترك صفراء ولا بيضاء الا ثمانمائة ـ او ســـبعمائة ـ ارصدها لخادمه ! ! » .

وحين علمت السيدة عائشة رضى الله عنهـا بموت على بن ابى طـالب ذهبت الى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم فاخذت بعضـــادتى البـاب وقالت :

« السلام عليك يا رسول الله .. انا ناعية اليك احظى احبابك ، وذاكرة لك اكرم اودائك عليك ، قتل والله حبيبك المجتبى ، وصفيك المرتضى ، قتل والله من زوجته خير النساء ، قتل والله من آمن ووفى ، وانى لنـاوية ثكلة ، وعليه باكية حراء .. » .

حمزة بن عبد المطلب

أسد الله وأسد رسوله

كان عبـد المطلب بن هاشم من اشراف قريش ، ولكنه يمتاز عن قومه بالكثير من الوقار وميل الى الدين ، يعظم ما كان قومه يعظمـون من تلك الآلهة ، ولكن عن اخلاص وصدق . وقد اتيحت له اشياء زادته امتيازا عن قومه ، فهو قد احتفر بئر زمزم .

وهو لم يحتفرها من ذات نفسه ، وانما راى فى المنام من يامره باحتفارها وحدد له مكانها ، فاقبل على صنع ما امر به حتى اتمه .

وقد وجد كنزا فى اثناء احتفار البئر قبل ان يصل الى الماء فنازعته فيه قريش فجعله للكعبة ، ولم ياخذ هو ولا غيره منه شيئا . ثم انبعث الماء فنازعته فيه قريش ترى ان البئر لها ويرى هو انها له لانه احتفرها بيده وانبعث ماؤها بجهده وكده .

وامعنت قريش فى الخصومة ، حتى اجمعوا رايهم على الاحتكام الى احد الكهان فاوفدوا مع عبد المطلب وفدا يخاصمونه الى ذلك الكاهن ، غير انهم لم يحتـاجوا الى هذا الاحتكام لأن آية ظهرت لهم فى الطريق اقنعتهم ان عبد المطلب ليس كاذبا ولا متكلفا .

وفى اثناء هذه الخصومة شعر عبد المطلب انه وحيد ليس له من ولد ينصرونه فنذر لئن رزق عشرة منهم ليقربن احدهم الى الآلهة .

وقد رزق عشرة من الولد ، فأراد ان يقرب احدهم ، وهم بذلك ولـكن قريشـا رفضـت ذلك ، ومازالت به حتى أقنعته بأن يقرع بين ابنه وبين عشرة من الابل فجعل كلما اقرع خرج السهم على ابنه حتى بلغت الابل مائة فقربها الى الآلهة ونجا ابنه ذاك الفتى عبد الله ، على أن عبد الله الذى افتداه أبوه بالابل فاغلى فى الفداء لم يعمر طويلا ، وانما زوجه أبوه آمنة بنت وهب ثم أرسله للتجارة فى الشام ، فذهب ولم يعد أدركه الموت بيثرب فى عودته وقد ولد له بعد موته صبى هو الذى اختار الله تعالى ليأتى الانسانية بدين الحـق .

وقد توفى عبد الله وحمزة بن عبد المطلب فى السادسة من عمره . فنشأ وهو يسمع من اهله اخبار اخيه الذى عصفت به يد المنون وهو فى ريعـان الشباب على صورة محزنة فى يثرب بعيدا عن اهله وزوجه . فلما بلغ حمزة مبلغ الادراك كان من ارق الناس لابن اخيـه اليتيم ، وكان يؤثره بالحب

والمودة لما راى منه كرم خلق ، وصفاء نفس ، ونقاء قلب ، فجمع الله بين قلبيهما برباط قوى متين .

كان حمزة بن عبد المطلب يكبر محمدا باربع سنوات ، فلم تكن الصلة بينهما صلة العم بابن اخيه بل صلة الصديق بالصديق . وقد ترعرعا معا ، وكان ألمهما مشتركا لما مات عبد المطلب . فقد ذاق حمزة مرارة أول يتم ، اما محمد فقد تجرع فى صمت مرارة الألم للمرة الثانية ، فيتمه بعد عبد المطلب كان اقسى من يتمه بعد امنه. وقد جمع اليتم بين قلبيهما . وقد انصرف محمد منذ السن الباكرة الى ما هياه الله له من الرعى والتجارة ، فى حين انصرف حمزة الى تلقى العلم ليكون سيدا من سادات بنى هاشم ، وقد كان جل بنى هاشم يجيدون القراءة والكتابة .

كان محمد يصطفى حمزة ، ويفضى اليه بذات نفسه قبل أن ينزل عليه الوحى ويبعثه الله نبيا للعالمين . ولما عرضت السيدة خديجة بنت خويلد نفسها على محمد ليتزوجها ، كان حمزة أول أهله سعيا فى اتمام هذا الزواج ولما كانت خديجة تفوق نساء قريش نسبا وأعظمهن شرفا وأكثرهن مالا ، كان كل قومها حريصا على الزواج منها لو يقدر عليه . قد سر ذلك حمزة ، وشرع يعين محمدا عليه ، فخرج معه حتى دخل على عمها عمرو بن اسد فخطبها اليه وظل بعد ذلك صديقا له وصفيا لا يكاد محمد يفعل شيئا حتى يحدث فيه حمزة . ومضت الايام فى طريق الزمن ونزل الوحى على الرسول صلى الله عليه وسلم فى غار حراء ، يامره بالدعوة فى الاسلام . وقام محمد رسول الهدى باداء الرسالة ، يدعو الناس الى نبذ عبادة الاوثان ، والايمان بالله الواحد القهار ، يلق الا شرا ونكرا من الذين ران على قلوبهم وغشيت أبصارهم عن الحق . ولكنه مضى فى الدعوة الى الدين الجديد لم يهن ولم يضعف . وبينما كان الرسول الأعظم يعمل جاهدا على نشر الدعوة ، ويتعرض للاذى ، كان حمزة سادرا فى لهوه البرىء من الصيد .

كان محمد صلى الله عليه وسلم يتخذ لنفسه بين الحين والحين مجلسا عند الصفا يدعو الناس فيه الى دين الحق ، ويجادلهم بالتى هى أحسن، فاذا لم يجتمع اليه احد انفرد بنفسه يتأمل فى خلق السموات والأرض ، ويفكر فى شأنه . وبينما هو جالس ذات يوم مر به أبو جهل ، فراح يسب من سفه أحلامهم وعاب دينهم ، ثم صب التراب على رأسه وجارية من دار عبد الله بن جدعان تسمع وتنظر .

وانصرف ابو جهل الى نادى قريش وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم دون أن ينبس بكلمة .

وظلت مولاة عبد الله بن جدعان تسرح الطرف فيما حولها ، حتى اذا ما رات حمزة بن عبد المطلب مقبلا متوشحا بسيفه راجعا من قنصه متجها الى الحرم ليطوف بالبيت قبل أن يعود الى اهله ، تأهبت لتقص على حمزة ما كان بين أبى جهل ومحمد بن عبد الله .

ومر عليها حمزة فقالت له :

ـ يا أبا عمارة لو رأيت ما لقى ابن اخيك محمـد من أبى الحكم بن هشام ! وجده ها هنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد .

فسار حمزة نحو الحرم وهو حانق . وما كاد يقطع فى الطريق خطوات حتى لحقت به مولاة أخته صفية بنت عبد المطلب وقالت له :

ـ ان أبا الحكم بن هشام صب التراب على رأس محمد وألقى عليه فرثا !!

فاحتمل حمزة الغضب ودخل المسجد فراى أبا جهل جالسا فى القوم، فاقبل نحوه حتى قام على راسه ورفع القوس وضربه فشجه شجة منكرة، ثم قال :

ـ أتشتمه ؟ فانا على دينه أقول ما يقول ، فرد على ذلك ان استطعت. فقال ابو جهل :

ـ سفه عقولنا وسب آلهتنا وخالف آباءنا .

فالتفت حمزة الى القوم وقال فى حدة :

ـ ومن أسفه منكم ؟ تعبدون الحجارة من دون الله . أشهد أن لا اله الا الله واشهد أن محمدا رسول الله .

فقامت رجال من بنى مخزوم الى حمزة لينصروا أبا جهل فقالوا :

ـ ما نراك الا قد صبأت !

ـ وما يمنعنى وقد استبان لى منه .. أنا أشهد انه رسول الله وان الذى يقول حق ، والله لا أنزع فامنعونى ان كنتم صادقين .

فقال لهم ابو جهل :

ـ دعوا أبا عمارة ، فانى والله قد أسمعت ابن اخيه شيئا قبيحا .

ورجع حمزة الى بيته وراح يفكر فيما كان بينه وبين ابى جهل ، انه ثار لابن أخيه وأعلن اسلامه فى نوبة من نوبات غضبه ، فراح الشيطان يوسوس له :

ـ « أنت سيد قريش ، اتبعت هذا الصابىء وتركت دين آبائك . الموت خير لك مما صنعت » . واستشعر الرجل الشجاع الذى لا يخشى الردى خوفا يلفه وحيرة تكتنفه ، وحاول أن ينام ولكن لم تطف الكرى بعينيه ، انه فى قلقه وأرقه ، وفى جوف الليل ، راح يبتهل الى الله فى حرارة :

ـ اللهم ان كان راشدا فاجعل تصديقه فى قلبى ، والا فاجعل لى مما وقعت فيه مخرجا .

وراح حمزة يغدو ويروح فى الغرفة يحاول أن يستفتى قلبه مرة ، ويصيخ سمعه الى همزات الشيطان مرة . ويبتهل الى الله مرات أن يدركه برحمته ويلقى فى عين بصيرته نورا يرى به الصراط المستقيم . انه اقر على الملأ بوحدانية الله ورسالة ابن اخيه . وقد كان اعلانا حركته عصبية لأبى القاسم اخيه فى الرضاعة ، وابن اخيه ورفيق الصبا والشباب وحبيب الفؤاد ، الا أنه لما خلا بنفسه قامت هواجسه تهاجمه فى قسوة . وعنف، وراح ينقب عن جوهر الحقيقة ، فما كان يحب أن يخدع نفسه ، أو أن يكون منافقا فى عين ذاته ، انه يبغى الحق ولا شىء غير الحق .

وبات حمزة بليلة لم يبت بمثلها ، راح فيها يستعرض حياة ابن أخيه فلم يجد فيها مثلبا ، فهو الأمين الذى لم يجرب عليه الكذب قط ، انه لم يكذب على الناس أو يكذب على ربه ؟

انه يحسن الحسن ويقويه ويقبح القبيح ويوهيه ، له نور يعلوه كأن الشمس تجرى فى وجهه ، قد أوتى الحكمة . قد خرج من سلطان نفسه فلا يغضب لها بل يغضب للحق . انها صفات لا تجتمع الا فى انسان يعد لرسالة عظمى ، وان ابن عبد الله كفء لحمل اعظم رسالة .

ولما أسفر الصباح غدا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

ـ يا بن أخى انى قد وقعت فى أمر لا أعرف المخرج منه ، واقامة مثلى على ما لا أدرى أرشد هو أو غى شديد

وقص على ابن اخيه قصته ، فراح محمد صلى الله عليه وسلم يذكره ويعظه ويخوفه ويبشره ويتلو عليه القرآن . وحمزة مأخوذ بما يسمع يستشعر كأن اسجافا ترتفع عن قلبه وأن نورا يشرق فى عين ذاته وأن حديث رسول الهدى يرتفع به عن عالمه المحدود الى عوالم من الرفعة والسمو والنور .

والقى الله فى قلبه الايمان فقال فى فرح :

ـ أشهد أنك لصادق ، فاظهر يا بن أخى دينك .

وسر رسول الله صلى الله عليه وسلم باسلام فارس قريش سرورا عظيما ، فقد أعز الله الاسلام بأشد قريش شكيمة ، وأحس أن آلام الاضطهاد الذى تحمله سنوات طويلة قد اثمرت خير ثمرة . فبات يرحب بكل عذاب وشدة وهو على ثقة من أن الله سيتم نوره ولو كره الكافرون .

وانزل الله تعالى فيما كان من حمزة رضى الله عنه وأبى جهل :

« أو من كان ميتا فاحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ؟ كذلك نبين للكافرين ما كانوا يعملون . وكذلك جعلنا فى كل قرية اكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون الا بأنفسهم وما يشعرون . واذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسول الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون . فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء . كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون . وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون » .

ـ ٣ ـ

كان اسلام حمزة بداية عهد جديد فى تاريخ الدعوة الاسلامية ، فقد بدأت قلوب بنى عبد المطلب ترنو الى محمد وتطالع بقية قريش العداوة . ولم يشذ عن اجماعها فى تأييد محمد ونصرته الا ابو لهب بن عبد العزى ، وكان خامل التفكير ، ضيق الصدر وكان يقول : يعدنى محمد أشياء لا اراها . يزعم انها كائنة بعد الموت . فماذا وضع فى يدى بعد ذلك ؟ ثم ينفخ فى يديه ويقول : تبا لكما ما ارى فيكما شيئا مما يقول محمد ! وكان يجد نفسه سعيدا اذ تؤكد له امراة مثل هند بنت عتبة انه نصر اللات والعزى بهذا الجهل المطبق .

وبدأ الخوف يسرى فى قلب قريش لهذا الموقف الذى يقفه بنو عبد المطلب منها بعد اسلام حمزة ، واخذت سادات قريش يتمثلون الخطر الزاحف من جراء هذا الانفصال ، ولم يعد فى امكانهم أن يستصغروا أمر محمد أو يعدوا عليه بالسخرية والمهانة كما كانوا يفعلون ، لأنهم أصبحوا يخشون غضب حمزة وامثاله من الرجال الصناديد الذين حفلت بهم الدعوة الاسلامية .

وأوفدوا له عتبة بن ربيعة ، فقال للرسول صلى الله عليه وسلم :

ـ يا ابن أخى ، انك منا حيث قد علمت من الشرف فى العشيرة ، والمكان فى النسب ، وانك قد اتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ، ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم . فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر منها لعلك تقبل منها بعضها .

فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم :

ـ قل يا أبا الوليد اسمع .

قال :

ـ يا ابن أخى ان كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك ، وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا . وان كان هذا الذى يأتيك رئيا (١) تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فانه ربما غلب التابع (٢) على الرجل حتى يداوى منه .

---

(١) الرئى : ما يتراءى للانسان من الجن .

(٢) التابع : من يتبع من الجن

حتى اذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه قال :

ـ اقد فرغت يا أبا الوليد ؟

قال : نعم .

قال : فاسمع منى

قال : افعل

فقال الرسول :

ـ « بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون وقالوا قلوبنا فى اكنة مما تدعونا اليه (١) .. ثم مضى الرسول الكريم فيها يقرؤها عليه . فلما سمعها منه عتبة انصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليها يسمع منه ، ثم انتهى الرسول الكريم الى السجدة منها فسجد . ثم قال :

ـ قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك .

فقام عتبة الى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض :

ـ نحلف بالله لقد جاءكم ابو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به .

فلما جلس اليهم قالوا :

ـ ما وراءك يا أبا الوليد !

قال :

ـ ورائى انى قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة . يا معشر قريش ، اطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم ، فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وان يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا :

ـ سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه .

---

(١) سورة فصلت .

قال :

ــ هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدا لكم .

***

أخذ الاسلام ينتشر بمكة فى قبائل قريش من الرجال والنساء . كانت فاطمة بنت الخطاب وزوجة سعيد بن زيد قد أسلمت ، وأسلم بعدها سعيد بن زيد وهما مستخفيان باسلامهما عن عمر بن الخطاب . وعرف عمر ان اخته وزوجها قد اسلما فذهب الى بيتهما ، وحين اقترب من البيت سمع خباب بن الارت يقرأ القرآن ، فلما دخل عمر قال :

ــ ماذا اسمع ؟

قالا له : ما سمعت شيئا .

قال : بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه .

وبطش بزوج اخته سعيد بن زيد ، فقامت اليه اخته فاطمة لتكفه عن زوجها فضربها فشجها . فلما فعل ذلك قالت له أخته وزوجها :

ــ نعم ، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما تريد .

فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى ، وقال لاخته :

ــ اعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرءون آنفا ، انظر ما هذا الذى جاء به محمد ، فلما قرأ عمر صدرا من سورة طه ، قال :

ــ ما أحسن هذا الكلام واكرمه .

فلما سمع ذلك خباب خرج اليه ، فقال له :

ــ يا عمر ، والله انى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فانى سمعته أمس وهو يقول : « اللهم أيد الاسلام بأبى الحكم بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب » فالله الله يا عمر .

فقال له عمر :

ــ دلنى يا خباب على محمد حتى آتيه فاسلم ،

فقال له خباب : هو فى بيت عند الصفا ، معه نفر من اصحابه .

فاخذ عمر سيفه فتوشحه ، ثم عمد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته ، قام رجل من أصحاب الرسول فنظر من ثقب الباب فرآه متوشحا سيفه ، فرجع الى الرسول وهو فزع خائف ، فقال :

ـ يا رسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشحا بالسيف .

فقال حمزة بن عبد المطلب :

ـ فاذن له ، فان كان يريد خيرا بذلناه له ، وان كان يريد شرا قتلناه بسيفه .

فقال الرسول :

ـ ائذن له .

فأذن له الرجل ، ونهض الرسول حتى لقيه فى الحجرة ، فاخذ يجمع ثوبه ثم جذبه جذبة شديدة ، وقال :

ـ ما جاء بك يا ابن الخطاب فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة .

فقال له عمر :

ـ يا رسول الله ، جئتك لأومن بالله وبرسوله ، وبما جاء من عند الله .

فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرف أهل البيت من اصحاب الرسول ان عمر قد اسلم ، فتفرق اصحاب الرسول من مكانهم .

وقد عزوا فى انفسهم حين أسلم عمر مع اسلام حمزة وعرفوا انهما سيمنعان الرسول ، وينتصفون بهما من عدوهم .

ولكن بنو عبد الدار لم يكن يرضيهم هذا ، اذ كانوا سادة ـ قريش ، يحسدون بنى عبد المطلب على ما عسى أن يكون لهم من المكانة الرفيعة بهذا الرجل الذى نبغ فيهم وكانوا اذكياء لا يكاد يفوتهم صدق ما يدعو اليه محمد وخطره ، فأخذوا يجمعون صفوفهم ، ويثيرون من استطاعوا من بطون قريش ، ومضوا يجادلون محمدا يريدون أن يصرفوا الناس عنه بالمنطق كما كسبهم الى دعوته بالمنطق فلم يفلحوا ، وزاد الاسلام انتشارا ، ثم كان اسلام عمر بن الخطاب وما اعقبه من اشتداد اذى قريش للمسلمين، فكان حمزة وعمر درعى الرسول يردان عنه الباغى .

مضى على الاسلام أربعة عشر عاما والرسول الأعظم فى مكة بين أعداء

الحق ، ومعه على بن ابى طالب وابو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وحمزة بين عبد المطلب . واما باقى الصحابة فقد تركوا دياهم وعشيرتهم وهاجروا الى الحبشة أو المدينة حيث الأمن والهدوء . وكان الموقف حرجا ، فأعداء الحياة الجديدة الطاهرة التى يدعو اليها محمد يتآمرون على الرسول ، وطلب أبو بكر من الرسول الخروج الى المدينة فأجابه الرسول بأن الله لم يأمر بذلك بعد . واجتمع المتآمرون فى دار الندوة للتشاور فيما يصنعونه بمحمد رسول الهدى ، فاقترح بعضهم أن يحبس فى الحديد ، وان يغلقوا عليه بابا ثم يتربصون به ما أصاب الشعراء الذين كانوا قبله ، ولكن هذا الراى لم يلق سمعا ، فقال آخر : نخرجه من بين اظهرنا وننفيه من بلادنا ، ثم لا نبالى بعد ذلك من امره شيئا ، ولكنهم خافوا ان يلحق بالمدينة، فيحرض اهلها عليهم ، بما له من قوة الاقناع ، فيقصدوهم ويبطشوا بهم . واقترح أبو جهل ان يأخذوا من كل قبيلة فتى شابا جليدا ، وان يعطوا كل فتى سيفا بتارا ، فيضربوه جميعا ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه بين القبائل ولا يقدر بنو عبد مناف على قتالهم جميعا ، فيرضون بالدية ، وتستريح قريش من هذا الذى بدد شملها ، وفرق قبائلها شيعا ، فاستقر رأيهم على هذا الاقتراح بالاجماع .

وبينما كانت قريش تأتمر بالرسول الأعظم ، نزل عليه الوحى ، واخبره بما يدبر له وامره ألا ينام فى فراشه تلك الليلة . فارسل الى على بن ابى طالب كرم الله وجهه وأسر اليه أن ينام فى فراشه . وامره أن يتخلف بعده بمكة ، حتى يؤدى عنه الودائع التى كانت عنده للناس ثم يلحق به .

وفى المدينة المنورة آخى محمد رسول الهدى بين حمزة بن عبد المطلب وبين مولاه زيد ، فكان حمزة فخورا بأخيه هذا ، وكان هذا آية من آيات الاسلام ، الذى يقرر أن الناس سواسية كأسنان المشط . ولو قد تطلع مولى الى اخوة حمزة فى الجاهلية لعد حمزة ذلك مهانة لا يكاد يمحوها دم ، ولكن الاسلام نور . والنور اذا ملأ القلوب أزال نوازع الجهل والعصبية جميعا .

استقر أمر الرسول فى المدينة ، وآتاه الله من عون أهلها ونصر من هاجر اليها من اهل مكة ما مكنه من السير بحكومتها وأهلها فى الطريق السوى ، حتى اذا استقر امر الاسلام ، واطمأن الرسول على المؤمنين ، وجد الفرصة سانحة ليبدأ مع قريش ذلك الصراع العنيف الذى انتهى بنصر الاسـلام وانتشاره فى الجزيرة العربية كلها .

وهنا اتيحت الفرصة لحمزة بن عبد المطلب للعمل . وكان حمزة فارسا شجاعا لا يرهب القتال ، ومحاربا قويا . وكان قد لبث ينتظر الفرصـة المواتية طوال فترة الدعوة السلمية الماضية ، فلما آن الأوان للاسلام لينتقل الى دور جديد ، دور الكفاح الايجابى حان الوقت ليفيد من حمزة .

وكان الرسول الأعظم يعرف من هم رجاله ، وما هى الملكات التى يتمتعون بها ، ولذلك عهد الى حمزة قيادة أول سرية اسلامية ، فكان حمزة بهذا أول قائد مسلم ، وأول سلسلة طويلة من القادة العظام الذين حملوا لواء الاسلام جيلا بعد جيل ، ومضوا بالعقيدة الكريمة موفقة منصورة فى مشارق الأرض ومغاربها .

عقد الرسول أول راية فى الاسلام لفارس قريش حمزة بن عبد المطلب، وامره على ثلاثين رجلا من المهاجرين ليعترضوا عيرا لقريش عائدة من الشام. وكان الرسول يهدف من هذه « الداورية » المسلحة التى عرفت باسم « السرية » مجرد الاستطلاع واشعار قريش بقوة المسلمين وتأهبهم لنضال خصومهم . وكان الرسول يتوقع ان يدفعهم حرصهم على أموالهم الى أن يفهموا أن مصلحتهم تقتضيهم التفاهم مع أهلهم الذين هاجروا الى المدينة تفاهما يقى الطرفين شر العداوة والبغضاء ويكفل للمسلمين حرية الدعوة الى الاسلام والحج الى البيت العتيق ويضمن لأهل مكة فى نفس الوقت سلامة تجارتهم وأموالهم فى طريقها الى الشام .

بعث الرسول حمزة فى هذه السرية ليلقى راس المعاندين أبا جهل بن هشام عند العيص من شاطىء البحر لعل أبا جهل يرتدع عن غيه ، ويكف عن هذا السفه الذى كان لا يزال يلقى به المسلمين قبل الهجرة ، وهـذه القسوة التى يعامل بها من بقى منهم فى مكة بعد هجرة الرسول الى المدينة

ومما لا شك فيه أن الرسول لم يكلف حمزة القتال ، ولو أمره به لقاتل فلم يكن حمزة بالذى يخشى ثلاثمائة قرشى أيا كان العدد الذى معه قليلا ، اكتفى بارهاب ابى جهل وقريش معه . وقبل وسـاطة مجدى بن عمر الجهنى وعاد الى المدينة .

لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم داعية حرب ، بل كان داعية سلام .

كانت دعوة الرسول سلمية رفيقة لانها حق ، وللحق مع هدوئه صولة تبدو مشرقة رحيمة ولكنها لقيت خصومة باطلة عنيدة .

وبدأ الصراع بين الحق والباطل .. بين الهدى والضلالة .

ومضت قريش فى اضطهادها للمسلمين ، فوقفت عقبة فى سبيل نشر الدين ، ومنع المسلمين من الدخول الى مكة لاداء فرائض حجهم ، لذلك فكر الرسول فى القيام بعمل ايجابى ضد مصالح قريش حتى تشعر بقوة المسلمين وقدرتهم على أن يحيقوا بها الضرر لعل هذا العمل يكشف العصائب عن عيون قريش ، فترجع عن غيها ، ويدفعها الى محاولة التفـــاهم مع المسلمين . وكانت بداية الصراع خروج الرســول الأعظم لاعتراض قافلة كبيرة على رأسها أبو سفيان وهى فى طريقها الى الشام ، ولكن الرسول لم يتمكن من ادراكها فأعد العدة للاقاتها فى أثناء عودتها . وحتى لا تفلت القافلة عند عودتها ارسل الرســول طلحة بن عبيــد الله وســعيد بن زايد لاستطلاع أمرها ، فنزلا عند قبيلة جهينة بالحوراء وما كادت القافلة تمر بها حتى أسرعا الى الرسول الكريم ليفضيا اليه بخبر القافلة .

وكان خبر خروج الرسول لاعتراض القافلة فى رحلتها الى الشام قد انتشر بين الناس ، ووصل هذا الخبر الى أبى سفيان بن حرب وهو يقترب بقافلته فى طريق الحجاز ، وحذره بعض الأعراب من احتمال المفاجأة عند بدر ، ولذلك عزم على طلب النجدة من أهل مكة . فبعث ضمضم بن عمرو الغفارى الى مكة ليستنفر قريشا ويخبرها بالخطر الذى يهدد قافلتها .

وقد أبلغ ضمضم هذا الخبر الى قريش بطريقة مثيرة الهبت مشــاعر النـــاس ، اذ قطع أذنى بعيره ، وجدع أنفه ، ودخل الى مكة وقد شق قميصه واخذ يصيح :

— يا معشر قريش . اللطيمة ! اللطيمة ! أموالكم مع أبى سفيان قــد عرض لها محمد فى أصحابه لا أدرى أن تدركوها أولا . الغوث . الغوث .

وانتهز أبو جهل هذه الفرصة لاستنفار قريش لقتال المسلمين ، فمضى يخطب الناس عند الكعبة ويصيح فى جموعهم كى يخرجوا لانقاذ قافلتهم

وتقدم المسلمون من موقعهم بوادى زفران فى طريقهم الى بدر ، وكانت

الأنباء قد وصلتهم باقتراب قافلة أبى سفيان ، فلما وصلوا بدرا ، كانت القافلة قد فاتتهم ولم يعد هناك مناص من قتال جيش قريش . وارسل أبو سفيان الى قائد جيش قريش يقول له :

ــ « انكم قد خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم واموالكم فقد نجاها الله فأرجعوا » .

ولقى هذا الرأى استجابة لدى كثير من رجال قريش ، ولكن ابا جهل ما كاد يسمع هذا القول حتى ثار ، ومار فى قلبه الحقد الأسود الذى يكنه للرسول فصاح :

ــ والله لا نرجع حتى نرد بدرا فنقيم عليه ثلاثا ننحر الجذور ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا ابدا بعدها .

وثار الخلاف بين رجال الجيش ، فريق يحبذ الرجوع الى مكة بعد نجاة القافلة ، وفريق آخر يرى أنه لابد من القتال . وانتهى الخلاف بعودة بنى زهرة فقط الى مكة وتحرك جيش قريش الى بدر . . .

وعلى اثر قدوم المسلمين الى بدر تقدم الرسول صوب الماء ، حتى اذا جاء ادنى مكان منه نزل فقال الحباب بن المنذر :

ــ يا رسول الله اهذا منزل انزلكه الله ليس لنا ان نتقدمه او نتاخره ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

فأجاب الرسول :

ــ بل هو الرأى والحرب والمكيدة .

فقال الحباب :

ــ يا رسول الله ، ان هذا ليس لك بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزل ثم نغور ما وراءه من القلب ثم نبنى حوضا ونملاه ماء فنشرب ولا يشربون ثم نقاتلهم .

ونفذ الرسول فكرة الحباب حين اتضح له صواب رايه .

خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومى من صفوف المشركين ، وقال يسخر من المسلمين :

ــ أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأموتن دونه .

وكان الحوض من وراء المسلمين ، يحسب ان احدا منهم لن يجرؤ على الوقوف فى طريقه ، وانه يخترق صفوفهم آمنا او كالآمن . فما هو الا أن برز من الصفوف حتى تقدم اله فارس الاسلام حمزة بن عبـــد المطلب وضربه بالسيف ضربة قطعت ساقه ، فوقع على الأرض تقطر ساقه دما ، وبلغ به العتو ان اراد الزحف برغم ذلك حتى يصل الى الحوض ليهدمه ، فلم يمهله حمزة رضى الله عنه واجهز عليه . كل ذلك ورجال قريش ينظرون فى ذهول الى هذا الرجل الشجاع حمزة ، الذى يقف كالأسد ، يدافع عن عقيدته فى بطولة فذة . وبدا رجال قريش يفهمون ان الأمر جد لا هــزل فيه . وان معركة رهيبة على وشك ان تقوم ، وليست المسألة نزهة جميلة يشرب فيها الخمر وتعزف القيان .

وخرج عتبة بن ربيعة سيد قريش واخوه شيبة وابنه الوليد ، يتحدون المسلمين ليبرزوا لهم من يجرؤ على الخـــروج من رجالهم . فأراد بعض الانصار الخروج لهم ، فرفضـــوا مبارزتهم فى شىء من الصلف ، وابوا ان يبارزوا الا قريشيين . فندب الرسول عبيدة بن الحارث وحمزة بن عبـد المطلب وعلى بن ابى طالب فبرزوا لهم .

ومشى عبيدة وكان اسن الثلاثة الى عتبة ، واتجه حمزة الى شيبة ، وبارز على الوليد ، ومد الجيشان الابصار وقد حبست الانفاس ، فالجولة الأولى كانت بين ابناء العم سادات عبد شمس وصناديد بنى هاشم . وغدت الدعوات ترفرف على شفاه المهاجرين والانصار بعد ان ابتهلت بها الأفئـدة التى عمرت بأنوار اليقين . فلو قتل عبيدة وحمزة وعلى فى أول لقاء لكانت فاجعة الرسول فيهم تعز عن العزاء .

وكان ابو بكر الصديق ينظر خافق القلب وقد لفته رهبة ، بينما كان عمر ابن الخطاب يختلس النظرات الى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يرصد القتال فيستشعر ثقل مرور اللحظات ويتمنى من كل وجـدانه ان ينتصر رجال بنى هاشم ليسعد عليه الصلاة والسلام بنصر المسلمين ونجاة الأحبـاب .

ولم يمهل فارس قريش حمزة ان قتل شيبة فاشرقت وجوه المسلمين بالأمل وبسرت وجوه الكافرين ، وسرعان ما قتل على بن ابى طالب الوليـد واختلف عبيدة وعتبة بينهما بضربتين كلاهما اثبت صـــاحبه ، ووقعت الضربة فى ركبة عبيدة فأصابت رجله وصار مخ سـاقه يسيل ، ثم مال حمزة وعلى على عتبة فقتلاه واحتملا صاحبهما فجراه الى اصحابه فأضجعوه



الى جانب موقعه فأفرشه رسول الله صلى الله عليه وسلم قدمه ، فوضع خده عليها وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ الست شهيدا يا رسول الله ؟

ـ أشهد انك لشهيد .

ودارت معركة رهيبة وتهاوت السيوف ، وهجم المسلمون هجمة المؤمن الصادق لا يكاد شيء يرده عن سبيله . وخرج الرسول الى الناس فحرضهم على القتال فقال :

ـ والذى نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا ، مقبلا غير مدبر الا ادخله الله الجنة .

وكان حمزة بن عبد المطلب قد علم نفسه بريشة نعامة ثبتها فى صدره ، فكان طوال المعركة كالأسد الضارى لا يكاد يثبت فى مكان ، لا يرى واحدا من كبار المشركين الا انقض عليه انقضاض الصاعقة واجهز عليه ، ولا يرى واحدا من اخوانه المسلمين الا خف لنجدته واعانه على عدوه ، حتى روع المشركين بنجدته واوقع الرعب فى قلوبهم .

روى عبد الرحمن بن عوف انه أسر امية بن الخلف وابنه واقتادهما الى صفوف المسلمين ، وانه لسائر بينهما اذ سأله امية :

ـ من الرجل منكم المعلم بريشة نعامة فى صدره ؟
فقال عبد الرحمن :

ـ ذلك حمزة بن عبد المطلب .

فقال امية :

ـ ذلك الذى فعل بنا الافاعيل .

اسفرت معركة بدر عن انتصار رائع للمسلمين ، نصر دخل به الاسلام فى دور التوسع . وانصرف من بقى من المشركين الى مكة وهم يشعرون ان يوم قريش قد دنا وان جماعة فيها اسود من طراز حمزة بن عبد المطلب ، وعلى بن ابى طالب لن تغلب على امرها ابدا .

مضت قريش تستعد ليوم تبلغ فيه ثارها ، وجعل رجالاتها يمشون الى بعض يدبرون لهذا الأمر عدته . وجمعوا اموالا هائلة حتى لم يعد احد منهم رجلا كان او امرأة — الا ساهم فى العدة بنفسه او بماله . وخـرج رجالهم وكماتهم وخلفهم الطغائن يشدون ازرهم ويحرضونهم على القتـال ثأرا لمن لقى مصرعه فى معركة بدر من بعولتهن أو ابنائهن أو اخواتهن . وكانت هند بنت عتبة اشد نساء قريش دعوة لهـذا الثأر ، اذ لقى ابوها واخـواها مصارعهم فى بدر . وكان قلبها يمور بالحقد على حمزة .. بطل بدر والذى فعل بقريش ورجالها الأفاعيل .

وكانت موقعة احد وما حدث فيها من مخالفة رماة المسلمين لمـا قرره الرسول صلى الله عليه وسلم من خطة للمعركة ، كانوا خمسين رجلا يرمون بالنبل يقودهم عبد الله بن جبير وضعهم الرسول فى مخرم من مخارم جبـل احد ليحموا ظهور المسلمين من ان يفاجئهم المشركون من الخلف ، ثم التقى الجمعان وابدى كماة المسلمين من الشجاعة ما يفوق الوصف ، وكان حمزة سيفا من سيوف الله لا يلقى مشركا الا صرعه .

وراحت هند بنت عتبة والنسوة اللائى معها يضربن بالدفـوف خلف الرجال ويقلن :

نحـن بنـات طـارق
نمشى عـلى النمارق
مشى القطا النوازق (١)
والمسك فى المفـارق
والـدر فى المخـانق
ان تقبلوا نعـانق
ونفـرش النمـارق
او تدبروا نفـارق
فـراق غـير وامق

ووقف وحشى مولى جبير بن مطعم خلف شجرة وفى يده حربته يرصد حركات حمزة بن عبد المطلب وصوت ابن مطعم يداعب خياله :

— ان قتلت حمزة عم محمد بعمى فانت عتيق .

(١) الخفاف .

انهـا رمية من حريته تستقر فى قلب حمزة ثم يسترد بعدها حريته . فراح يتبع حمزة بعينيه فى كره وفره ، انه يحصد الناس بسيفه ويمشى اليهم كالأسد قد كشر عن أنيابه ، فينقض على فريسته وان هى الا ضربة واحدة فيتركه كأمس الدابر وهو يقول :

ـ انا اسد الله ، انا ابن عبد المطلب .

وضرب حمزة رجلا ضربة اطاحت برأسه ، فانكمش وحشى وهو فى مكمنه ، فحمزة قتل ثلاثين من قريش وحده ، ولو التفت ناحية الشجرة وخطر له ان يتربص به لانقض عليه انقضاض الصاعقة وقتله قبل ان يستمتع بحريته .

وهز وحشى الحربة فى يده وصوبها الى حمزة ، وقبل ان يطلقها كان حمزة قد التفت الى سباع بن عبد العزى فقال له :

ـ اقبل يا بن مقطعة البظور .

كانت امه ام انمار مولاة شريق والد الأخنس ختانة مكة ، وكان سباع يعادى الله ورسوله وكان من المكذبين ، فشد حمزة عليه ورفع سيفه وهوى به فاذا بسباع فى مثل لمح البصر يسقط على الارض وقد سالت دماؤه يلفظ آخر الأنفاس .

وتقاصرت نفس وحشى فقد كان سباع تمام واحد وثلاثين قتلهم حمزة ، انه يقاتل بين يدى رسول الهدى بسيفين ويقول : انا اسد الله .

وملأ الخوف قلب وحشى وبات يخشى ان تنتهى المعركة بهزيمة قريش دون ان ينال من حمزة فيظل يرسف فى أغلال العبودية ، فجعل يرصده فى غدواته وروحاته بين صفوف المشركين لعل فرصة تسنح له فيقتل فيها حمزة ويسترد حريته .

وكر فرسان قريش على المسلمين فاذا بالنبال تتطاير من الرماة الذين اسندوا ظهورهم الى جبل احد لتستقر فى أعين الخيل او فى رقاب الفرسان وصدورهم ، فانجفل الفرسان مرتدين ليتفرقوا فى الوادى ليصبحوا هدفا لأسياف حمزة وعلى والزبير وابى دجانة وصناديد المسلمين .

وارتفعت الاصوات تجلجل عند احد ، المسلمون يهتفون :

ـ امت ... امت .

وقد استبشروا بنصر الله ، والمشركون يهتفون :

ـ يا للعزى ! يا لهبل ! !

والنسوة من قريش يحمسن الرجال بالدفوف ، واقبل حمزة بن عبد المطلب وقد شهر سيفيه ليقاتل بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول :

ـ انا اسد الله .

فبينا هو كذلك اذ عثر عثرة وقع منها على ظهره فانكشف الدرع عن بطنه ، فلاحت لوحشى الفرصة التى كان يرصدها منذ نشب القتال فى بطن احد ، فهز حربته دفعا عليه فاذا بها تنفذ من تحت سرته لتخرج من بين رجليه .

وندت عن حمزة صرخة مكتومة ونظر فرأى وحشى خلف الشجرة فحمل نفسه حملا لينطلق اليه يريد ان يقتل ذلك العبد الحبشى الذى غدر به ، ولكنه عجز عن مواصلة السير فوقع على الارض وهو يلهث .

ورفع راسه لينظر فاذا بجبل احد يدور فى الفضاء . واذا بالمدينة البعيدة يطبق عليها الظلام ، واذا باصوات المسلمين التى كانت تدوى كالرعد .. امت .. امت .. تخفت ولم يعد يرى بعينيه ولكنه كان يرى ببصيرته اول يوم اعلن فيه اسلامه ، يوم ان ذهب الى ابى جهل وشجه بقوسه وهو فى مجلسه عند الكعبة لما سمع ان ابا جهل قد اساء الى ابن اخيه . وكان يرى صناديد قريش يوم بدر لما كانوا يتهاوون جثثا هامدة تحت ضربات سيفه البتار ، وغاب عن الدنيا بينما كانت اصوات عذبة تنسحب فى اذنيه تبشره بجنات عرضها السموات والارض ، فاذا باساريره تنبسط واذا بروحه تعود الى ربها راضية مرضية .

وجاء وحشى وقد سكن روعه فاخذ حربته ثم انتحى الى المعسكر ولم يكن له فى شىء حاجة غيره .

واسفرت المعركة عن هزيمة المسلمين .

وراح ابو سفيان يضرب فى شدق حمزة بن عبد المطلب بزج الرمح ويقول :

ـ دق عقق .

ومر الحليس سيد الأحابيش بأبى سفيان وهو يضرب فى شدق حمزة فاستنكر ما يفعل فقال :

ــ يابنى كنانة . هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون لحما .
فقــال ابو ســفيان :

ــ ويحك ، اكتمها عنى فانها كانت زلة .

وجاء وحشى الى هند بنت عتبة فقال لها :

ــ ماذا لى ان قتلت قاتل ابيك ؟

ــ ســلنى .

فأخبرها انه قتل حمزة فتهللت اساريرها واعطته ثيابها وحليها ، وكان فى ساقيها خدمتان (خلخالان) من جزع ظفار (بلد باليمن) واســـــاور وخواتم فى اصابع رجليها ثم قالت :

ــ اذا جئت مكة فلك عشرة دنانير .

ووقفت ترنو الى وحشى فى نشوة وفرح ثم قالت :

ــ ارنى مصرعه .

فراحا يجوسان خلال الجثث التى ملأت ارض المعركة حتى اذا ما رأت حمزة قتيلا انقضت عليه وبقرت عن كبده فلاكتها فلم تستطع ان تسـيغها فلفظتها . وجاء نسوة قريش يمثلن بالقتلى من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويجدعن الآذان والأنف حتى اتخذت هنــد من آذان الرجال وآنفهم خدما (خلخالا) وقلائد ، ثم علت على صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صـــــوتها :

نحن جــزينــاكم بيــوم بدر
والحرب بعد الحرب ذات سعر

ما كان عن عتبة لى من صبر
ولا اخى وعمـــه وبكرى

شفيت نفسى وقضيت نذرى
فشــكر وحشى على عمــرى

خــزيت فى بدر وبعـــد بدر
شفيت وحشى غليل صــدرى

حتى ترم اعظمى فى قبــرى
فاجابتها هند بنت اثاثة بن عباد بن عبد المطلب فقالت :

يا بنت وقاع عظيم الكفر

اقحمك الله غداة الفجر

بالهاشميين الطوال الزهر

بكل قطاع حسام يفرى

حمزة ليثى وعلى صقرى

اذا رام شيب وابوك غدرى

مخضنا منه ضواحي النحر

ونذرك السوء فشر نذر

ولم يكن المسلمون يعلمون بمقتل حمزة بن عبد المطلب ، فارادت هند ان تعلنهم بالنبأ لتشفى غليل صدرها وصرخت بأعلى صوتها :

شفيت من حمزة نفسى بأحد

حتى بقرت بطنه عن الكبد

أذهب ذاك عنى ما كنت اجد

من لذعة الحزن الشديد المعتمد

والحرب تعلوكم بشؤبوب(1) برد

تقدم اقداما عليكم كالأسد

وراح رسول الهدى يسأل :

— ما فعل عمى ؟ ما فعل عمى ؟

فخرج الحارث بن الصمة فابطأ ، فخرج على بن ابى طالب يطلبه فيقول:

يا رب أن الحارس بن الصمة

كان رفيقا وبنا ذا ذمة

قد ضل فى مهامه مهمة

يلتمس الجنة فيها ثمة

حتى انتهى الى الحارث ووجد حمزة مقتولا فاعتصر الحزن قلبه وطفرت الدموع الى عينيه ، واجهش بالبكاء ، وعاد على وهو باسر الوجه يحمل نفسه حملا ، حتى اذا اقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم عرف الفاجعة فى وجهه فانقبض قلب رسول الرحمة ، واقبل الرسول حتى وقف على حمزة فوجده قد بقر بطنه ومثل به فجدع انفه وقطعت مذاكيره ، فنظر

(1) الشؤوب دفعه المطر الشديدة .

صلى الله عليه وسلم الى شيء لم ينظر الى شيء قط كان اوجع لقلبه منه وقال :

لن اصاب بمثلك ابدا . ما وقفت موقفا اغيظ لى من هذا . رحمة الله عليك فانك كنت ما علمتك فعولا للخيرات وصولا للرحم . اما والله لئن اظفرنى الله تعالى بقريش فى موطن من المواطن لأمثلن بسبعين منهم مكانك .

ووضعه فى القبلة ثم وقف على جنازته وانتحب حتى شهق وبلغ به الغشى وراح يقول :

ــ يا عم رسول الله واسد الله واسد رسول الله . يا حمزة يا فاعل الخيرات . يا حمزة يا كاشف الكربات . يا حمزة يا ذات عن وجه رسول الله .

ولما راى المسلمون جزع رسول الله على عمه قالوا :

ــ لئن اظفرنا الله بهم يوما من الدهر لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها احد من العرب .

علم الله تعالى مدى ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الألم والحزن ، وهذا هو الذى دفعه الى الرغبة فى المثلة بقريش . وسايره اصحابه فى ذلك فأوحى جل شأنه الى رسولهعليه السلام قوله :

ــ ((وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين)) .

نعفا رسول الرحمة ، وصبر ونهى عن المثلة .

وطلعت صفية بنت عبد المطلب . فقال عليه السلام :

ــ يا زبير اغنى عنى امك .

فذهب الزبير الى أمه وهو حزين وقال لها :

ــ يا امه ، ان فى الناس تكشفا فارجعى .

ــ ما انا بفاعلة حتى أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وحال الأنصار بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

ــ دعوها .

فانطلقت اليه عليه السلام وقالت :

ــ أين ابن امى حمزة ؟

فقال وهو حزين :

ـ هو فى الناس .

ـ لا ارجـع حتى انظر اليه .

ورات صفية اخاها حمزة وقد مثل به فاحست بسكاكين تمزق احشاءها وجلست عند رسول الله فجعل اذا بكت يبكى ، واذا نشجت ينشج ، وجعلت فاطمة الزهراء تبكى فلما بكت بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال :

ـ لن اصاب بمثل حمزة ابدا . وقال : جاء جبريل فأخبرنى ان حمزة ابن عبد المطلب مكتوب فى اهل السموات السبع « حمزة بن عبد المطلب اسد الله واسد رسوله » .

وكفن حمزة رضى الله عنه ببردة كانوا اذا مدوها على راسه انكشفت رجلاه وان مدوها على رجليه انكشفت راسه ، فمدوها على راسه وجعلوا على رجليه الاذخر .

ثم صلى عليه الرسول ، فكبر سبع تكبـيرات ، وكان يؤتى بالقتلى فيوضعون الى حمزة فيصلى عليهم وعليه معهم ، ثم يرفعون ويترك حمزة ثم يجاء بغيرهم فيكبر عليهم سـبعا ـ حتى صلى عليه رسول الله يومئـذ سبعين صلاة . ثم امر الرسول صلى الله عليه وسلم بدفنه مع ابن اختـه عبد الله بن جحش .

وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بيته بالمدينه فمر بدار من دور الانصار من بنى عبد الاشهل وظفر فسمع البكاء والنواح على قتـلاهم . فذرفت عينا الرسول فبكى وقال :

ـ لكن حمزة لا بواكى له . واستغفر الله .

فسمع ذلك سعد بن معاذ فمشى الى دار بنى الاشهل واتى بنسـائهم فوقف معهن جميعا على باب رسول الله وقال :

ـ والله لا تبكين قتلى الانصار حتى تبكين عم النبى صلوات الله عليه فانه عليه السلام ذكر انه لا بواكى له .

فوقفن يبكين ، فقال لهن الرسول :

ـ ارجعن رحمكن الله ، لقد واسيتن معى ، رحم الله الانصـار فان المواساة فيهم كما علمت قديمة .

ونهى نساء الانصار عن النوح وقال له الانصار :

ـ يا رسول الله بلغنا انك نهيت عن النوح ، وانما هو شيء نندب به موتانا ونجد فيه بعض الراحة فأذن لنا فيه .

فقال الرسول :

ـ ان فعلن فلا يخمشن ولا يلطمن ولا يحلقن شعرا ولا يشققن جيبا

قالت صفية بنت عبد المطلب تبكى أخاها حمزة رضى الله عنه :

أسائلة اصحاب « أحد » مخافة ... بنات ابى من أعجم وخبير

فقال الخبير أن « حمزة » قد ثوى ... وزير رسول الله خير وزير

دعاه اله الحق ذو العرش دعوة ... الى جنة يحيابها وسرور

فذلك ما كنا نرجى ونرتجى ... « لحمزة » يوم الحشر خير مصير

فو الله لا انساك ما هبت الصبا ... بكاء وحزنا محضرى ومسيرى

على « أسد الله » الذى كان مدرها ... يذود عن الاسلام كل كفور (١)

فياليت شلوى عند ذاك واعظمى ... لدى اضبع تعتادنى ونسور (٢)

اقول وقد أعلى النعى عشيرتى ... جزى الله خيرا من أخ ونصير

وقال حسان بن ثابت يبكى حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه :

أتعرف الدار عفا رسمها ... بعدك صوب المسيل الهاطل (٣)

بين السراديح فأدمانة ... فمدفع الدوحاء فى حائل (٤)

---

(١) المدره : الذى يدفع عن القوم .

(٢) الشلو : البقية ـ تعتادنى : يتعاهدنى .

(٣) عفا : غير ودرس ، ورسمها : اثرها . والصوب : المطر .

(٤) السراديح : جمع سرداح ، وهو الوادى . وادمانة : مكان بعينه . والمدفع : حيث يندفع السيل ، والروحاء : اسم موضع ، وحائل جبل .

سألتها عن ذاك فاستعجمت
لم تدر ما مرجوعة السائل

دع عنك دارا قد عفا رسمها
وابك على حمزة ذى النائل (١)

المالىء الشيزى اذا اعصفت
غبراء فى ذى الشبم الماحل (٢)

والتارك القرن لدى لبدة
يعثر فى ذى الخرص الذابل (٣)

واللابس الخيل اذا احجمت
كالليث فى غابته الباسل

ابيض فى الزروة من هاشم
لم يمر دون الحق بالباطل

مال شهيدا بين اسيافكم
شلت يدا وحشى عن قاتل

صلى عليه الله فى جنة
عالية مكرمة الداخل

كنا نرى حمزة حرزا لنا
فى كل امر نابنا نازل

وكان فى الاسلام ذا تدرأ
يكفيك فقد القاعد الخاذل (٤)

لا تفرحى يا هند واستجلبى
دمعا واذرى عبرة الشاكل (٥)

---

(١) النائل : العطاء .

(٢) الشيزى : الجفان التى تصنع من خشب الشيز . واعصفت : اشتدت . والغبراء : التى تثير الغبار وتهيجه . والشبم : الماء البارد . والماحل ـ من المحل ، وهو القحط

(٣) القرن : الذى يقاومك فى القتال . واللبدة : الغبار الملبد . وذو الخرص : الرمح، والخرص سنانه . والذابل : الرقيق الشديد .

(٤) ذا تدرأ : يريد أنه كان كثير الدفاع عنا

(٥) أذرى : أسكبى واسترخصى . العبرة : الدمعة . الشاكل : المرأة التى فقدت ولدها

وابكى على عقبـــة اذ قطـــه
بالســيف تحت الرهج الجائل (١)

اذ خــر فى مشــيخة منـــكم
من كل عات قلبـــه جاهـــل

ارداهم حمـــــــزة فى اسرة
يمشون تحت الحاق الفاضــل (٢)

غـــداة جبـــريل وزير له
نعم وزير الفـــارس الحـامل

* * *

وقال كعب بن مالك يبكى حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه :

ولقــد هددت لفقد حمزة هدة
ظلت بنات الجوف منها ترعــد (٣)

ولو انه فجعت حــراء بمثله
لرايت راسى صــخرها يتبـــدد

قرم تمــكن فى ذؤابة هاشــم
حيث النبوة والندى والســؤدة (٤)

والعاقر الكوم الجلاد اذا غــدت
ريح يــكاد المـاء فيها يجمــد (٥)

التــارك القــرن الكمى مجــدلا
يوم الكريمة والقنا يتقصـــــد (٦)

---

(١) عتبة : هو أبو هند امرأة أبى سفيان بن حرب . وكان حمزة قد قتله فى يوم بدر . وقطه : قطعه نصفين . والرهج : الغبار . والجائل : المتحرك الثائر مما أثارته سنابك الخيل وأقدام المتحاربين .

(٢) ارداهم : أهلكهم . أسرة ، قرابة . الحلق : الدروع . الفاضل : الذى يفضل عن لابسه ويزيد عنه وينجر على الارض .

(٣) بنات الجوف : يعنى قلبه وما اتصل به مما يشتمل عليه الجوف .

(٤) القرم : السيد الشريف . وذؤابة هاشم : أعاليها ، وأراد اسمى أنسابها وأرفعها .

(٥) الكوم : جمع كوماء ، وهى من الابل العظيمة السنام . والجلاد : القوية .

(٦) الكمى : الشجاع ، مجدلا : مطروحا على الجدالة وهى الارض . ويتقصد : ينكسر

وتراه يرفـل فى الحـــديد كأنه
ذو لبدة شنن البرائن اربد (١)

عم النبى محمـــد وصـــفيه
ورد الحمـــام فطاب ذاك المورد

وأتى المنيـــة معلمـا فى اسرة
نصروا النبى ومنهم المستشـــهد

ولقـــد اخال بذاك هندا بشرت
لتميت داخـل غصـة لا تبرد

مما صبحنا بالعقنقل قومهـــا
يوما تغيب فيه نها الأســـعد (٢)

وببئر بدر اذ يرد وجـــوههم
جبـــريل تحت لوائنا ومحمـــد

حتى رايت لدى النبى سراتهم
قسمين نقتل من نشـــاء ونطرد

فأقـــام بالعطـن المعطن منهم
ســـبعون عتبة منهم والاســـود (٣)

وابن المغـــيرة قد ضربنا ضربة
فـوق الوريد لها رشاش مزبد (٤)

واميـــــة الجمحى قـــوم ميله
عضـــب بأيدى المؤمنين مهنـــد (٥)

فأتاك فـــــل المشركين كأنهم
ــ والخيـــل تثفنهم ــ نعام شرد (٦)

شـــتان من هـــو فى جهنم ثاويا
ابدا ومن هـــو فى الجنـــان مخلد

* * *

---

(١) الحديد : اراد به الدروع . وذو لبدة : الاسد . شنن : غليظ . البرائن للسباع بمنزله الاصابع للناس . الاربد : الاغبر يخالط لونه سواد .

(٢) العقنقل : الكثيب من الرمل .

(٣) العطن : مبرك الابل حول الماء . والمعطن : الذى قد عود أن يتخذ عطنا .

(٤) الوريد : عرق فى صفحة العنق . ورشاش مزبد : يريد دما تعلوه الرغوة .

(٥) عضب : سيف قاطع

(٦) الفل : القوم المنهزمون . تثفنهم : تطردهم وتتبع آثارهم .

لقد دخل حمزة رضى الله عنه الاسلام منتصفا لمحمد رسـول الهدى ، ومات مقاتلا فى سبيل الله تعالى . وقد بلغ من تفـانيه فى نصرة دين الحـق أن محمدا صلى الله عليه وسلم سماه « أسد الله وأسد رسوله » .

وقد عاش فى أقسى فترات الدعوة ، ولم يعرف الحيـاة منذ اسـلم الا مضطهدا أو مجاهدا ولم يمهله القدر حتى يرى الاسـلام بعـد فتح مكة ، وحتى يرى الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، بل لم يمهله القدر حتى ينعم بشىء من الراحة لقاء هذا الكفاح المجيد الذى بذل .

أن الله العلى الكبير ادخر له جـزاءه كله فى الجنـة التى جعلها مثوى لأكرم شهداء المسلمين .

* * *

عم الرسول

العباس بن عبد المطلب

عم الرسـول
العباس بن عبد المطلب

كان العباس بن عبد المطلب شريفا مهيبا ، جميلا ، وكان من اطـول الرجال ، واحسنهم صورة وابهاهم ، واجهرهم صوتا ، مع الحـلم الوافر والسـؤدد .

أبوه عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة ، عم رسول الله ، وصنو أبيه ، وأمه نتيلة بنت جناب بن كليب ، وهى اول عربية كست البيت الحرير والديباج ، وسببه أن العباس ضـاع وهو صغير ، فنذرت أن وجدته أن تكسو البيت ، فوجدته ، ففعلت .

ولد العباس قبل عام الفيل بثلاث سنين .

وتزوج العباس من أم الفضل لبابة الكبرى بنت الحارث . وقد رزق منها بعدد من الأولاد . وفى ولد أم الفضل يقول عبد الله بن يزيد الهلالى :

ما ولدت نجيبة من فحـل بجبل تعلمه أو سـهل
كستـه من بطون أم الفضل أكرم بها من كهلة وكهل

كان العباس قبل المبعث رئيسا فى قريش ، واليه كانت عمارة المسجد ، فانه كان لا يدع احدا يسب فى المسجد ولا يقول فيه هجرا . لا يستطيعون لذلك امتناعا ، لأن ملأ قريش قد اجتمعوا وتعاقدوا عـلى ذلك ، فكانوا له اعوانا عليه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعظمه ويكرمه بعد اسلامه ، وكان وصولا لأرحام قريش ، محسنا اليهم ، ذا رأى سديد ، وعقل راجح .

قال النبى صلى الله عليه وسلم له :

« هذا العباس بن عبد المطلب أجود قريش كفا وأوصـلها . هذا بقية آبائى » .

دخل العباس على الرسول صلى الله عليه وسلم مغضـبا ، فقـال : ما اغضـبك ؟

فقال : يا رسول الله ، مالنا ولقريش ؟ اذا تلاقوا بينهم تلاقوا بوجـوه مبشرة ، واذا لقونا لقونا بغير ذلك .

فغضب الرسول حتى احمر وجهه ، ثم قال :

ـ والذى نفسى بيـده ، لا يدخل قلب رجل الايمـان حتى يحبكم لله ولرسـوله .

ثم قال : ايها الناس من آذى عمى فقد آذانى ، فانما عم الرجــل صنو ابيــــه .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم :

« ان الله اتخذنى خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا . ومنزلى ومنزل ابراهيم تجاهين فى الجنة ، ومنزل العباس بن عبد المطلب بيننا مؤمن بين خليلين » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « ان رجلا من الانصار وقع فى أب العباس كان فى الجاهلية ، فلطمه العباس ، فجاء قومه فقالوا : والله لنلطمنه كما لطمه ، فلبسوا السلاح .

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصعد المنبر فقال :

ــ ايها الناس ، اى اهل الأرض اكرم على الله ؟
قالوا : انت .

قال : فان العباس منى وانا منه ، لا تسبو امواتنا فتؤذوا احياءنا .

فجاء القوم فقالوا : نعوذ بالله من غضبك يا رسول الله .

وعن ابن عباس :

« ان النبى صلى الله عليه وسلم جعل على العباس وولده كســــاء ، ثم قال :

« اللهم اغفر للعباس وولده مغفرة ظاهرة وباطنة ، لا تغادر ذنبا . اللهم اخلفه فى ولده » .

وعن اسماعيل بن قيس بن سعد ، عن ابى حازم ، عن سهل ، قال :

خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القيظ ، فقــــام لبعض حاجته ، فقام العباس يستره بكساء من صوف ، فقال : اللهم استر العباس وولده من النار .

وقال صلى الله عليه وسلم :

ــ « استوصوا بالعباس خيرا ، فانه عمى وصنو ابى » .

وعن عائشة رضى الله عنها ، قالت :

ــ ما رايت رسول الله صلى الله عليه وسلم يجل احدا ما يجل العباس او يكرم العباس .

روى عنه عبد الله بن الحارث ، وعامر بن سعد ، والأحنف بن قيس ، وغيرهم . وله احاديث منها :

عن عبد الله بن عباس قال : اخبرنى ابى العباس انه اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال يا رسول الله انا عمك ، كبرت سنى ، واقترب أجلى ، فعلمنى شيئا ينفعنى الله به ، فقال :

ـ يا عباس انت عمى ولا اغنى عنك من امر الله شيئا ، ولكن سل ربك العفو والعافية .

وعن عامر بن سعد ، عن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا ، وبالاسلام دينا ، وبمحمد رسولا » .

* * *

شهد العباس بن عبد المطلب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة ، لما بايعه الأنصار ليشدد له العقد .

خرج الأنصار من يثرب فى حجاج قومهم من المشركين ومعهم البراء بن معرور سيدهم وكبيرهم ، وكان البراء فى شوق للقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد آمن به قبل ان يراه . وبيناهم فى الطريق التفت البراء الى كعب بن مالك وقال له :

ـ انى قد رايت رايا ما ادرى اتوافقوننى عليه ام لا .

ـ وما ذاك ؟

ـ رايت ان لا ادع هذه البنية (الكعبة) منى بظهر ، وان اصلى اليها .

ـ والله ما بلغنا ان نبينا صلى الله عليه وسلم يصلى الا الى الشام ، وما نريد ان نخالفه .

كانت قبلتهم بيت المقدس ، ولكن البراء بن معرور راى ان البيت العتيق أولى بأن يكون لهم قبلة فقال :

ـ انى اصلى اليه .

ـ ولكنا لا نفعل .

ولما قدموا مكة قال البراء لكعب بن مالك :

ـ يابن اخى انطلق بنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اسأله عما صنعت فى سفرى هذا ، فانه والله قد وقع فى نفسى منه شىء لما رايت من خلافكم اياى فيه .

فخرجا يسألان عن الرسول وكانا لا يعرفانه لأنهما لم يرياه قبل ذلك ، فلقيا رجلا من أهل مكة فسألاه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

ـ تعرفانه ؟

ـ لا .

ـ فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب ؟

ـ نعم .

كانا يعرفان العباس فقد كان لا يزال يقدم عليهم تاجرا ، قال الرجل :

ـ فاذا دخلتما المسجد فاذا هو الرجل الجالس مع العباس .

ودخلا المسجد ، ورأيا العباس فرحا يتقدمان اليه ، وغدوا يتفرسان فى وجه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد خفقت قلوبهما حبا واملا ، وفطن رسول الهدى الى أنهما قادمان اليه فقال للعباس :

ـ هل تعرف هذين الرجلين يا ابا الفضل ؟

ـ نعم ، هذا البراء بن معرور سيد قومه ، وهذا كعب بن مالك .

ـ الشاعر ؟

واثلج صدر كعب فرسول الهدى قد سمع به وبشعره ، وحيا البراء وكعب الرسول بتحية الاسلام فرد بأحسن منها ، ثم قال البراء :

ـ يا رسول الله انى قد خرجت فى سفرى هذا وقد هدانى الله الى الاسلام ، فرأيت ان لا اجعل هذه البنية منى بظهر فصليت اليها وخالفنى أصحابى فى ذلك حتى وقع فى نفسى من ذلك شىء ، فماذا ترى يا رسول الله ؟

قال الرسول :

ـ قد كنت على قبلة لو صبرت عليها .

فرجع البراء الى قبلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل يصلى مع اخوانه فى الدين الى بيت المقدس .

وجاء مصعب بن عميرة الى الرسول مشرق الوجه ، ثم راح يخبره بمن اسلم من الأنصار والرسول عليه الصلاة والسلام يصغى اليه وقد غمره

السرور ، فقد لاحت تباشير النصر بعد طول الترقب .

وواعد الانصار الرسول صلى الله عليه وسلم العقبة ، وكانوا يكتمون من معهم من قومهم من المشركين امرهم ، وكان فيهم ابو جابر عبد الله بن عمرو بن حرام سيد من ساداتهم فكلموه وقالوا له :

ــ يا ابا جابر انك سيد من ساداتنا وشريف من اشرافنا ، وانا نرغب بك عما انت فيه ان تكون حطبا للنار غدا .

وغدوا يدعونه الى الإسلام حتى شهد شهادة الحق وصلى معهم ، واخبروه بميعاد الرسول صلى الله عليه وسلم .

وانقضى يوم النضرة الاولى وجاءت الليلة التى واعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمكثوا تلك الليلة مع قومهم فى رحالهم حتى اذا مضى ثلث الليل خرجوا من رحالهم لميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم . يتسلل الرجل والرجلان تسلل الخطا مستخفين لا ينبهون نائما ، ولا ينتظرون غائبا كما امرهم الرسول صلى الله عليه وسلم .

واجتمعوا فى الشعب عند العقبة وكانوا ثلاثا وسبعين رجلا وامراتين : نسيبة أم عمارة من بنى النجار وأم منيع اسماء بنت عمر بن عدى .

فما زالوا ينتظرون الرسول صلى الله عليه وسلم حتى جاءهم ومعه العباس بن عبد المطلب ليس معه احد من الناس غيره ، وكان يثق به فى أمره كله .

وقد أوقف العباس على بن أبى طالب على فم الشعب عينا له ، واوقف أبا بكر الصديق على فم الطريق الآخر عينا .

فلما اجتمعوا كان أول من تكلم العباس بن عبد المطلب فقال :

ــ يا معشر الخزرج ــ وكانت الأوس والخزرج تدعى الخزرج ــ انكم قد دعوتم محمدا الى ما دعوتموه اليه ، ومحمد من أعز الناس فى عشيرته ، يمنعه والله من كان منا على قوله ومن لم يكن منا على قوله منعه للحسب والشرف ، وقد ابى محمد الناس كلهم غيركم ، فان كنتم اهل قوة وجلد وبصر بالحرب واستقلال بعداوة العرب قاطبة ، فانها سترميكم عن قوس واحدة ، فارتووا رايكم ، وائتمروا أمركم ولا تفترقوا الا عن ملأ منكم واجتماع فان احسن الحديث اصدقه .

ــ قد سمعنا مقالتك ، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما احببت .

ــ خذ لنفسك ما شئت واشترط لربك ما شئت .

ــ اشترط لربى عز وجل ان تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، ولنفسى ان تمنعونى مما تمنعون منه انفسكم وأبناءكم ونساءكم .

ــ فاذا فعلنا فما لنا ؟

ــ لكم الجنة .

ــ ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل . نبايعك .
فأخذ البراء بن معرور بيده صلى الله عليه وسلم ثم قال :

ــ نعم والذى بعثك بالحق لنمنعك مما نمنــع منه ازرنا (نســاءنا وانفسنا) فنحن والله اهل الحرب واهل الحلقة (الســلاح) ورثنــاها كابرا عن كابر .

وبينا البراء يكلم رسول الله صلى الله عليــه وسلم ، قال ابو الهيثم ابن التيهــان :

ــ نقبلك على مصيبة المــال وقتل الاشراف .

قال العباس : اخفوا جرسكم فان علينا عيونا .

قال ابو الهيثم : يا رسول الله ان بيننا وبين الرجال (اى اليهــود) حبالا « عهودا »، وانا قاطعوها ، فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم اظهــرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا ؟ » .

فتبسم الرسول صلى الله عليه وسلم ثم قال :

ــ بل الدم الدم والهدم الهدم (١) .
وقال العباس بن عبد المطلب :

ــ عليكم بما ذكرتم ذمة الله مع ذمتكم وعهد الله مع عهــدكم فى هــذا الشهر الحرام والبلد الحرام يد الله فوق أيديكم ، لتجــدن فى نصــرته ، ولتشــدن من أزره .

قالوا جميعا : نعم .

قال العباس : اللهم انك سامع شاهد ، وان ابن اخى قد اســترعاهم ذمته واستحفظهم نفسه ، اللهم كن لابن اخى عليهم شهيدا .

---

(١) ان طلب دمكم فقد طلب دمى ومنزلكم منزلى .

ثم قال صلى الله عليه وسلم :

ــ اخرجوا الى منكم اثنى عشر نقيبا يكونون على قومهم بما فيهم .

فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس فمن الخـزرج اسعد بن زرارة نقيب بنى النجار ، وسعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة نقيبا بنى الحارث بن الخزرج ، ورافع بن مالك بن العجلان نقيب بنى زريق ، والبراء ابن معرور ، وعبد الله بن عمرو نقيبا بنى مسلمة ، وعبادة بن الصـامت نقيب بنى عدى من الخزرج ، وسعد بن عبادة والمنذر بن عمرو نقيبا بنى ساعدة ، ومن الأوس اسيد بن حضير نقيب بنى عبد الأشهل ، وسعد بن خيثمة ورفاعة بن عبد المنذر نقيبا بنى عمرو بن عوف .

وقال صلى الله عليه وسلم لهؤلاء النقباء .

ــ انتم كفلاء على غيركم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وانا كفيل على قومى . واخذ اسعد بن زرارة بيد الرسول صلى الله عليه وسلم وقال :

ــ رويدا يأهل يثرب ، انا لن نضرب الا اكباد الابل الا ونحن نعلم انه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وان اخراجه اليوم مفارقة لجميع العـرب وقتل خياركم وان تعطيكم السيوف ، فاما أنتم قوم تصرون عليها اذا مستكم يقتل خياركم ومفارقة العرب كافة ، فخـذوه وأجركم على الله تعالى ، واما انتم تخافون من انفسكم خيفة فذروه فهو عذر لكم عند الله عز وجل .

وقال العباس بن عبادة :

ــ يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ انكم تبايعونه على حرب الاحمر والأسود من النـاس ، فاذا كنتم ترون انكم اذا نهكت اموالكم مصيبة واشرافكم قتلا اسلمتموه فمن الآن ، فهـو والله ان فعلتم خزى الدنيا والآخرة ، وان كنتم ترون انكم وافون له بما دعوتموه اليه على ما ذكرت لكم . فهو والله خير الدنيا والآخرة .

ــ رضينا ، ابسط يدك .

فبسط يده صلى الله عليه وسلم وتقدم الرجال للمبايعة .

كان العباس بن عبد المطلب يصغى الى ما يدور بين ابن اخيه عليـه الصلاة والسلام والأنصار وهو فى دهش من امر القوم الذين يبايعون عـلى محاربة الأسود والأحمر وعداوة العرب كافة وهم متهللون بالبشر والفرح ، كانما كانوا يدعون الى متعة من متع الحياة .

اكان العباس بن عبد المطلب على دين قومه حقا ، وانه احب ان يحضر امر ابن اخيه ويتوثق له ، أم ان العباس قد اسلم سرا وانه كتم اسـلامه نزولا على رغبة ابن اخيه ليكون قلم مخابراته فى مكة اذا ما اضطر رسـول الهدى يوما الى ان يهاجر من مكة ؟

ان زوجه ام الفضل اسلمت بعد ان حدثتها خديجة مباشرة حديث الملك الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم بغار حراء ، وقد ظلت العـلاقة طيبة بين ام الفضل والعباس بعد ذلك . ترى أكانت ام الفضـل ترضى ان يبقى العباس على كفره وان تظل على حبها اياه واجلاله ؟ واذا ما حـرم الاسلام فيما بعد ان تظل الزوجة المسلمة مرتبطة بزوجها الكافر ، اتهجر أم الفضل العباس ام تظل فى بيته ؟ !

* * *

مضت الارستقراطية القرشية سادرة فى غيهـا ، تؤذى النبى والذين آمنوا معه ، فهاجر المسلمون الى المدينة معقل الاسـلام وملجأ جمـاعة المسلمين ، وهناك اسس الرسول الدولة الاسلامية لتكون حصنا للمسلمين وقاعدة انطلاق لنشر راية التوحيد .

كانت مكة غارقة فى صمت عميق . وكانت عاتكة بنت عبد المطلب غارقة فى النوم فرات عمة الرسول رؤيا أفزعتها فبعثت الى اخيها العباس بن عبد المطلب فقالت له :

ـ يا أخى والله لقد رايت الليلة رؤيا افظعتنى وتخوفت ان يدخل عـلى قومك منها شر ومصيبة ، فاكتم عنى ما احدثك .
فأقبل عليها العباس فقالت :

ـ لن احدثك حتى تعاهدنى ان لا تذكرها فانهم ان سـمعوها آذونا واسمعونا مالا نحب . فعاهدها العباس فقال لها : ما رايت ؟

ـ رايت راكبا اقبل على بعيرك حتى وقف بالأبطح ثم صرخ بأعلى صوته الا فانفروا بالغدر مصارعكم فى ثلاث ، ثم مثـل به بعيره على راس ابى قبيس فصرخ بمثلها . ثم اخذ صخرة فأرسلها فاقبلت تهوى حتى اذا كانت بأسفل الجبل ارفضت (تفتت) ، فما بقى بيت فى بيـوت مكة ولا دار الا دخلت منهـا فلقـة .

ـ والله أن هذه لرؤيا ، وانت فأكتميها ولا تذكريها لأحد .
ثم خرج العباس فلقى الوليد بن عتبة بن ربيعة ، وكان له صـديقا

فذكرها له ، واستكتمه اياها ، فذكرها الوليد لأبيه عتبة ففشا الحديث بمكة حتى تحدثت به قريش فى انديتها . فغدا العباس ليطوف بالبيت وابو جهل بن هشام فى رهط من قريش قعود يتحدثون برؤيا عاتكة ، فلما رآه ابو جهل قال :

ـ يا ابا الفضل اذا فرغت من طوافك فأقبل علينا .

فلما فرغ اقبل حتى جلس معهم فقال ابو جهل :

ـ يا بنى عبد المطلب متى حدثت فيكم هذه النبية ؟

ـ وما ذاك ؟

ـ تلك الرؤيا التى رات عاتكة .

ـ ما رات ؟

ـ يا بنى عبد المطلب اما رضيتم ان يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم ، لقد زعمت عاتكة فى رؤياها انه قال : انفروا فى ثلاث : فسنتربص بكم هذه الثلاث فان يك حقا ما تقول فسيكون . وان تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء نكتب عليكم كتابا انكم اكذب اهل بيت فى العرب .

ولم يستطع العباس ان يفعل شيئا الا ان ينكر رؤيا عاتكة ، ثم تفرقا فلما جاء المساء وذاع فى دور بنى عبد المطلب ما كان بين العباس وابى جهل لم تبق امراة من بنى عبد المطلب الا اتت العباس فقالت :

ـ اقررتم لهذا الفاسق الخبيث ان يقع فى رجالكم ثم قد تناول النساء وانت تسمع ، ثم لم يكن عندك غيرة لشيء مما سمعت .

فقال العباس :

ـ قد والله فعلت ما كان منى اليه من كبير ، وايم الله لاتعرضن له فان عاد لالفينكنه .

فغدا العباس فى اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وهو حديد مغضب يرى انه قد فاته من ابى جهل امر يجب ان يدركه منه ، فدخل المسجد فرآه فمشى نحوه ليتعرضه ليعود لبعض ما قاله فيقع به ، وكان رجلا خفيفا حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر ، فاذا به يخرج الى باب المسجد يشتد فقال العباس فى نفسه :

ـ ما له لعنه الله ! أكل هذا فرق منى ان اشاتمه !

واذا هو قد سمع ما لم يسمع العباس : صـــــوت ضمضم بن عمرو الغفارى ، وهو يصرخ ببطن الوادى واقفا على بعيره ، قد جدع بعيره (قطع انفه) وحول رحله وشق قميصه وهو يقول :

ـ يا معشر قريش ، اللطيمة اللطيمة (الابل التى تحمل البر والطيب) أموالكم مع ابى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه لا ارى ان تدركوها . الغـوث ! الغـوث !

فشغل العباس عن ابى جهل وشغل ابا جهل عن العباس ما جاء من الأمر وكانت معركة بدر ، بين كتيبة الايمان ، وقوى الشرك والظلام ، ابلى فيها المسلمون بلاء عظيما ، وتساقطت رءوس المشركين تحت ضربات ســـيوف كتيبــة الايمان .

قال الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه :

ـ انكم قد عرفتم ان رجالا من بنى هاشم وغيرهم قد اخـرجوا اكراها لا حاجة لهم بقتالنا فمن لقى العباس بن عبد المطلب فلا يقتله ، ومن لقى أبو البخترى بن هشام فلا يقتله . كان ابو البخترى ممن لا يؤذى النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو بمكة ، وكان ممن قام فى نقض الصحيفة الظالمة ورفع الحصار الذى ضربته قريش على بنى عبد المطلب وبنى هاشم لمنـــاصرتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلماذا ذكر العباس دون غـيره من بنى هاشـم ؟

اكان العباس قد أسلم وكتم اسلامه ليكون عينا على قريش ؟

فقال ابو حذيفة بن عتبة :

ـ أيقتل آباؤنا واخواننا وعشيرتنا ويترك العباس ؟ لئن اقيته لألجمنه بالسيف .

راى ابو حذيفة مقتل ابيه عتبة بن ربيعة وعمه شيـــبة واخيه الوليد فهزته المأساة على الرغم من صدق ايمانه فقال مقالته ، فلما بلغت رسول الله قال لعمر بن الخطاب :

ـ يا اباحفص ، ايضرب وجه عم رسول الله بالسيف ؟

فقال عمر فى تأثر وانفعال :

ـ يا رسول الله ، دعنى اضرب عنقه بالسيف ، فوالله لقد نافق .

فكان ابو حذيفة يقول :

ــ ما انا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ ، ولا أزال منها خائفــــا الا ان تكفرها عني الشهادة ، فقتل يوم اليمامة شهيدا .

لم يدع الرسول ابن الخطاب يضرب عنق أبي حذيفة ، فقد بلغ الرسول أربه باعلان انه لن يرضى عن قاتل العباس ، ولو كان العباس كافرا ما اهتم به رسول الهدى الذي بعث بالحق كل هذا الاهتمام ، ولكنه كان عليه السلام يخشى ان يقتل مظلوما وان يفقد عينيه في مكة .

ساق المسلمون اسرى المعركة من المشركين ، ووقف ذكوان بن عبد قيس يحرس الأسارى ، وبات رسول الله تلك الليلة ساهرا فقال له اصحابه :

ــ مالك لا تنام يا رسول الله ؟

ــ سمعت أنين العباس (١) في وثاقه .

فقال رجل فأرخى من وثاقه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ــ مالي لا اسمع انين العباس ؟

فقال رجل من القوم :

ــ اني ارخيت من وثاقه شيئا .

قال رسول الهدى :

ــ فافعل ذلك بالأسارى كلهم .

وفي الصباح .. قال الرسول للعباس :

ــ يا عبـــاس افد نفســـك وابن اخيك عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث وحليفك عتبة بن عمرو فانك ذو مال .

ــ يا رسول الله اني كنت مسلما ولكن القوم استكرهوني .

ــ الله اعلم باسلامك ، أن يك ما تذكر حقا فالله يجزيك به ، فاما ظاهر امرك فقد كان علينا ، فافد نفسك .

وكان الرسول قد اخذ منه عشرين أوقية من ذهب ، فقال العباس :

ــ يا رسول الله احسبها من فداي .

---

(١) روى عكرمة مولى ابن عباس عن ابي رافع قال : كنت غلاما للعباس بن عبد المطلب. وكان الاسلام قد فشا فينا اهل البيت فاسلم العباس واسلمت ام الفضل زوجه . وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم فكان يكتم اسلامه .

ـ لا ، ذاك شيء اعطاناه الله منك .

ـ فانه ليس لى مال .

قال الرسول : فأين المال الذى وضعت بمكة حين خرجت عند ام الفضل بنت الحارث ليس معكما احد ، ثم قلت لها ان اصبت فى سفرى هذا فللفضل كذا وكذا ولعبد الله كذا وكذا ؟

قال العباس : والذى بعثك بالحق ما علم بهذا احد غيرى وغيرها ، وانى لأعلم انك رسول الله ، ففدى العباس نفسه وابن اخيه وحليفه .

* * *

أراد العباس الهجرة من مكة الى المدينة ، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : « مقامك بمكة خير » كان من بمكة من المسلمين يتقوون به ، وكان يكتب الى الرسول اخبار المشركين .

ولذلك كان الرسول يقول له : « يا عم ، اقم مكانك الذى انت به فان الله تعالى يختم بك الهجرة كما ختم بى النبوة » .

ثم هاجر العباس الى النبى صلى الله عليه وسلم ليكون له الثواب الذى يستحقه بعد كل ما ادى للاسلام من خدمات فى الخفاء ، فلم تعد هناك حاجة لخدماته وقد اصبح فتح مكة على الابواب .

وخرج العباس فى غفلة من قريش بعياله مهاجرا فلقى الرسول بالجحفة فاستقبل عليه السلام عمه وقد غمره الفرح فقال :

ـ هجرتك يا عم آخر هجرة .

ونال العباس الجزاء الأوفى ورجع معه عليه السلام الى مكة ليكون له فضل الجهاد الى فضل الاسلام والهجرة . وأرسل اهله ومتاعه الى المدينة حتى اذاما نزل المسلمون بمر الظهران واوقدوا النيران رق قلب العباس لأهل مكة وقال :

ـ واصباح قريش ! والله لئن دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عنوة قبل ان يأتوه فيستأمنوه انه لهلاك قريش الى آخر الدهر .

فجلس العباس على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم البيضاء فخرج عليها والسنة النيران تتراقص وسار على ضوئها حتى جاء الأراك . والتقى بأبى سفيان بن حرب .

فقال له : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس قد جاءكم بمالا قبل لكم به .

فقال ابو سفيان فى يأس :

ـ واصباح قريش ! والله ، فما الحيلة فداك ابى وأمى ؟

ـ والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب فى عجز هـذه البغلة حتى آتيك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستامنه لك .

فركب ابو سـفيان خلف العبـاس فجاء به حتى مر على نيران عمر بن الخطاب وكان على الحرس .

فقال : من هذا :

وقام الى العباس ، فلما راى أبو سفيان على عجز الدابة قال :

ـ ابو سفيان : عدو الله الحمد لله الذى أمكن منك من غير عقد ولا عهد .

ثم راح يشده نحو رسول الله فركضت البغلة فسبقته وراح عمر يعدو خلفها ، ودخل العباس على الرسـول ، ودخل عمر فى اثره فقـال وهو يلتقط انفاسه :

ـ هذا هو أبو سفيان وقد أمكن الله منه من غير عقد ولا عهد ، فدعنى لأضرب عنقه .

فقال العباس : يارسول الله انى قد أجرته .

فعاد عمر يقول لرسول الله عليه السلام : دعنى لأضرب عنقه .

فقال العباس فى غضب :

ـ مهلا يا عمر فوالله لو كان من رجال بنى عدى بن كعب ما قلت مثـل هذا . ولكنك، قد عرفت انه من رجال بنى عبد مناف .

فقال عمر :

ـ مهلا ياعباس . فو الله لاسلامك يوم أسلمت كان أحب الى من اسلام الخطاب لو اسلم . وما بى الا انى قد عرفت أن اسلامك كان أحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اسلام الخطاب لو اسلام .

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم :

ـ اذهب به ياعباس الى رحلك فاذا أصبحت فائتنى به .

وفى الصباح آمن أبو سفيان بدعوة الاسلام ، وشهد شهادة الحق .

ودخل الرسول والذين آمنوا معه مكة ترفرف عليهم رايات النصر المبين .

* * *

سمع المسلمون بعد فتح مكة مباشرة بتجمعات لعرب هوزان من ثقيف ، ومعها بنو نصر ، وبنو جشم وبنو سعد بن بكر ، وبنو هلال ..

فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالخروج لقتالهم ، فخرج على رأس أصحابه ، مهاجرين وانصارا ، وانضم اليهم من آل مكة ، الذين أسلموا حديثا وكان مجموع الجيش اثنى عشر الفا . ولما استقبل المسلمون وادى حنين انحدروا فى واد من أودية تهامة ، وكان القوم قد سبقوهم الى هذا الوادى ، فكمنوا لهم فى شعابه واحنائه ومضايقه ، وقد أجمعوا وتهيئوا واعدوا ، فما راعهم الا الكتائب قد شدت عليهم شدة رجل واحد ، واستقبلوهم بالنبل كأنهم جراد منتشر .

وانهزم الناس اجمعون ، وانشمروا لايلوى أحد على أحد ، وانحاز الرسول ذات اليمين ، ثم قال :

ــ اين أيها الناس هلموا الى ، انا رسول الله ، انا محمد بن عبد الله . وانطلق الناس الا انه قد بقى مع الرسول نفر من المهاجرين والأنصار واهل بيته .

وقال الرسول :

ــ ياعباس ، اصرخ ، يا معشر الأنصار يا أصحاب السمرة .

فنادى العباس ، يا معشر الأنصار ، يا معشر أصحاب السمرة !
فأجابوا : لبيك ! لبيك !

وتجمع الناس من جديد .. وانتصر المسلمون بفضل ثبات الرسول والفئة القليلة التى أحاطت به . وفى ذلك نزل قوله تعالى :

« لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وانزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين . ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم . يأيها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله عليم حكيم (١) .

---

(١) سورة التوبة : ٢٥ ــ ٢٨ .

ومات الرسول صلى الله عليه وسلم وهو عنه راض ، وكان الصحابة يعرفون للعباس فضله ، ويقدمونه ويشاورونه ويأخذون برأيه .

واستسقى عمر بن الخطاب بالعباس رضى الله عنه عام الرمادة لما اشتد القحط .

فسقاهم الله تعالى به ، فأخصبت الأرض . فقال عمر : هذا والله الوسيلة الى الله ، والمكان منه .

وقال حسان بن ثابت :

سأل الامام وقد تتابع جدبنا
فسقى الغمام بغرة العباس

عم النبى وصنو والده الذى
ورث النبى بذاك دون الناس

احيا الاله به البلاد فأصبحت
مخضرة الأجناب بعد اليأس

ولما سقى الناس طفقوا يتمسحون بالعباس ، ويقولون : هنيئا لك ساقى الحرمين .

ولما كثر المسلمون فى عهد عمر ضاق بهم المسجد ، فاشترى عمر ما حول المسجد من الدور الا دار العباس بن عبد المطلب وحجر أمهات المؤمنين فقال عمر للعباس :

ـ يا أبا الفضل ، أن مسجد المسلمين قد ضاق بهم . وقد ابتعت ما حوله من المنازل نوسع به على المسلمين فى مسجدهم الا دارك وحجر أمهات المؤمنين اما حجر امهات المؤمنين فلا سبيل اليها ، وأما دارك فبعنيها بما شئت من بيت مال المسلمين أوسع بها فى مسجدهم .

فقال العباس :

ـ ما كنت لأفعل .

قال عمر :

ـ اختر منى احدى ثلاث : اما ان تبيعنيها بما شئت من بيت مال المسلمين ، واما ان أخططك حيث شئت من المدينة وأبنيها لك من بيت مال المسلمين ، واما ان تتصدق بها على المسلمين .

ـ لا ، ولا واحدة منها .

ـ اجعل بينى وبينك من شئت .

ـ أبى بن كعب .

فانطلقا الى أبى بن كعب فقصا عليه القصة ، فقال أبى :

ـ ان شئتما حدثتكما بحديث سمعته من النبى صلى الله عليه وسلم .

فقالا : حدثنـــا .

قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقـــول : ان الله اوحى الى دواد أن ابن لى بيتا اذكر فيه . فخط له هـــذه الخطة ، خطة بيت المقدس ، فاذا تربيعها بيت رجل من بنى اسرائيل، فسأله داود ان يبيعه اياه فأبى فحدث دواد نفسه ان يأخذه منه ، فأوحى الله اليـــه أن يا دواد امرتك ان تبنى لى بيتا اذكر فيه ، فأردت ان تدخل فى بيتى الغصب وليس من شأنه الغصب ، وان عقوبتك ان لا تبنيه ، قال : يا رب فمن ولدى ؟ قال : من ولدك .

فأخذ عمر بمجامع ثياب ابى بن كعب ، وقال :

ـ جئتك بشىء فجئت بما هو اشد منه ، لتخرجن مما قلت .

فجاءه يقوده حتى ادخله المسجـد فأوقفه على حلقة من اصـحاب رسول لله ، فيهم أبو ذر الغفارى فقال :

ـ انى نشدت الله رجلا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يذكر حديث بيت المقدس حين أمر الله داود أن يبنيه الا ذكره .

فقال أبو ذر : أنا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال آخر : أنا سمعته .

واقبل ابى على عمر فقال :

ـ يا عمر أتتهمنى على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال عمر : يا ابا منذر لا والله ما اتهمتك عليه ، ولكنى كرهت أن يكون الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهرا .

والتفت عمر للعباس وقال : اذهب فلا أعرض لك فى دارك .

قال العباس :

ـ اما اذ فعلت فانى قد تصدقت بها على المسلمين أوسع بها عليهم فى مسجدهم ، فأما وانت تخاصمنى فلا .

كان الصحابة يقدرون العباس ويحترمونه ، فكان العبـاس اذا مر بعمر بن الخطاب أو بعثمان بن عفان ، وهما راكبان ، نزلا حتى يجاوزهما اجلالا لعم رسول الله .

وعن مهيب مولى العباس ، قال : رأيت عليا يقبل يد العباس ورجله ويقول ، يا عم أرض عنى .

وقد توفى العباس بن عبد المطلب بالمدينة المنورة يوم الجمعة لاثنتى عشرة ليلة خلت من رجب ، وقيل ، بل من رمضان ، سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة . وصلى عليه عثمان بن عفان رضى الله عنهما ، ودفن بالبقيع .

فاطمة الزهراء

١

مولدها ونشأتها

فاطمة الزهراء سيدة نســاء العــالمين ، البضــعة النبوية ، والجهة المصطفوية ، أم ابيها بنت رسول الهدى صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة الطاهرة ، سيدة نساء قريش .

كانت خديجة بنت خويلد رضى الله عنهــا للرســول الأعظم منذ أول ساعات النبوة .

لقد نزل عليه الروح الأمين أول ما نزل فى غار حراء ، فلم يكن ما رآه بشرا من الناس ، ولا خلقا مما يتخيله المتخيلون ، فاقرأ . ما شاء الله أن يقرئه من آى الكتاب الكريم ، ثم أخــذ يتراءى له فى طريته بين السماء والأرض ، فلا يلتفت يمنة ولا يسرة حتى يراه فيقف لا يتقدم ولا يتأخر كل ذلك ورسول الهــدى بين شعاب الجبل ، وفى وحشة الطريق ، فلا أنيس ولا سمير ولا معين ولا نصير .

لم يزل الرسول الكريم فى موقفه هذا ، حتى انصرف الملك عنــه ، فانصرف هو الى زوجه خديجة فزعا مرعوبا مما سمع ورأى ، فلما بصرت به ، قالت :

ـ اين كنت يا أبا القــاسم ؟ فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ، ثم رجعوا الى .

فحدثها رسول الله حديثه ، فقالت :

ـ أبشر يابن عم واثبت ، فوالذى نفس خديجة فى يده ، انى لارجــــو ان تكون نبى هذه الأمة .

وقامت خديجة ، فجمعت عليها ثيابها ، وانطلقت الى ابن عمها ورقة ابن نوفل فاخبرته خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ورقة :

ـ قدوس قدوس ! والذى نفس ورقة بيده كنت صدقتنى يا خديجة، لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وانه لنبى هذه الأمة . فقولى له : فليثبت . فرجعت خديجة بقول ورقة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكانت آية البشر والبشرى له .

سارت خديجة أم المؤمنين فى تثبيت قلب الرسول ، وترويح نفسه ، وتأييد امره ، فلم ير شيئا يحزنه ، من رد عليه ، وتكذيب له ، وسخرية به ، ونفور منه ، الا فرحت صدره أذهبت حزنه ، وأثلجت قلبه ، وهونت الامر عليه .

وقد بقى محمد يذكر لها تلك الأيام الى مختتم أيامه ، وظل يتفقدها ويتفقد موطن ذكراها اعواما بعد أعوام ، قالت عائشة رضى الله عنها :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا ذكر خديجة لم يكد يسأم من ثناء عليها واستغفار لها . فذكرها يوما ، فحملتنى الغيرة فقلت : لقد عوضك الله من كبيرة السن !

فغضب الرسول غضبا شديدا ، فأسقط فى يدى وقلت فى نفسى : اللهم ان اذهبت غضب رسولك عنى لم اذكرها بسوء . فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم ما لقيت قال : كيف قلت ! والله لقد آمنت بى اذ كذبنى الناس ، وآوتنى اذ رفضنى الناس ، ورزقت منها الولد وحرمتنه منى .

قالت : فغدا وراح على بها شهرا .

كانت السيدة خديجة عاقلة جليلة دينة مصونة كريمة ، ومن كرامتها عليه صلى الله عليه وسلم أنه لم يتزوج امراة قبلها ، وجاءه منها عدة اولاد ، ولم يتزوج عليها قط امراة ولا تسرى الى ان قضت نحبها ، فوجد لفقدها ، فانها كانت نعم القرين ، وقد أمر الله جل جلاله رسوله صلى الله عليه وسلم ان يبشرها ببيت فى الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب.

وقد رزق الرسول من السيدة خديجة بعدد من الأولاد : زينب ورقية وام كلثوم وفاطمة والقاسم وعبد الله ، ولكن الله لم يشأ لهما أن يعيشا طويلا ، بل ما لبث أن استرد الوديعتين الغاليتين ، أحدهما بعد الآخر .

فى العام العاشر من زواج الرسول الاعظم والسيدة خديجة الطاهرة .. استعدا لاستقبال ثمرة جديدة للزوجية السعيدة .

وصادف مولدها ، حادثا جليلا فى تاريخ الأب ، وتاريخ مكة الدينى أجمع .

كانت قريش تفكر منذ سنوات كثيرة فى ان تعيد بناء الكعبة بعد أن تصدعت جدرانها ، وكانت الظروف مهياة لقريش لتقوم باصلاح الكعبة ،

فقد رمى البحر بسفينة رومية جنحت الى جدة ، فسعى اليها رجال من قريش وعادوا بأخشاب السفينة ، وبرجل مسيحى مصرى نجار بناء .

بدات قريش عملية الهدم والبناء ، وكان أول من بدأ الهدم أبو وهب ابن عمر بن عائذ بن مخزوم فتناول من الكعبة حجرا ، فوثب فى يده حتى رجع الى موضعه كما يروى ابن هشام — فقال :

— يا معشر قريش ، لا تدخلوا فى بنائها من كسبكم الا طيبا ، لا يدخل فيها مهر بغى ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس .

اقتسمت قريش جوانب الكعبة الأربعة : فكان شق الباب لبنى عبد مناف وزهرة . وكان ما بين الركن الأسود والركن اليمانى لبنى مخزوم وقبائل من قريش انضموا اليهم . وكان ظهر الكعبة لبنى جمح وسهم عمرو بن هصيص بن لؤى . وكان شق الحجر لبنى عبد الدار بن قصى ولبنى أسد بن العزى . وقد هاب الناس هدمها وفرقوا منه ، فقال الوليد ابن المغيرة :

— انا ابدؤكم فى هدمها ، فأخذ المعول ، ثم قام عليها وهو يقول :

— اللهم لم ترع ، اللهم انا لا نريد الا الخير .

ثم هدم من ناحية الركنين ، فتربص الناس تلك الليلة ، وقالوا :

— ننظر فان أصيب لم نهدم منها شيئا ورددناها كما كانت ، وان لم يصبه شىء فقد رضى الله صنعنا فهدمنا .

فأصبح الوليد من ليلته غاديا على عمله ، فهدم وهدم الناس معه ، حتى اذا انتهى الهدم بهم الى الاساس أساس ابراهيم عليه السلام افضوا الى حجارة خضراء كالأسنمة آخذ بعضها بعضا ، فرأوا أن يتخذوا هذه الاحجار أساس للبناء الجديد .

بدأ بناء الكعبة من جديد ، وكان بابها لاصقا بالأرض منذ عهد ابراهيم عليه السلام فقال ابو حنيفة بن المغيرة .

— يا قوم ، ارفعوا باب الكعبة حتى لا يدخلها احد الا بسلم ، فانه لا يدخلها حينئذ الا من اردتم فان جاء أحد ممن تكرهونه رميتم به فسقط وصار نكالا لمن يراه .

جمعت بطون قريش احجارا من الجرانيت الأزرق من الجبال المحيطة بمكة وبدات البناء حتى بلغ البناء موضع الركن ، اى الحجر الأسود ،

واصبح ارتفاع البناء حينئذ الى قامة الرجل، وارادوا وضع الحجر الأسود فى مكانه فى الجانب الشرقى ، فاختلفت بطون قريش على من يحوز شرف اعادة الحجر الأسود الى مكانه واشتدت حدة الخلاف وكاد القتال ينشب بين بطون قريش . فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب بن لؤى على الموت ، وادخلوا ايديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة فسموا لعقة الدم ، ومكثت قريش على ذلك اربع ليـــال أو خمسا ، ثم اجتمعوا فى المسجد . فوقف أبو أمية بن المغيرة ، وكان أسن قريش فقال :

ــ يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم ــ فيما تختلفون فيه ــ أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه .

فوافقوا على هذا الرأى ، فكان أول داخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوه قالوا : ــ هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد . فلما انتهى اليهم اخبروه الخبر ، فقال صلى الله عليه وسلم :

« هلم الى ثوبا » فأتى به ، فأخذ الركن ، فوضعه فيه بيده ، ثم قال :

« لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعا . ففعلوا حتى اذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيـــده ثم بنى عليه ، وبذلك حلت كلمة الوفاق محل الشقاق ، ورضى الكل بحكمه صلى الله عليه وسلم والى قضية التحكيم يشير قول هبيرة بن وهب المخزومى :

تشاجرت الأحياء فى فصل خطة
جرت بينهم بالنحس من بعد اسعد

تلاقوا بهـــا بالبغض بعد مودة
وأوقـد نارا بينهم شر موقـد

فلما رأينا الامر قد جـد جـده
ولم يبق شىء غير سل المهنـــد

رضينا وقلنـا العــدل أول طالع
يجىء من البطحاء من غير موعد

ففاجانا هـــذا الأمين محمـد
فقلنـا رضـينا بالأمين محمـد

ورجع رسول الهدى ، ليطمئن على سلامة زوجته ، فاذا به يتلقى طفلته الرابعة : فاطمة الزهراء (١)

تفتحت حياة فاطمة على أضواء الرسالة السماوية ، التى راح محمد صلى الله عليه وسلم يدعو الناس الى الايمان بها ، وترك عبادة الأوثان .

كان رسول الهدى يجادل الناس بالتى هى أحسن ، ويحاول مخلصا رفع العصائب عن عيونهم ليروا نور السلام ، ويؤمنوا بالله الواحد ، الفرد الصمد . ولكن الارستقراطية القرشية ناصبته العداء ، ولم تصغ الى كلمة الحق . فقد رأت فى دعوة الاسلام خطرا يهدد مصالحها الذاتية ، ويقضى على امتيازاتها الطبقية ، فتآمرت للقضاء عليه وعلى دعوته ، ولكن الله حفظ رسوله وأتم نوره .

عاشت فاطمة فى وسط خضم زاخر من الآلام ، التى تصهر فيها الدعوات .. كانت هى وحدها ـ دون أخواتها ـ التى تقف بجوار أبيها حين يلقى عنت الكافرين ، وايذاء المشركين .

كانت بالقرب منه يوم سعى الى الكعبة ، حتى استلم الركن ، فما أن رآه بعض الطغاة حتى أسرعوا اليه وأحاطوا به ، وصرخوا فيه :

ـ أنت الذى تقول كذا وكذا ؟ وأحصوا ما قال من شتم آبائهم ، وعيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم .

فيجيبهم الرسول فى صوت هادىء ثابت قوى :

ـ نعم ، أنا الذى يقول ذلك .

وشاهدت الزهراء . رجلا منهم ، يثب الى أبيها ، ويشده من تلابيبه، فوقعت مدهولة مذعورة مما يصيب أباها ، أحب النـــاس اليها ، وهى لا تستطيع أن تفعل شيئا أمام هؤلاء الطغاة . ثم شاهدت أبا بكر يقف دون رسول الله باكيا ، ويقول :

ـ أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟

فالتفتوا اليه ، وشرر الغضب يتطاير من عيونهم ، فجذبوه بلحيته ثم لم يدعوه حتى صدعوا رأسه .

---

(١) الزهراء : المشرقة الوجه

وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بيته ، وفاطمة تتبعه ، وترى الناس احرارا وعبيدا يلقونه فى الطريق ، يكذبونه ويؤذونه !

وكانت فاطمة ايضا بالقرب منه ، يوم كان ساجدا فى البيت العتيق ، وحوله قوم من طغاة قريش ، فجاء « عقبة بن ابى معيط » ، بسلى جزور ، فقذفه على ظهره الشريف ، فلم يرفع الرسول الأعظم راسه ، حتى تقدمت ابنته فاطمة فى شجاعة وثبات ، فأخذت السلى . ورفعت رأسها تدعو على من صنع ذلك ، ثم رفع رسول الله رأسه وقال :

« اللهم عليك الملأ من قريش ! اللهم عليك أبا جهل بن هشام . وعتبة ابن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة وعقبة بن أبى معيط ، وابى بن خلف » .

ران على القوم صمت عميق حين سمعوا دعاء النبى ، وبعد سنوات كان هؤلاء جميعا صرعى فى القليب بجوار ماء بدر .

وكانت الزهراء ، هناك بالقرب من ابيها ، يوم خرج الى قريش . وقد نزل عليه قوله تعالى :

« وانذر عشيرتك الأقربين » فجعل رسول الله ينادى :

« يا معشر قريش ، اشتروا انفسكم ، لا اغنى عنكم من الله شيئا .

يا بنى عبد مناف ، لا أغنى عنكم من الله شيئا .

يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغنى عنك من الله شيئا .

يا صفية بنت عبد المطلب ، لا اغنى عنك من الله شيئا .

ثم نظر رسول الهدى الى ابنته فاطمة ، واستطرد قائلا :

« ويا فاطمة بنت محمد ، سلينى ما شئت من مالى ، لا أغنى عنك من الله شيئا » .

وتأثرت الزهراء من نداء ابيها ، وكانى بها قد همست فى نفسها مستجيبة ملبية :

« لبيك يا احب والد واكرم داع »

وليست هذه هى المرة الوحيدة التى يضرب الرسول فيها المثل بابنته فاطمة ، تأكيدا لما يريد نشره فى المجتمع من الحق والعدل . فقد روى

التاريخ أن أمرأة من قريش سرقت بعد أن أسلمت ، وبلغ الرسول أمرها فأشفقت قريش أن يقام عليها الحد ، وتقطع يدها ، فاستشفعوا لها عند الرسول حتى جاءوا أسامة بن زيد ليشفع فيها ، وكان الرسول يشفعه ، فلما فعل ، قال صلى الله عليه وسلم :

-- « لا تكلمني يا أسامه ، فان الحدود اذا انتهت الى ، فليس لها مترك ، ولو كانت بنت محمد فاطمةلقطعت يدها » .

فى بيت النبوة ، ومهبط الوحى . درجت فاطمة الزهراء ، وتفتحت عيونها على الحياة ، وتعلمت فى دار أبويها ما لم تتعلمه طفلة غيرها فى مكة : آيات من القرآن وعادات يأباها من حولهم العابدون وغير العابدين :

ولكنها قد تعلمت كذلك كل ما يتعلمه غيرها من البنـات فى حاضرة الجزيرة العربية فكانت تضمد جراح أبيها فى غزوة أحد ، وكانت تقوم وحدها بصنيع بيتها ولا يعينها عليه أحد من النساء فى أكثر أيامها .

لقد نشأت الزهراء نشأة جد واعتكاف : نشأة وقار واكتفاء ، وعلمت مع الأيام أنها سليلة شرف لا منازع لها فيه من واحدة من بنات حواء فيمن تراه ، فوثقت بكفاية هذا الشرف الذى لا يدانى ، وشبت بين انطوائها على نفسها واكتفائها بشرفها كأنها فى عزلة بين أبناء آدم وحواء .

مضت سنوات من بعثة الرسول الكريم شاهدت فاطمة خلالها من الوان العذاب والاضطهاد ما لم تسمع به العرب من قبل ، حتى اضطر بعض المسلمين الى الهجرة نحو الحبشة ، وصحبت فاطمة أبويها الى شعب أبى طالب ، حيث عاشت هنالك بين أسوار الحصار الدامى سنين عددا ، ثم عادت الى مكة بعد انهيار الحصار ، لتشهد بعينها موت أمهـا الطاهرة خديجة ، ثم هجرة أبيها الى يثرب وعلى أثره هاجر على بن أبى طالب . وكان قد تمهل ثلاثة أيام فى مكة ، ريثما أدى عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، الودائع التى كانت عنده للناس .

وبقيت فاطمة وأختها أم كلثوم ، حتى جاء رسول من أبيها فصحبهما الى يثرب . ولم تمر رحلتها بسلام . فانهما ما كادتا تودعان أم القرى، حتى أخذ اللئام من مشركى مكة يطاردونهما وقد رآهما الحويرث بن نقيد ابن عبد قصى ، وهو ممن آذى الرسول بمكة ، فألهب راحلتـه ، ضربا بالسياط حتى لحق بهما وطاردهما ، حتى نخس بعيرهما ، فالقى بهما

اديم الصحراء ! وكانت فاطمة الزهراء ضعيفة البنية ، نحيلة الجسم ، لم تسترد قوتها بعد من آثار الحصار المنهك ، فما كادت تقوم من وقعتها حتى سارت بقية الطريق الى يثرب ، وما تكاد ساقاها تستطيعان حملها مما أصابها من تعب ، وما نالها من نصب .

وقصت الزهراء على الرسول ما صنع الحويرث ، معها ومع أختها . ولم يبق فى المدينة من لم يلعن الحويرث ، وسوف تمضى السنوات والرسول لا ينسى الفعلة الآثمة ، حتى اذا جاء العام الثامن من الهجرة ، وفتح المسلمون مكة ، أمر الرسول أن يقتل امراؤه نفرا من المشركين ، ولو وجدوهم تحت أستار الكعبة ، وكان من بين النفر الذين سماهم الرسول (الحويرث) .

وكان حظ الحويرث من القتل على يد على بن أبى طالب رضى الله عنه .

زواجها

صارت فاطمة الزهراء زهرة متفتحة فى الثامنة عشرة من عمرها . وجاء أبو بكر الصديق الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب فاطمة فاطرق عليه السلام قليلا ثم قال :

ـ انتظر بها القضاء .

وسمعت فاطمة ولا ريب بخطبة الصـديق اياها وفكرت فى الرجل وفيما قال له أبوها فلم تفهم شيئا ، وترقبت ذلك القضاء الذى ينتظره رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وجاء عمر بن الخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب فاطمة فقال له عليه السلام :

ـ انتظر بها القضاء .

دار حديث فى الدار بين فاطمة الزهراء وام كلثوم وام ايمن حـــول خطبة عمر لفاطمة ورفض الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك الزواج فى كياسة وادب وذلك القضاء الذى ينتظره رســول الله صلى الله عليه وسلم ولم يؤد الحوار الى حقيقة تطمئن اليها قلوب أهل البيت .

وفطن ابو بكر وعمر الى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ادخر الزهراء لعلى بن أبى طالب ، فجاءا الى على يأمرانه ان يخطبها فنبهاه لأمر كان عنه غافلا ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وحيـاه بتحيـة الاسلام . ثم جلس على استحياء قريبا من الرسول الكريم ، لا يذكر شيئا مما جاء من أجله ، وادرك صلى الله عليه وسلم أن هناك حاجة عند ابن عمه يريد أن يفصح عنها ، فسأله الرسول الكريم :

ـ ما حاجة ابن أبى طالب ؟

وبصوت خفيض ، اجاب على ،

ذكرت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال الرسول : مرحبا وأهلا .

وامسك صلى الله عليه وسلم لا يزيد . وطال الصمت ، وانصرف على تتنازعه الحيرة والقلق ، اذ أنه كان يريد افصاحا اكثر من رسول الله صلى

الله عليه وسلم ، وزاده قلقا هذا الصمت الذى اعقب كلمتى الرسول : « مرحبا وأهلا » .

خرج على ووجد فى انتظاره اخوانه واصحابه يترقبون عودته فسألوه :

ــ ماذا أجابك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

ــ ما ادرى والله شيئا ، تحدثت الى رسول الله فى الأمر ، فما زاد على قوله لى : مرحبا وأهلا .

ــ يكفيك من رسول الله احداهما .

وتركه أصحابه ، وقد عاد اليه الأمل والرجاء بعد أن بشروه . حتى اذا جاء الغد ، توجه الى الرسول مرة ثانية ، ووقف غير بعيد منه ، وقال بصوت يسمعه النبى :

ــ اردت ان اخطب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته ، فقلت : والله مالى من شىء ، ثم ذكرت صلته وعائدته فخطبتها اليه .

وتهلل وجه رســول الله صلى الله عليه وسلم بالبشر وخرج الى ربيبه وابن عمه وقال له :

ــ هل عندك من شىء ؟

ــ كلا .

ــ وأين درعك الحطمية (التى تحطم السيوف)

ــ عندى .

ودفع على بالدرع الى غلامه ليبيعها فانطلق بها الى السوق ، وبينما هو يبيعها باربعمائه درهم اذ رآه عثمان بن عفان فقال :

ــ هذا درع على فارس الاسلام لا يباع ابدا .

فدفع لغلام على أربعمائه درهم وأقسم أن لا يخبره بذلك ورد الدرع معه .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم لأنس بن مالك :

انطلق وادع لى أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وبعــــدتهم من الأنصار .

فانطلق ودعاهم ، فلما اخذوا مجالسهم التفت عليه السلام الى على ابن أبى طالب وقال :

ــ يا على اخطب لنفسك .

فقام على فقال :

ــ الحمد لله شكرا لأنعمه واياديه ، واشهد ان لا اله الا الله شـــهادة تبلغه وترضيه ، وهذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجني ابنته فاطمة على صداق مبلغه اربعمائة درهم ، فاسمعوا ما يقول واشهدوا .

قالوا : ما تقول يا رسول الله ؟

ــ الحمد لله المحمود بنعمته ، المعبـــود بقدرته ، المطاع لسـلطانه ، المهروب اليه من عذابه ، النافذ امره فى ارضه وسمائه ، الذى خلق الخلق بقدرته ونيرهم بأحكامه ، واعزهم بدينه واكرمهم بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

ان الله عز وجل جعل المصاهرة نسبا لاحقا ، وامرا مفترضا ، وحكما عادلا ، وخيرا جامعا ، اوشبح بها الأرحام ، والزمها الأنام ، فقال الله عز وجل : « وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نســبا وصهرا وكان ربك قديرا » . وامر الله يجرى الى قضائه وقضاؤه يجرى الى قدره ولكل اجل كتاب يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب .

ثم ان الله تعالى امرنى ان ازوج فاطمة من على واشهدكم اننى زوجت فاطمة من على على اربعمائة مثقال فضة ان رضى بذلك على السـنة القائمة والفريضة الواجبة ، فجمع الله شملهما وبارك لهما واطاب نسلهما وجعل نسلها مفـاتيح الرحمن ومعـادن الحكمة وامن الأمة . اقول قول هـذا واستغفر الله لى ولكم .

وخر على ساجدا شكرا لله . فلما رفع راسه قال الرسول صـلى الله عليه وسلم :

ــ بارك الله لكما وعليكما واسعد جدكما واخرج منكما الكثير الطيب .

ثم أمر لأصحابه بطبق فيه تمر فوضع بين ايديهم فقال :

ــ انتهبوا .

وجهزت الزهراء وما كان لها جهاز غير سرير مشروط ووسادة من ادم حشوها ليف ونورة من ادم (اناء يغسل فيه) وسقاء ومنخل ومنشفة وقدح ورحاءان وجرتان .

وجاءت ليلة الزفاف فأولم رســول الله صلى الله عليه وسلم عليها بكبش من عند سعد بن معاذ وآصع من ذرة من عند جماعة من الأنصار ، وقال لعلى :

ــ لا تحدث شيئا حتى تلقانى :

فجاءت بها أم ايمن حتى قعدت فى جانب البيت وعلى فى جانب آخر .

وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لفاطمة :

ـ ائتنى بماء

فقامت تعثر فى ثوبها من الحياء فأتته بقعب فيه ماء ، فاخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لها :

ـ تقدمى .

فتقدمت يفوح منها عطر طيب فقد أمر الرسول بلالا ان نشترى طيبا بثلث الصداق ، فنضح على راسها وقال :

ـ اللهم انى عيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم

ثم قال :

ـ ائتونى بماء .

فعلم على الذى يريد فقام وملأ القعب فاتاه به . فاخذه وصنع به كما صنع بفاطمة ودعا له بما دعا لها به ثم قال :

ـ اللهم بارك فيهما وبارك عليهما وبارك لهما فى شملهما .

وتلا المعوذتين ثم قال :

ـ ادخل باهلك باسم والله والبركة .

فلم تملك فاطمة دمعها ، فتمهل الاب برهة ، وحنا عليها مهونا عليها الامر بأنه انما تركها وديعة عند أقوى الناس ايمانا واكثرهم علما وافضلهم أخلاقا واعلاهم نفسا .

***

لم تكن حياة الزهراء فى بيت روجها مترفة ولا ناعمة ، بل كانت أقرب الى أن توصف بالخشونة والفقر . روى على بن أبى طالب رضى الله عنه ، قال :

« بتنا ليله بغير عشاء فاصبحت فخرجت ، ثم رجعت الى فاطمة عليها السلام ، وهى محزونة . فقلت : مالك ؟ فقالت : لم نتعش البارحة ولم نتغد اليوم ، وليس عندنا عشاء ، فخرجت فالتمست فاصبت ما اشتريت طعاما ولحما بدرهم ، ثم أتيتها به فخبزت وطبخت ، فلما فرغت من انتاج القدر . قالت : لو أتيت أبى دعوته . فاتيت رسول الله صلى الله

عليه وسلم . وهو مضطجع فى المسجد ويقول « أعوذ بالله من الجوع » فقلت : بأبى انت وامى يا رسول الله عندنا طعام ، فهلم .. فتوكأ على حتى دخل والقدر تفور . فقال : « اغرفى لعائشة » فغرفت فى صحفة ، ثم قال : اغرفى لحفصة فغرفت فى صحفة حتى غرفت لجميع نسائه التسع ، ثم قال : « اغرفى لأبيك وزوجك فغرفت . فقال « اغرفى فكلى » فغرفت . ثم رفعت القدر وانها لتفيض فأكلنا منها ما شاء الله » .

كانت الزهراء تقاسى من الشظف والفاقة ، حتى ان عليا رضى الله عنه اشفق عليه يوما من اعباء البيت ، فتمنى لو كانت عنده خادمة تحمل شيئا من عبء البيت الثقيل ، فانتهز فرصة مواتية، اذ كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد عاد من احدى غزواته الظافرة بغنائم وسبايا ، وقال لها :

ـ لقد شقوت يا فاطمة حتى اسليت صدرى . وقد جاء الله بسبى ، فاذهبى فالتمسى واحدة تخدمك .

ونحت الزهراء الرحى ، فى وهن وضعف ، ونهضت وهى تقول :

ـ أفعل ان شاء الله .

وانتظرت بعض ساعة فى دارها ، ريثما تسترد قواها الذاهبة ، وقامت فتلفعت بخمارها وخرجت تسعى الى بيت أبيها ، فلما رآها الرسول ، هش وبش لها ، ثم سألها :

ـ ما جاء بك يا بنية ؟

اجابت :

ـ جئت لأسلم عليك .

ومنعها الحياء أن تسأله فيما جاءت من اجله .

عادت فاطمة من حيث اتت لتنبىء زوجها انها استحيت ان تطلب من أبيها شيئا ، فعاد بها على ، وصحبها الى الرسول ، وعرض عنها سؤالها، وهى تستمع مطرقة فى حياء .

اجاب رسول الهدى :

ـ لا والله ، لا اعطيكما وادع اهل الصفة تتلوى بطونهم ، لا ما انفق عليهم ، ولكن أبيع وانفق عليهم من الثمن .

وانصرف على وفاطمة شاكرين ، وما يدريان ان شكواهما مست قلب الأب الحنون وشغلته نهاره كله .

وجاء الليل . وكان البرد قارسا ، فرقدا على فراشهما الخشن يحاولان النوم فلا يجدان اليه سبيلا لفرط ما يشعران به من قسوة البرد ، وبينما هما كذلك يحتالان على النوم اذ برسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل عليهما ، وقد انكمشا فى غطائهما مقرورين اذا غطيا راسيهما بدت اقدامهما ، واذا غطيا اقدامهما انكشفت رءوسهما . فهبا للقاء الضيف الكريم ، لكنه صلى الله عليه وسلم ، ابتدرهما قائلا :

ـ مكانكما .

ثم اضاف فى رفق :

ـ الا اخبركما بخير مما سألتمانى ؟

ـ بلى يا رسول الله .

ـ كلمات علمنيهن جبريل ، تسبحان الله فى دبر كل صلاة عشرا ، وتحمدان عشرا ، وتكبران عشرا . واذا أويتما الى فراشكما تسبحان ثلاثا وثلاثين ، وتكبران ثلاثا وثلاثين .

ثم ودعهما رسول الهدى ، بعد أن مدهما بهذا الغذاء الروحى ، ولقنهما هذه الرياضة النفسية التى تغلب المصاعب ، وتهزم المتاعب .

وقد سمع على بن أبى طالب ، بعد ثلث قرن ، يذكر القصة لبعض أصحابه ، ويقول :

ـ فوالله ما تركتهن منذ علمنيهن .

فسأله رجل من أصحابه :

ـ ولا ليلة صفين .

فأجاب على مؤكدا :

ـ ولا ليلة صفين .

زار الرسول فاطمة يوما وهى تطحن بالرحى ، وعليها كساء من وبر الابل ، فبكى نبى الرحمة اشفاقا بها وقال لها :

ـ تجرعى يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة .

كانت رضى الله عنها تشكو حينا بعد حين ، ويعودها الرسول يواسيها فى مرضها ، وذات يوم زارها ، فوجدها مريضة ، فقال لها :

ـ كيف تجدينك يا بنية ؟

فأجابت بصوت واهن :

— انى لوجعة . وانه ليزيدنى انى مالى طعام اكله .

فاستعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال لها مواسيا :

— يا بنية ، أما ترضين انك سيدة نساء العالمين .

ومضت الايام .. والزهراء سعيدة مع الشظف والفاقة . سعيدة بالعطف فى قلوب كبار ما كان حطام الدنيا عندها ليساوى مثقال ذرة من هباء .

ولم تخل هذه الحياة ، وما خلت حياة انسان قط من ساعات خلاف وساعات شكاية ، فربما شكت الزهراء وربما شكا على . وكان الأب يتولى صلحهما فى كل خلاف .

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم . رئى ذات مساء وهو يسعى الى دار الزهراء ، بادى الهم والضيق ، فأمضى وقتا هناك ثم خرج ووجهه الكريم يفيض بشرا ، فقال قائل من الصحابة :

— يا رسول الله ، دخلت وأنت على حال ، وخرجت ونحن نرى البشر فى وجهك .

فأجاب رسول الهدى :

— وما يمنعنى وقد أصلحت بين أحب اثنين الى .

وحدث مرة ان ضاقت فاطمة بما تجد من شدة زوجها فقالت :

— والله لأشكونك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وخرجت ، وعلى فى أثرها . حتى جاءت أباها فشكت اليه ما انكرت من زوجها . فتلطف الأب الأكبر فى ترضيتها وحملها على الرفق بعلى واحتماله .

قال على وهو يصحب زوجته الى بيتهما :

— والله لا آتى شيئا تكرهينه أبدا .

ولكن حدث فى حياة الزهراء حادث كاد أن يكون ذا بال . ولم يكن على يظن أنه يقدم به على أمر يغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم . انما كان يعتقد انه يستعمل حقا خوله اياه الاسلام ، فى أن يتزوج من النساء ما يشاء مثنى وثلاث ورباع .

فقد خطب على بن أبى طالب بنت أبى جهل الى عمها الحارث بن هشام ابن المغيرة ، أو خطبت هى اليه ، وتوجه بنو هشام الى رسول الله ، وتوجه على ايضا الى رسول الله ليقص عليه أمر هذه الخطبة ، ويستشيره الرأى فيها ، فسأله الرسول :

ـ اعن حسبها تسألنى ؟

اجابه على :

ـ لا ، ولكن أتأمرنى بها ؟

فأجابه الرسول :

ـ لا . فاطمة بضعة منى ، ولا احسب الا انها تحزن او تجزع .

فما كان من على رضى الله عنه الا ان قال :

ـ لا آتى شيئا تكرهه .

وكان خبر الخطبة قد ترامى الى سمع الزهراء ، فذهبت غاضبة الى الرسول صلى الله عليه وسلم وقالت له :

ـ يزعم قومك ، أنك لا تغضب لبناتك ! وهذا على ناكح بنت أبى جهل!

كان الموقف يحتاج الى بيان وجلاء ، لم رفض الرسول ، فصعد صلى الله عليه وسلم المنبر وقال حين تشهد :

ـ أما بعد فانى انكحت أبا العاص بن الربيع ، فحدثنى وصدقنى . وان فاطمة بضعة منى ، وانى اكره ان يسوءها ، والله لا تجتمع بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنت عدو الله عند رجل واحد .

أراد الرسول أن يبين انه بتصرفه لا يحرم حلالا ولا يحل حراما فاستطرد :

ـ وانى لست أحرم حلالا ، ولا أحل حراما ، ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنت عدو الله .

واوضح عليه السلام امر خطبة على لبنت أبى جهل ، وان اقدامه على مثل هذا الزواج ليس أمرا هينا ، فقال :

ـ ان بنى هشام استاذنونى فى ان ينكحوا ابنتهم عليا بن ابى طالب فلا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن . الا أن يريد ابن أبى طالب ان يطلق ابنتى وينكح ابنتهم ، فانما هى بضعة منى يريبنى ما ارابها ، ويؤذينى ما آذاها.

سمع على كرم الله وجهه كلمات رسول الهدى ، فثاب الى الحقيقة التى كانت غائبة عنه . كيف اقدم على أن يروع أمن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يجمع بينها وبين عدو الله فى بيت واحد !!

ورجع على عن الخطبة ، واخذ طريقه الى البيت بخطوات وئيدة ودخل على الزهراء فوجدها وحيدة ، تذرف دموع الحزن ، فدنا منها ، واخذ يعتذر لها مسترضيا :

ـ هبينى اخطات فى حقك يا فاطمة ، فمثلك اهل للعفو والمغفرة .

فأجابت الزهراء :

ـ غفر الله لك يا ابن العم .

واغرورقت مقلتا الزهراء بالدموع تأثرا بحب أبيها . وانفعالا بموقفه. ثم قامت للصلاة .

عاد الى البيت صافيا كما كان قبل ان يمر بتلك التجربة المريرة . ومضت الحياة تسير بالزوجين الكريمين على ما يراجوان من تعاون ومودة . فاطمة فى الدار تقوم على خدمة زوجها بقدر ما تتحمل وتطيق ، وعلى الى جانبها يبذل لها من الحدب والرعاية ما يعينها على مشقة العيش الكادح .

وقد آثر الله جل جلاله فاطمة الزهراء بما لم يؤثر به شقيقاتها الثلاث : زينب ورقية ، وام كلثوم . فكتب لها أن تكون وحدها الوعاء الطاهر السلالة الطاهرة والمنبت الطيب لدوحة الاشراف من اهل البيت .

ابناء فاطمة الزهراء

كان الرســول صلى الله عليــه وسلم بعد ان ماتت بنوه ولم يبق منهم الا فاطمة ، يريد أن يرى أبناءها وفلذة كبدها يدبون على الأرض فيملئون قلبه سعادة وغبطة .

وكان الله جلت قدرته يعلم بحب الرسول بنبيه وبره بأهــله وذويه ، فأكرمه جلت قدرته ايما أكرام ، فأنزل هذه الآية الكريمة على النبى صلى الله عليــه وسلم :

« انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » .

فدعا الرسول فاطمة وحسنا وحسينا فجللهم بكســـاء وعلى بن أبى طالب خلف ظهره ، وقال : هؤلاء أهل بيتى ، فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، فقالت ام سلمة ، زوجة الرسول : وانا معهم يا رسول الله ؟

قال : أنت على مكانك ، انت الى خير .

وعن ابى الحمراء قال : رابطت المدينة سبعة اشهر على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، قال رأيت النبى صلى الله عليه وسلم اذا طلع الفجر جاء الى باب على وفاطمة فقــال : « الصلاة الصلاة » . « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » .

وقال تعالى : « قل لا أسالكم عليه أجرا الا المودة فى القربى » .

قال ابن عباس : لم يكن بطن من بطون قريش الا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهم قرابة فلما كذبوه وأبوا أن يبايعوه ، قال : « يا قوم اذا ابيتم ان تبايعونى فاحفظوا قرابتى فيــكم ، لا يكن غيركم من العــرب أولى بحفظى ونصرتى منكم » .

احب الرسول ابناء فاطمة الزهراء ، وكان حبه لهم مضرب الأمثال فى بر الآباء بالأبناء وتواضع الانبياء والمرســلين صلوات الله عليهم . فقد روى عن أسامة بن زيد انه قال : طرقت باب النبى صلى الله عليــه وسلم ذات ليلة فى بعض الحاجة ، فخرج الى وهو مشتمل على شىء لا ادرى ما هو . فلما فرغت من حاجتى قلت : ما هذا الذى انت مشتمل عليــه ؟ فكشف

فاذا الحسن على وركه فقال : هـذا ابنى وابن ابنتى ، اللهم انى احبـه فأحببه واحبب من يحبهما .

وروى عن ابن عبـاس قال . كان الرسول حاملا الحسن على عاتقـه فقال رجل :

ـ نعم المركب ركبت يا غلام

فقال النبى : ونعم الراكب

وحـدث أن الرسول كان بالمسجـد يخطب المسلمين ، فاذا الحسن فى قميص أحمر يمشى ويعثر فقطع الرسول الخطبة ونزل من المنبر وحمله ووضعه بين يديه ثم قال :

ـ صدق الله انما اموالكم واولادكم فتنـة . نظرت الى هـذا الصبى يمشى ويعثر ، فلم اصبر حتى قطعت حديثى ورفعته .

روى الزبير بن العوام ان الحسن جاء الى الرسول وهو ساجد فركب رقبته ، فلم ينزله حتى كان هو الذى نزل . كما قال : لقد رايته يجىء وهو راكع ، فيفرج له بين رجليه حتى يخرج من الجانب الآخر .

حدث حاتم بن اسماعيل عن معاوية بن ابى مزرد عن ابيـه عن أبى هريره قال : سمعت اذناى هاتان ، وابصرت عينـاى هاتان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بكف الحسن وقدماه على قدم الرسـول وهو يقول : حزقة حزقة . ترق عين بقـة ، فيرقى الغـلام حتى يضع قدميه على صدر الرسول ، ثم يقول له : افتح ، ثم يقبله .

ويقول : اللهم أحبه فانى احبه .

ومن آيات حب الرسول للحسن ما روى عن أن عليا وفاطمة دخـلا على الرسـول ومعهما الحسن والحسين ، فوضعهما فى حجره ، فقبلهما واعتنق عليـا باحدى يديه وفاطمة بالأخرى ، فجعل عليهما خميصـة سوداء ، وقال :

ـ اللهم اليك لا الى النـار .

احب الرسول الحسين كما احب الحسن سواء بسواء ، فقـد روى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : حسين منى وانا من حسين ، احب الله من احب حسينا ، وحسين سبط من الاسباط .

كما روى عنه انه قال : « الحسن والحسين ريحانتاى من الدنيا » .

وقد ضرب صلى الله عليه وسلم أكرم الأمثال فى رحمة الأبوة وبرها وحدبها ، ومن دلائل بره عليه افضل الصلاة والسلام ببنيه ، ان الحسن والحسين كانا يصطرعان بين يديه وهو يقول : هى حسن . فقالت فاطمة : لم تقول هى حسن ؟ قال : ان جبريل يقول : هى حسين .

ذهب الى ابناء فاطمة الزهراء كل ما فى فؤاد الرسول عليه السلام من محبة البنين ، وهو مشوق الفؤاد الى الذرية من نسله ، فكان عليه السلام لا يطيق آذاهم ، ولا يحب ان يستمع الى بكاء احد منهم فى طفولتهم ، على كثرة ما يبكى الأطفال الصغار ، خرج من بيت عائشة رضى الله عنها فمر على بيت الزهراء فسمع حسينا يبكى فقال : الم تعلمى أن بكاءه يؤذينى ؟

وكان يقول لها : ادعى الى ابنى . فيشمهما ويضمهما اليه ، ولا يبرح حتى يضحكهما ويتركهما ضاحكين .

كتب المصطفى عليه السلام الى ابى الحارث اسقف نجران ، وما ان فض الأسقف الكتاب ، حتى قال لغلامه :

ــ ادع لى الساعة شرحبيل .

وكان شرحبيل هذا خازن أسراره . وموضع مشورته ، وذهب الغلام ، وعاد معه شرحبيل ، فقال له :

ــ جاءنى اليوم كتاب من محمد بن عبد الله ، يدعونى فيه لدين يسمى الاسلام ، ثم يخيرنى ان ابيت بين الجزية أو الحرب .

فقال شرحبيل :

ــ لست فى هذا يا مولاى بصاحب راى على اننى قد علمت ما وعد الله به من النبوة فى ذرية اسماعيل ، فما تؤمن ان يكون هذا هو ذاك ولكننى تلت ليس لى فى النبوة راى .

واستشار أبو الحارث ثانيا وثالثا ، فما زادوا عن راى صاحبهم شيئا ، فامر ان تدق النواقيس ، وان توقد النيران ، وجـ . النـاس ،

وعرض عليهم أمر كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانتهوا الى ان يذهب وفد يحاجون الرسول ويجادلونه ، ثم يرجعوا بما يرون . ومشى وفد نجران الى المدينة ، يراسهم شرحبيل زعيمهم وصاحب كلمتهم ، فما ان راى رسول الهدى حتى قال له .

ــ يا محمد ، لقد علمت أنا نصارى ، ويسرنا ان كنت نبيا ان نسمع ما تقول فى عيسى .

فقال صلى الله عليه وسلم .

ــ ما عندى فيه شيء يومى هذا ، فاقيموا حتى اخبركم بما يقول الله فى عيسى .

ولما أصبح الغد ، نزل عليه قول الله عز وجل :

« ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين . فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم . فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » .

نزلت هذه الآية الكريمة ، فخرج المصطفى عليه السلام ، ومعه أحب الناس اليه : على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وفاطمة الزهراء والحسن والحسين ودعا وفد نجران ، وردد عليهم ما نزل فى أمر عيسى عليه السلام . ثم دعاهم الى المباهلة ان أبو الاستجابة لدعوته ونظر شرحبيل الى آل البيت النبوى ، فوجدهم يفيضون بالنور والتقوى والصلاح سيماهم فى وجوههم ، فهابهم القوم . وخافوا ان يباهلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال شرحبيل :

ــ دعونا نشتور فيما بيننا ، ثم نفضى اليك بما ينتهى اليه رأينا .

ورجع شرحبيل وقال لأصحابه :

ــ يا معشر النصارى ، لا تباهلوا محمدا ، فتهلكوا . فاننى ارى معه وجوها لو سالوا الله أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله .

ورفض القوم أن يباهلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورجع اليه شرحبيل وقال له :

ـ لن نباهلك ، بل نصطلح على ما تريد .

فعرض صلى الله عليه وسلم عليهم الاسلام فامتنعوا ، فعـرض عليهم الحرب فقـالوا :

ـ مالنا طاقة . فعرض عليهم الجزية . فقالوا : لك ما تريد .

ورجع الوفد الى نجـــران ، والمصطفى صلى الله عليـــه وسلم يقول لأصحـــابه :

ـ والذى بعثنى بالحق لو تباهلوا لأمطر الوادى عليهم نارا .

كانت الزهراء وأبناؤها واهل بيت الرسول ، يفيضون بالنور والايمان ، فهم مصابيح الهدى ، شجرة النبوة ، ومهبط الرسالة ، ومنبع الرحمة ، ومعدن العلم ، يهابهم أعداؤهم ، ويحبهم أنصارهم ، وأحباؤهم . ان هيبة بيت النبوة تعلو وجوههم ، فخشيها وفد نجران ، فأبوا المباهلة والملاعنة وفضلوا أن يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

الحسن بن على

ريحانة الرسول

الحسن بن على ، ريحانة الرسول ، ولد فى النصف من شهر رمضان بالمدينة المنورة ، سنة ثلاث من الهجرة .

قالت أم الفضل : يا رسول الله رأيت كأن عضوا من أعضائك فى بيتى .

قال : رأيت خيرا ، تلد فاطمة غلاما فترضعيه بلبن قثم . فولدت الحسن فأرضعته بلبن قثم (ابنها) .

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه :

« لما ولد الحسن جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أرونى ابنى ما سميتموه ؟ قلت سميته « حربا » قال : بل هو « حسن » فلما ولد الحسين سميناه حربا ، قال بل هو « حسين » فلما ولد الثالث ، جاء النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أرونى ابنى ما سميتموه ؟ قلت : سميته حربا ، قال : هو محسن .

قال ابو احمد العسكرى : سماه النبى صلى الله عليه وسلم الحسن وكناه « أبا محمد » ولم يكن يعرف هذا الاسم فى الجاهلية .

وبلغ من فرح الرسول بمولد هذا الطفل الميمون ان امر بحلق راسه ، وان يتصدق بزنة شعره فضه ، كما أمر بنحر كبشين وزعت لحومهما على الفقراء .

وولد الحسن فى هذه البيئة الطاهرة العامرة بالتقوى والايمان ، وفى هذا البيت المتواضع الذى أسس على الفضيلة وخشية الله تعالى ، فكأن عينيه قد تفتحا على اكرم المشاهد وأعزها عند المسلمين عامة .

وما كاد الحسن يشب عن الطوق حتى أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يعلمه مما علمه الله ، وينشئه على خير ما تنشأ الأولاد . روى عن الحسن أنه قال : « علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات أقولهن فى الوتر : اللهم اهدنى فيمن هديت ، وعافنى فيمن عافيت . وتولنى فيمن توليت ،

وبارك لى فيما اعطيت ، وقنى شر ما قضيت ، فانك تقضى ولا يقضى عليك وانه لا يذل من واليت ، تباركت ربنا وتعاليت » .

وقد اخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يبث فى قلب الحسن الغض حب الحق والعدل والايثار ، وينفخ فى روح الصبى القناعة والرضى . فقد روى عن الحسن انه قال : اذكر من رسول الله إنى اخذت تمرة من تمر الصدقة فتركتها فى فمى فنزعها بلعابها ، وجعلها فى تمر الصدقة . فقيل : يارسول الله ، ما كان عليك من هذه التمرة ؟

قال : انا آل محمد لا تحل لنا الصدقة .

وكان يقول : دع ما يريبك الى مالا يريبك . فان الكذب ريبة والصدق طمأنينة .

إختار الرسول صلى الله عليه وسلم الرفيق الاعلى والحسن لم يجاوز الثامنة من عمره ، ولكنه رغم هذه السن الغضة ، وعى الشىء الكثير وتأدب بآداب الرسول الكريم وتخلق بأخلاقه .

ثم بويع ابو بكر الصديق بالخلافة وكان الحسن ما زال ربيعة الصبا ، ولم يذكر التاريخ شيئا عن حياته فى عهد ابى بكر ولا فى عهد عمر بن الخطاب ، وان كنا نعتقد انه كان ينشأ كما ينشأ فتية الصحابة وابناؤهم : يحفظ القرآن ، ويروى الحديث ويتادب بآداب السنة الشريفة .

فلما آلت الخلافة الى عثمان بن عفان . كان الحسن قد بلغ العشرين ، اكتملت رجولته ، وبلغ فى الأدب وسمو الخلق الغاية ، واشرف فى العلم على النهاية ، فلما هم عثمان بفتح طبرستان اعد لذلك جيشا بقيادة سعيد ابن العاص ، فانخرط الحسن فى سلكه ومعه جلة الصحابة رضوان الله عليهم : عبد الله بن العباس ، وعمرو بن العاص ، والزبير بن العوام ، لانه احب ان ينال ثواب الغزو فى سبيل الله واجر السعى لاعلاء كلمة الحق . وقد اضطر ملك جرجان الى طلب الصلح من سعيد بن العاص ، وعاد الجيش ظافرا ، وآب الحسن الى المدينة يحيا حياته الأولى ، من اقبال على القرآن والحديث والتفقه فيهما .

ثم امتحن المسلمون بفتنة عثمان وحوصر فى داره بالمدينة ، فبعث على بن ابى طالب رضى الله عنه بالحسن الى دار عثمان ليحميه ويشترك مع شباب قريش فى الدفاع عنه . ولكن عثمان قتل واجتاحت الفتنة العالم الاسلامى ،

وبويع على بالخلافة وانتقل الى الكوفة . ولا شك أن الحسن والحسين قد رحلا الى هذه المدينة ليكونا بجوار ابيهما .

لم تصرف الخلافة وابهتها عليا بن أبى طالب عن اخذ الناس بالسوية ، لا فرق فى ذلك بين قريب او بعيد . فقد كان لا يعطى ولديه الحسن والحسين اكثر من حقهما ، فكانا يعيشان فى الكوفة عيشة الزاهد المتقشف بعدا عن الدنيا ، وايثارا للآخرة وثوابها .

يقول ابن عبد البر فى « الاستيعاب » :

« كان على اذا ورد عليه مال لم يبق منه شيئا الا قسمه ، ولا يترك فى بيت المال منه الا ما يعجز عن قسمته فى يومه ذلك . ولم يكن يستأثر من الفىء بشىء ولا يخص به حميما ولا قريبا ولا يخص بالولايات الا أهل الديانات والأمانات » .

فلما قتل على بن أبى طالب رضى الله عنه لثلاث عشرة بقيت من رمضان سنة ٤٠ للهجرة بايعه أهل العراق ، وبقى نحو نحو سبعة اشهر خليفة للعراق وما يليه من خراسان والحجاز واليمن وغيرها . لم تثبت خلافة الحسن أمام قوة معاوية بن أبى سفيان . فآثر أن يتنازل عن الخلافة حقنا لدماء المسلمين . وكان يقول : ما احببت أن الى أمر أمة محمد على أن يهراق فى ذلك محجمة دم .

روى عن الحسن أنه قال لعبد الله بن جعفر رضى الله عنهما :

– انى رأيت رأيا احب أن تتابعنى عليه .

– ما هو ؟

– رأيت أن اعمد الى المدينة فانزلها واخلى الأمر لمعاوية ، فقد طالت الفتنة ، وسفكت الدماء ، وقطعت السبل .

– جزاك الله خيرا عن أمة محمد .

وقد خطب الحسن فى وفود أهل العراق فقال :

« انكم بايعتمونى على أن تسالموا من سالمنى وتحاربوا من حاربنى . وانى قد بايعت معاوية فاسمعوا واطيعوا !! » .

أصبح معاوية صاحب السلطان المطلق فى العالم الاسلامى كله ، وقد أثر عن الحسن أنه قال يوم دخل معاوية الكوفة فى شهر ربيع الثانى سنة ٤١ هـ :

« الا ان اكيس الكيس التقى وان اعجز العجز الفجـور . وان هـــذا الأمر الذى اختلفت انا ومعـــاوية فيه ، اما ان يكون أحق به منى واما أن يكون حقى تركته الله عز وجل لاصـــلاح أمة محمد وحقن دمائكم » . ثم التفت الى معـاوية وقال :

ــ « وان ادرى لعله فتنة لكم متاع الى حين » .

كان الحسن ورعا ، ذا سكينة ووقار وحشمة ، يكره الفتن واراقة الدماء ، ما سمعت منه كلمة فحش قط .

دعاه ورعه وفضله الى ترك الملك والدنيا رغبة فيما عند الله تعالى ، وكان لا يحج الا ماشيا ، وكان يقول :

ــ انى لأستحى من ربى أن القاه ولم أمش الى بيته .

وكان جوادا تقيا يصوم النهار ويقوم الليل .

وقد وصفه محمد بن الحنفية وصفا دقيقا فقال :

ــ « أنت عقبـة الهـــدى ، وخلف أهل التقوى ، وخامس أصحاب الكساء ، غذتك بالتقوى أكف الحق ، وارضعتك ثدى الايمان ، وربيت فى حجر الاســلام » .

ورث الحسن والحسين عن جدهما وابيهما فصاحة اللسان ، وقـوة الجنان وحضور البديهة والحلم والكرم .

ساله رجل صدقة ولم يكن عنده ما يسد به رمقـه فاستحى أن يرده فقال : الا ادلك على شىء يحصل لك منه بر ؟ قال : بلى ، فما هو ؟ قال : اذهب الى الخليفة فان ابنته توفيت وانقطـع عليهـا وما سـمع من احد تعزية . فعزه بقولك له : « الحمد لله الذى سـترها بجلوسك على قبرها ولا هتكها بجلوسها على قبرك » ، فذهب الرجل وفعل ما قال له : فذهب عن الخليفة حزنه وامر له بجائزة وقال له : أكلامك هذا ؟ قال : لا . بل كلام فـلان .

قال : صدقت فانه معدن الكلام الفصيح ، وامر له بجائزة اخرى .

ان من يلوذ باهل البيت ، لا يرد خائبا بل ينال ما يريد وفوق ما يريد ، فانهم منبع الكرم والجود والاحسان . قد كان فى اســتطاعة الحسن أن يعتذر لمن ساله بانه ليس لديه شىء يعطيه ويكون عذره وتنشـــد مقبولا ،

ولكنه التمس له طريقة يفرج بها كرب السائل فاشار عليه بما تقدم فنال الخير الكثير .

خرج الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر ، رضي الله عنهم حجاجا . فلما كانوا ببعض الطريق جاعوا وعطشوا وقد فاتتهم اثقالهم ، فنظروا الى خباء فقصدوه فاذا فيه عجوز ، فقالوا : هل من شراب ! فقالت نعم . فاناخوا بها وليس عندها الا شويهة . فقالت : احلبوها واشربوا لبنهما ، ففعلوا ذلك . فقالوا لها : هل من طعام ؟ قالت : هذه الشويهة ما عندى غيرها ، فانا اقسم عليكم بالله الا ما ذبحها احدكم حتى اهيىء لكم الحطب فاشووها وكلوا . ففعلوا ذلك . واقاموا عندها حتى ابردوا . فلما ارتحلوا من عندها ، قالوا لها : يا هذه ، نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه فاذا رجعنا سالمين ، فالمي بنا فانا صانعون بك خيرا ان شاء الله تعالى . ثم ارتحلوا . واقبل زوجها فاخبرته الخبر فغضب وقال : ويحك أتذبحين شاتنا لقوم لا نعرفهم ثم تقولين نفر من قريش !

ثم بعد دهر طويل اصابت المراة وزوجها السنة فاضطرتهم الحاجة الى دخول المدينة فدخلا يلتقطان البعر فمرت العجوز فى بعض سكك المدينة ومعها مكتلها تلتقط فيه البعر ، والحسن رضى الله عنه جالس على باب داره ، فنظر اليها فعرفها فناداها وقال لها : يا امة الله . هل تعرفينني ؟ فقالت : لا . فقال : انا احد ضيوفك يوم كذا ، سنة كذا فى المنزل الفلانى .

فقالت : بأبى انت وامى ، لست اعرفك !

قال : فان لم تعرفينى ، فانا اعرفك . فأمر غلامه فاشترى لها من غنم الصدقة الف شاة واعطاها الف دينار وبعث بها مع غلامه الى اخيه الحسين رضى الله عنه . فلما دخل بها الغلام على اخيه الحسين عرفها . وقال : بكم وصلها اخى الحسن ؟ فاخبره فأمر لها بمثل ذلك . ثم بعث بها مع الغلام الى عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما . فقال : والله لو بدات بى لاتعبتهما وامر لها بالفى شاة والفى دينار . فرجعت وهى اغنى الناس .

كان الحسن رضى الله عنه حاد الذكاء حاضر البديهة ، قوى الحجة ، معدن الفهم ، وينبوع العلم ، اغتسل رضى الله عنه وخرج من داره فى بعض الايام وعليه حلة فاخرة ووفرة ظاهرة ومحاسن سافرة فعرض له فى طريقه شخص من فقراء اليهود وعليه مسح من جلود ، قد انهكته العلة ،

وركبته القلة والذلة ، وشمس الظهيرة قد شوت شـــواء وهو حامل جـرة ماء على قنـاه .

فاستوقف الحسن رضى الله عنه ، وقال :

ـ يا ابن رسول الله ، سؤال ؟

قال : ما هــو ؟

قال : جدك يقول : « الدنيا سجن المؤمن وجنـــة الكافر » . وانت مؤمن وانا كافر . فما ارى الدنيا الا جنة لك تنعم بهـــا ، وما اراها الا سجنا على قد اهلكنى ضيرها واجهدنى فقرها .

قال الحسن : يا هذا ، لو نظرت الى ما اعد الله لى فى الآخرة لعلمت انى فى هذه الحالة بالنسبة الى تلك سجن . ولو نظرت الى ما اعد الله لك فى الآخرة من العذاب الأليم لرايت انك الآن فى جنة واسعة » .

عرف اليهود منذ زمن الرسول صلى الله عليه وسلم بالدس وصنع الأكاذيب والترهات وتشكيك المسلمين فى عقائدهم وقد حاربهم الرســول فى المدينة واجلاهم عنها لخيانتهم ونقضهم العهود والمواثيق . وقد أسلم بعضهم عن عقيدة صحيحة لكن بقى اكثرهم حانقا على المسلمين . وكان راس المنافقين عبـد الله بن ابى ســـلول الذى راح يبث الفتنـة ، ويدبر المؤامرات ضد الرسول والذين آمنوا معه ، وعبد الله بن ســبأ الذى صار يتنقل فى البلدان وينشر الدعاية ضد عثمان بن عفان رضى الله عنــه ويحض على الثــورة .

وفى هذه القصة التى ذكرناها نجد أن هـــذا اليهودى يعترض على الحسن لما رآه يرتدى ملابس فاخرة ويذكر له حديث الرسول صلى الله عليه وسلم « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » . فكيف يتنعم الحسن فى الدنيا وهو مؤمن ويشقى اليهودى وهو كافر ؟ ولمــاذا لا يكون حالهمـــا بالعكس اذا كان حديث رسول الله صادقا ؟ سؤال يريد به احراج الحسن من جهـة وتشكيكه فى حديث الرسول من جهة أخرى . لكن الحسن رضى الله عنــه كان حاضر البديهة . فأجاب بجواب مقنع مفحم حيث أوضح له أن حالتــه التى يشكو منها انما هى كالجنـــة بالنســـبة الى عذاب الآخرة الذى أعد للكافرين وان حالة الحسن التى ظنها نعيما انما هى كالسجن بالنســبة الى نعيم الجنة الذى عد للمتقين .

توفى الحسن سنة تسع واربعين ، وقيل سنة خمسين ، وقيل انه مات مسموما . دخل الحسين على الحسن رضى الله عنهما فى مرضه فقال :

ـ يا أخى انى سقيت السم ثلاث مرات . فلم أسق مثل هذه المرة ، انى لفظت كبدى .

قال الحسين . من سقاك يا أخى ؟

ـ ما سؤالك عن هذا ؟ تريد أن تقاتلهم ، كلهم الى الله .

وقد اختلف المؤرخون فى سبب موت الحسن ، فزعم قوم أنه زج ظهر قدمه فى الطواف بزج مسموم ، وقال آخرون . ان معاوية دس الى جعدة بنت الاشعث بن قيس أن تسم الحسن ويزوجها يزيد ، فسمته وقتلته . فقال لها معاوية : ان يزيد منا بمكان ، وقد يصلح له من لا يصلح لابن رسول الله ! وعوضها عنه مائة الف درهم .

ولما حضرت الحسن الوفاة قال لأخيه الحسين :

ـ قد كنت طلبت الى عائشة اذا مت أن تأذن لى فادفن فى بيتها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فاطلب ذلك اليها . فان طابت نفسها فأدفنى فى بيتها . وما اظن الا القوم سيمنعونك اذا اردت ذلك . فان فعلوا فلا تراجعهم فى ذلك وادفنى فى بقيع الفرقد .

فلما مات الحسن اتى الحسين عائشة رضى الله عنها فطلب ذلك اليها فقالت : نعم وكرامة فبلغ مروان فقال : والله لا يدفن هناك ابدا ، منعوا عثمان من دفنه فى المقبرة ويريدون دفن الحسن فى بيت عائشة ، فبلغ ذلك الحسين فدخل هو ومن معه فى السلاح وتسلح بنو امية ايضا ، وكادت الفتنة أن تقع بين بنى هاشم وبنى امية ، لولا كلمة من عبد الله بن جعفر لابن عمه الحسين ، قال :

ـ عزمت عليك بحقى الا تكلم بكلمة .

ومضى بابن عمه الحسين الى البقيع حيث ثوت امه السيدة فاطمة الزهراء .

حدث ثعلبة بن ابى مالك قال :

ـ شهدت الحسن يوم مات ودفن فى البقيع ، فلقد رايت البقيع ، ولو طرحت فيه ابرة ما وقعت الا على راس انسان .

عاش الحسن بن على زاهدا ، ومات زاهدا ، طيب الله ثراه وجعل الجنة مثواه .

الحسين بن علي

سبط الرسول

الحسين بن علي بن أبي طالب ، يكنى أبا عبد الله سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وريحانته ولد بالمدينة المنورة ، لخمس خلون من شهر شعبان سنة أربع من الهجرة . وقد أمر الرسول بأن يتصدق بزنة شعره فضة ، كما امر بنحر كبشين وزعت لحومها على الفقراء .

ولقب بألقاب أشهرها : الزكي . الرشيد . الطيب . الوفي . السيد . المبارك . والتابع لمرضاة الله والسبط .

وكانت امه فاطمة الزهراء ترقصه وتقول :

ان بني شبه النبي   ليس شبيها بعلي

وكان الحسن رضي الله عنه شبه برسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين الصدر الى الراس ، والحسين اشبه به صلى الله عليه وسلم من الصدر الى ما سفل منه . وكان ربعة ليس بالطويل ولا بالقصير ، واسع الجبين . كث اللحية ، واسع الصدر ، عظيم المنكبين ، ضخم العظام ، رحب الكفين ، والقدمين ، رجل الشعر ، متماسك البدن ، أبيض مشربا بحمرة ، حسن الصوت .

شب الحسين في بيئة زكية كما شب اخوه الحسن ، كانا صنوين في الخير والفضل ووفرة الايمان ، وقد رضعا من لبان التقى وربيا في كنف الهداية والايمان .

نشأ الحسين كما نشأ الحسن في حجر النبوه الطاهرة ، تتفتح اكمامه على نور الهداية ، وتكتحل عيناه بمشهد اكرم الخلق ، يلتقط منه ما يسمع من حديث افوح من المسك ، واندى من الندى ، غذته الزهراء ونشأه على ورعاه المصطفى عليه السلام . فما كاد ينطق حتى اخذ يتعلم الادب ، وحفظ القرآن والصلاة والصوم . يحضر مجالس الصحابة ويدب في مهابط الوحي ، ترمقه العيون ، وتتبعه الأحداق في اعجاب وحب وإعزاز .

قبض الرسول صلى الله عليه وسلم والحسين لم يزل صبيا لم يشب عن الطوق .. وبويع أبو بكر الصديق وهو لم يزل غض الاهاب ، ثم ماتت

امه فاطمة الزهراء ، فذاق مرارة اليتم ، ولكن بر ابيه وحدبه عليه ورعايته اياه قد انساه ما يعانيه من حزن عميق .

ولما ولى عمر بن الخطاب امر الخلافة لم يكن الحسين قد بلغ الحلم بعد ، فلما بويع عثمان بن عفان كان قد جاوز العشرين من العمر ، فاضحى فتى فى حكمة الشيوخ يافعا فى زهد النساك وتعبدهم ، عالما فى وقار العلماء، أخذ من العلم بقسط وافر واغترف مناهل الفضائل ومكارم الاخلاق . فلما دعا الداعى الى الجهاد فى سبيل الله ، لم يتردد ، بل كان فى طليعة الذين سارعوا خفافا غير ثقال للاشتراك فى الجيش الذى سار لفتح طبرستان بقيادة سعيد بن العاص .

ولم يركن الحسين الى الدعة والترف ولم يأخذ نفسه بما يأخذ به الشبان انفسهم من لهو او ايثار عافية ، بل سارع الى القتال غير هياب ولا وجل .

وعندما حاصر الثوار عثمان بن عفان فى داره بالمدينة ، هب على بن ابى طالب يدافع عنه ، فأرسل ابنيه الحسن والحسين يذودان عنه العدوان ، ولكنهما لم يستطيعا لارادة الله تعالى دفعا فقد اغتيل عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وبويع على بن ابى طالب كرم الله وجهه وانتقل الى الكوفة فانتقل معه ولداه الحسن والحسين . وقد شهد الحسين مع ابيه موقعة الجمل ، وحارب معه يوم صفين ، واسهم فى قتال الخوارج .

ولما قتل على بن ابى طالب رضى الله عنه واخذت البيعة للحسن ، كان الحسين فى طليعة من بايعه وايده وشد ازره ونصره ، فلما نزل الحسن لمعاوية عن الخلافة وآثر العافية لم يوافقه الحسين واشار عليه بالقتال ، فغضب الحسن وقال له : والله لقد هممت ان اسجنك فى بيت واطين عليك بابه ، حتى اقضى بشأنى هذا وافرغ منه ثم اخرجك . فلم يراجعه الحسين بعدها وآثر الطاعة والسكوت ، وهذا مثل كريم يضربه الحسين فى آداب الأسرة .

لما توفى معاوية سنة ٦٠ هـ كان على المدينة الوليد بن عتبة بن ابى سفيان فكتب يزيد بن معاوية الى الوليد « من يزيد امير المؤمنين الى الوليد ابن عتبة ، اما بعد ، فان معاوية كان عبدا من عباد الله اكرمه الله واستخلفه وخوله ومكن له فعاش بقدر ومات بأجل ، فرحمه الله فقد عاش محمودا ومات برا تقيا والسلام ..

ثم اضاف : اما بعد فخذ حسينا وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذا شديدا ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام » .

فلما قرا الوليد للحسين الكتاب ونعى اليه معاوية ، قال الحسين : انا لله واليه راجعون ورحم الله معاوية ، أما البيعة فان مثلي لا يعطى بيعته سرا ولا اراك تقنع بها مني سرا .

قال : اجل .

فقال الحسين : فاذا خرجت الى الناس فدعوتهم الى البيعة دعوتنا معهم فكان الأمر واحدا ..

وكان الحسين رضى الله عنه قد عول على ترك المدينة الى مكة ، كما تركها قبله بليلتين عبد الله بن الزبير ، دون مبايعة يزيد ، فخرج منها ومعه جل أهل بيته واخوته وبنو اخيه . فلما بلغ اهل الكوفة وفاة معاوية وعلموا امتناع الحسين عن بيعة يزيد ونزوله مكة اجتمعت الشيعة وكتبوا اليه كتبا جاء فيها :

« انه ليس علينا امام فاقبل لعل الله ان يجمعنا بك على الحق . ثم سرحوا عدة رسل بالكتب اليه ، وتلاقت الرسل كلها عند الحسين فكان يقرا الكتب ويسال الرسل عن الناس . ولبث في مكة على هذه الحال اربعة اشهر . ثم دعا ابن عمه مسلم بن عقيل بن ابي طالب وامره بالمسيرة الى الكوفة فان راى الناس مجتمعين مستوثقين عجل اليه بذلك . .

خرج مسلم حتى اتى المدينة ، فاخذ منها دليلين ، فمرا في البرية ، فاصابهم عطش ، فمات احد الدليلين ، فقدم الكوفة ، ونزل على رجل يقال له « عوسجة » فلما علم أهل الكوفة بقدومه دنوا اليه ، فبايعه منهم اثنا عشر الفا على ذلك ، فقام رجل من انصار يزيد بن معاوية الى النعمان بن بشير والي الكوفة فقال :

ـ انك رجل ضعيف او مستضعف ، قد فسد البلد .

فقال له النعمان :

ـ لان اكون ضعيفا في طاعة الله أحب الي من أن اكون قويا في معصيته . ما كنت لاهتك سترا ستره الله .

وعزل يزيد النعمان وولى عبيد الله بن زياد مكانه .

لم يعتبر الحسين بما فعله أهل الكوفة مع أبيه وأخيه من قبل ، اذ عزم على الخروج الى العراق ولما رأى عبد الله بن العباس اصرار الحسين على الخروج قال له :

أتسير الى قوم قد قتلوا اميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم ؟ فان كانوا قد فعلوا ذلك فسر اليهم ؟ وان كانوا انما دعـــوك اليهم وامير عليهم قاص لهم وعماله تجبى بلادهم فانهم انما دعوك الى الحرب والقتال ولا آمن عليك ان يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك ، وان يستنفروا اليك فيكونوا اشد الناس عليك .

فقال له الحسين : وانى استخير الله وانظر ما يكون .

ابى الحسين الا ان يمضى الى غايته ، فقال له عبد الله بن العباس :

ــ فان كنت سائرا ، فلا تسر بنسائك وصبيتك ، فانى لخائف ان تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون اليه .

لم يلتفت الحسين الى نصح الناصحين ، بل سار الى الكوفة فى فئـــة قليلة لم يجاوز عددها ثمانين رجلا ، فلما اقترب منها ، بلغه نبأ مجرع مسلم ابن عقيل فقال له بعض اصحابه :

ــ ننشدك الله الا رجعت من مكانك ، فانه ليس لك بالكوفة ناصر بل نتخوف ان يكونوا عليك .

فوثب بنو عقيل وقالوا :

ــ والله حتى ندرك ثأرنا او نتذوق ما ذاق مسلم .

فقال الحسين : لا خير فى العيش بعد هؤلاء .

فقال له بعض اصحابه :

ــ انك والله ما انت مثل مسلم بن عقيل ، ولو قدمت الكوفة لكان الناس اليك أسرع .

سار الحسين حتى وصل الى كربلاء ، وتتابع ارسال الجيوش لقتاله ، والتقى الحسين بجيش عبيد الله بقيادة الحر بن يزيد فى الف فارس ، وكانوا يلازمونه ويصدونه عن كل جهة الا نحو الكوفة مقر اميرهم عبيد الله ابن زيادة ، فقال يعظهم :

« أيها الناس : ان رســــول الله صلى الله عليه وسلم قال : من راى سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله مخالفا لسنة رسول الله يعمل فى عبـــاد الله بالاثم والعدوان . فلم يغير ما عليه بفعل ولا بقول كان حقـــا عـــلى الله ان يدخله مدخله ، الا وان هؤلاء لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن، واظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفئ واحلوا حرام الله وحرموا

حلاله ، وانا احق من غيري وانا الحسين بن على وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نفسى مع انفسكم واهلى من اهلكم فلكم فى اسوة ، وان لم تفعلوا ، ونقضتم عهدى وخلعتم بيعتى ، فلعمرى ما هى لكم بنكيره والمغرور من اغتر بكم ، فحظكم اخطأتم ونصيبكم ضيعتم « ومن نكث، فانما ينكث على نفسه » ، وسيغنى الله عنكم والسلام » .

وفى اليوم التالى لنزوله كربلاء ، جاء عمر بن سعد بن ابى وقاص من الكوفة فى اربعة آلاف مقاتل ، موفدا من عبيد الله بن زياد لقتاله ، ثم انضم الى جيشه الحر بن يزيد ، فلما سئل الحسين عما جاء به ، قال رضى الله عنه :

ـ كتب الى اهل مصركم هـذا ان اقـدم عليهم فأما اذكرهونى فانى انصرف عنكم الى مكة .

فكتب عمر الى ابن زياد بذلك ، ثم التقى الحسين وعمر مرارا ، فكتب عمر الى عبيد الله بن زياد : « أما بعد ، فان الله اطفأ الثائرة وجمع الكلمة وقد اعطانى الحسين ان يرجع الى المكان الذى اقبل منه ، او ان نسيره الى اى ثغر من الثغور شئنا أو ياتى يزيد امير المؤمنين فيضع يده فى يده . وفى هذا لكم رضا وللامة صلاح » .

فلما قرأ ابن زياد الكتاب قال : هذا كتاب رجل ناصح لأميره مشفق على قومه . نعم . قبلت . ولكن شمر بن ذى الجوشن رفض هذا الراى، وقال له :

اتقبل هذا منه وقد نزل بارضك والى جنبك ، والله لئن رحل من بلادك ولم يضع يده فى يدك ليكونن اولى بالقوة والعزة ولتكونن اولى بالضعف والعجز ، فلا تعطه هذه المنزلة ، ولكن لينزل على حكمك هو واصحابه ، فان عاقبت كنت ولى العقوبة ، وان عفوت كان ذلك لك .

اخذ ابن زياد برأى شمر فأرسله بكتاب الى عمر جاء فيه :

« ... انظر فان نزل الحسين واصحابه عن الحكم واستسلموا فابعث بهم الى مسلما ، وان ابوا فازحف اليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فانهم لذلك مستحقون . فان قتل الحسين فأوطىء الخيل صدره وظهره فانه عاق شاق قاطع ظلوم ، فان انت مضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع ، وان انت ابيت فاعتزل جندنا وخل بين شمر بن ذى الجوشن وبين العسكر والسلام » .

جمع الحسين رضى الله عنه اصحابه وقال :

ــ اثنى على الله احسن الثناء واحمده على السراء والضراء ، اللهم انى احمدك على أن اكرمتنا بالنبوة ، وجعلت لنا اسماعا وأبصارا وأفئدة وعلمتنا القرآن وفقهتنا فى الدين فاجعلنا لك من الشاكرين ، اما بعد :

فانى لا اعلم اصحابا اوفى ولا خيرا من اصحابى ، ولا اهل بيت أبر ولا أوصل من اهل بيتى ، فجزاكم الله جميعا خيرا ، لقد بررتم وعاونتم ، والقوم لا يريدون غيرى احدا وانى لاظن يومنا من هؤلاء الأعداء غدا ، وانى قد اذنت لكم جميعا فانطلقوا فى حل ليس عليكم منى ذمام . هذا الليل قد غشيكم فتفرقوا فى سواده وانجوا بأنفسكم .

فقال له اخوته وابناؤه وبنو اخيه وابنا عبد الله بن جعفر :

ــ لم نفعل هـذا لنبقى بعدك لا أرادنا الله ذلك ابدا ، وبداهم بذلك العباس ابن على واتبعته الجماعة فتكلموا بمثله وقالوا :

ــ معاذ الله . وما نقول للناس اذ رجعنا اليهم ؟ نقول تركنا سيدنا وبنى عمومتنا خير الأعمام ، ولم نرم معهم بسهم ، ولم نطعن معهم برمح ، ولم نضرب بالسيف . ولا ندرى ما صنعوا ، لا والله لا نفعل نفديك بأنفسنا واموالنا وأهلينا ونقـاتل معك حتى نرد موردك . فقبح الله العيش بعدك .

وقام اليه مسلمة بن عوسجة الأسدى فقال :

ــ انحن نتخلى عنك ولم نعذر الى الله فى أداء حقك ، اما والله لا أفارقك حتى اكسر فى صدورهم رمحى واضربهم بسيفى ما يثبت قائمه بيدى ، ولو لم يكن معى سلاحى لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك .

وتكلم اصحاب بنحو هذا ،

وكان على بن الحسين تلك العشية مريضا تمرضه عمته السيدة زينب فسمع أباه وهو فى خباء له وعنده جوين مولى أبى ذر الغفارى يعالج سيفه ويصلى والحسين يقول :

يا دهـــر اف لك من خليــل
كـم لك بالأشراق والأصــيل
من صــاحب أو طـالب قتيــل
والدهــر لا يقنــع بالبــديل
وانمـا الأمــر إلى الجليـــل
وكل حى ، ســالك الســبيل

وأعادها مرتين أو ثلاثا فادرك ما اعتزمه والده ولزم السكوت ، وسمعته زينب بنت الزهراء فلم تملك ان وثبت تجـــر ثوبهـــا حتى انتهت اليـــه ونادت :

– واثكلاه ! ليت الموت أعدمني الحياة اليوم ، ماتت أمي فاطمة ، وعلى أبي ، وحسن اخي ، يا خليفة الماضي ، وثمال الباقي .

فنظر اليها الحسين وقال :

– يا أخية لا يذهبن بحلمك الشيطان .

قالت :

– يا أبي أنت وأمي يا ابا عبد الله ، نفسي فداك !

قال الحسين :

– لو ترك القطا ليلا لنام

فقالت :

– واويلتاه ! افتغصبك نفسك اغتصابا فذلك اقرح لقلبي واشد على نفسي واطول لحزني ، وخرت مغشيا عليها .

فقام اليها الحسين فصب المـاء على وجهها ، وقال :

– اتقي الله وتعزى بعزاء الله واعلمي أن أهل الأرض يموتون ، واهل السماء لا يبقون ، وأن كل شيء هالك الا وجه الله . أبي خير مني وامي خير مني ، وأخي خير مني ، ولي ولكل مسلم برسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة . فعزاها بهذا ونحوه ، وقال لها :

– يا اخيه أني أقسم عليك لا تشقي على جيبا ، ولا تخمشي وجها ، ولا تدعي علي بالويل والثبور . ان انا هلكت .

ثم خرج الى اصحابه فأمرهم ان يقربوا بيوتهم من بعض وان يدخلوا الأطناب بعضها في بعض ، ويكونوا بين يدي البيوت فيستقبلون القوم من وجه واحد ، والبيوت عن يمينهم ، وعن شـــمالهم ومن ورائهم ، ورجع الى مكانه فقـــام الليل كله يصلي ويستغفر ، وقام أصحابه كذلك يصلون ويستغفرون ويدعون . وخيول حرس عدوهم تدور من ورائهم ، تحرسهم حتى لا يفر أحد منهم ، وكأنما كان يريد القوم قتلهم كلهم ، والقضاء عليهم جميعهم .

وفى صباح اليوم التالى دارت المعركة الرهيبة بين الآلاف والعشرات ..!
وجعل أصحاب الحسين رضى الله عنه ، يتقدمون رجلا بعد رجل فقاتلوهم قتالا مرا ، ولما استشهد أصحاب الحسين ، برز شباب بنى هاشم بدورهم، يدافعون عن والدهم ، وعمهم وابن عمهم ونسيبهم ، بقلوبهم وصـــدورهم .
وكان على بن الحسين رضى الله عنه ، من أصبح الناس وجها ، وأكملهم دبا . فتقدم للقتال قبل غيره ، وهو ما يزال فى التاسعة عشرة من عمره ، شد على الجيش وهو يقول :

انا على بن الحسين بن على . نحن ورب البيت اولى بالنبى

تا الله لا يحكم فينا ابن الدعى

فعل ذلك مرارا ، يحمل فيرتد من أمامه من شــــدة حملته حتى صـدمه مرة بن منقذ العبدى فطعنه فصرعه ، فلما رآه الحسين قال :

ـ قتل الله قوما قتلوك يا بنى ! ما أجراهم على الرحمن وعلى انتهاك حرمة الرسول ، على الدنيا بعدك العفاء .

واقبل الحسين فقال :

ـــ احملوا اخاكم .. فحملوه من مكانه حتى وضعوه بين يدى الفسطاط الذى كانوا يقاتلون أمامه . واندفعت من خيام النساء امرأة كأنها الشمس طالعة ، تنادى فى جزع :

ـ يا أخياه ! ويا ابن أخياه ! . وأكبت عليه . فجاءها الحسين فأخذها بيدها فردها الى الفسطاط فسأل عنها من لا يعرفها ، فقيل :

ـ هذه زينب ابنة فاطمة بنت رسول الله .

وتتابعت قتلى بنى هاشم فسقط عبد الله بن مسلم بن عقيل ، وعون ابن عبد الله بن جعفر ، ومحمد بن عبد الله بن جعفر ، وعبد الرحمن بن عقيل ابن أبى طالب ، وجعفر بن عقيل .

ثم خرج القاسم بن الحسن بن على وبيده السيف ، وهو غلام كأن وجهه شقة القمر ، فحمل عليه عمرو بن سعد بن نفيل الأذدى فضرب راســـــه بالسيف ، فسقط القاسم على الأرض لوجهه وهو يقول :

ـ يا عماه !

فانقض الحسين عليه كالصقر ثم شد شدة ليث اغضب ، وضرب عمرو بالسيف فاتقاه بالساعد فقطعها من المرفق .

وحملت خيل القوم ليستنقذوا عمروا فاستقبلته بصـــدورها وجالت عليه بفرسانها فوطئته حتى مات .

وانجلت الغبرة والحسين واقف على راس القاسم ، وهو يفحص برجليه، والحسين يقول :

— بعدا لقوم قتلوك ، ومن خصمهم يوم القيامة فيك جدك .

ثم قال :

— أعز والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك ، أو يجيبك ثم لا ينفعك !

ثم احتمله على صدره حتى القاه مع ابنه على ومن قتل معه من أهل بيته .

رجع الحسين الى فسطاطه . فتقدم اليه شمر بن ذى الجوشن برجاله، وهو يحرضهم عليه . واقبل الى الحسين عبد الله بن الحسن بن على وهو غلام لم يراهق فقام الى جنبه وقد أهوى بحـــر بن كعب الى الحسين بالسيف فقال الغلام :

— يا ابن الخبيثة أتقتل عمى ؟!

فضربه بالسيف فألقاه الغلام بيده ، فقطعها الى الجلد ، [illegible] غلام فاعتنقه الحسين وقال له :

— يا ابن أخى ، اصبر على ما نزل بك واحتسب فى ذلك الخير ، فان الله يلحقك بآبائك الصالحين .

ورفع الحسين بصره الى السماء يناجى الله قائلا :

— اللهم أمسك عنهم قطر السماء ، وامنعهم بركات الأرض ، اللهم فان متعتهم الى حين ففرقهم فرقا ، واجعلهم طرائق قددا ، ولا ترض عنهم الولاة أبدا ، فانهم دعونا لينصرونا ، فعدوا علينا فقتلونا .

ثم قاتل من امامه فانكشفوا عنه وبقى الحسين فى ثلاثة رهط اواربعة .

ولمـا قتلوا وبقى الحسين وحده ، وقد اثخن بالجراح فى راسه وبدنه، حمل الناس عليه عن يمينـــه وشـــماله ، فحمـــل على الذين عن يمينه ، فتفرقوا ، ثم حمل على الذين عن يساره فتفرقوا ، فما رئى رجل قط قد قتل ولده وأهل بيته وأصحابه أربط جاشا ولا أمضى جنـــانا ، ولا اجرأ مقدما منه . اذ كانت الرجالة لتنكشف عن يمينه وشماله كلما شد عليها ، وبينما هو كذلك اذ خرجت زينب وهى تقول :

— ليت السماء انطبقت على الأرض . ونظرت الى عمر بن سعد وقالت :

— يا عمر ، ايقتل أبو عبد الله وأنت تنظر ؟!

فدمعت عيناه حتى سالت دموعه على خديه ولحيته ، وصرف وجهه عنها والحسين يقاتل قتال الفارس الشجاع ، يتقى الرمية ، ويشد على الخيل وهو يقول :

ــ أعلى قتلى تجتمعون ! اما والله لا تقتلون بعدى عبدا من عباد الله اسخط عليكم لقتله منى . وأيم الله لأرجو ان يكرمنى الله بهوانكم ، ثم ينتقم لى منكم من حيث لا تشعرون ، اما والله ان لو قد قتلتمونى لقد القى الله بأسكم بينكم وسفك دماءكم ، ثم لا يرضى لكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم .

ومكث طويلا من النهار ، ولو شاء الناس أن يقتلوه لفعلوا ، ولكنهم كان يتقى بعضهم ببعض ، ويحب ان يكفيهم هؤلاء . فلما راى ذلك شمر بن ذى الجوشن استدعى الفرسان فصاروا فى ظهور الرجالة وامر الرماة ان يرموه ، فرشقوه بالسهام فأحجم عنهم فوقفوا بازائه فنادى شمر فى الناس :

ــ ويحكم ! ماذا تنتظرون بالرجل ! اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم !!

فحملوا عليه من كل جانب ، وضربه زرعة بن شريك التميمى على كفه اليسرى فقطعها ، وضربه آخر على عاتقه فكبا منها لوجهه فانصرفوا عنه ، وهو يقوم ويكبو ، وحمل عليه فى تلك الحال سنان بن أنس النخعى ، فطعنه بالرمح فصرعه ، وبدر اليه خولى بن يزيد الأصبحى فنزل ليحتز رأسه فأرعد .

فقال له سنان :

ــ فت الله فى عضدك ، ونزل اليه وذبحه ، واحتز راسه ثم دفعه الى خولى وسلب القوم الحسين ما كان عليه وتركوه مسجى فى العراء .

وانتهب الناس حلله وابله واثقاله ومتاعه ، وسلبوا نساءه ، حتى ان كانت المراة لتنازع ثوبها عن ظهرها ، حتى تغلب عليه ، فيؤخذ منها ووجد بالحسين ثلاث وثلاثون طعنة واربع وثلاثون ضربة غير الرمية .

روى الدم الزكى ارض العراق ، واهدر دم اهل البيت ، ونكل بهم ، ولما يمضى على وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم خمسون سنة ، روى ابو خالد الأحمر قال :

دخلت على أم سلمة وهى تبكى ، فقلت : ما يبكيك ؟

قالت : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام وعلى راسه ولحيته التراب ، فقلت : مالك يا رسول الله ؟ قال : شهدت قتل الحسين .

وروى عن ابن عباس أنه قال :

ـ رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرى النائم وهو قائم ، أشعث أغبر ، بيده قارورة فيها دم . فقلت : بأبى انت وأمى يا رسول الله ! ما هـــذا الدم ؟

قال : هذا دم الحسين لم أزل التقطه منذ اليوم .

* * *

كان لمقتل الحسين رضى الله عنه فى أرض كربلاء اثر عميق فى اذكاء نار التشيع فى نفوس الشيعة انصار على بن ابى طالب رضى الله عنه واولاده من بعده ، وتوحيــد صفوفهم وكانوا قبل ذلك متفرقى الكلمة ، مشتتى الاهواء ، اذ كان التشيع قبل مقتل الحسين رأيا سياسيا نظريا ، فلما قتل الحسين ، امتزج التشيع بدمائهم واصبح عقيدة راسخة فى قلوبهم .

وقد ظهرت طائفة التوابين الذين يدعون الناس للاخذ بثأر الحسين ، وينظمون القصائد فى رثائه وتحريض الناس على القتال ، من ذلك قول عبد الله بن الأحمر .

صحوت وقد صحوا الصبى والعواديا
وقلت لأصــحابى : أجيبوا المنــاديا
وقولوا له اذ قام يدعو الى الهـــدى
وقيــل الدعى : لبيك لبيك داعيـــا
الا وانع خير النـــاس جـــدا ووالدا
حســينا لأهل الدين ان كنت ناعيـــا
وأضحى حســـــين للرماح دريئـــة
وغودر مســـــلوبا لدى الطف ثاويا
فيــا ليتنى اذ ذاك كنت شـــــهدته
فضـــاربت عنــه الشـــانئين الاعاديا

* * *

قتل الحسين رضى عنه فى العاشر من شهر المحرم سنة ٦١ هـ . فأرسل الى يزيد بن معاوية الذى رد الرأس الشريف الى الجسد الطاهر ، ودفنا فى دمشق ، ثم نقلت فى عهد الفاطميين الى عسقلان بفلسطين ، وكان الفاطميون قد استولوا عليها حين فتحوا بلاد الشام .

فلما تقلد الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالى الوزارة ، اخرج رأس الحسين ، وعطره ، وحمله على صدره ، وسعى به ماشيا ، الى أن أحله فى مقره الذى هو فيه بالقاهرة ، حيث المشهد الحسينى .

عقيلة بنى هاشم

كان البيت النبوى الكريم ينتظر ساعة الوضع فى لهفة وترقب ، فقد اوشكت فاطمة الزهراء رضى الله عنها ان تضع مولودا جديدا بعد ان رزقت بالحسن والحسين ، وثالث لم يقدر له أن يعيش هو المحسن بن على .

واذيعت البشرى ان الزهراء وضعت انثى سميت زينب تيمنا بخالة الوليدة الجديدة ، السيدة زينب بنت المصطفى عليه السلام .

وذكر فى رواية اخرى :لما ولدت زينب فى شعبان من السنة الخامسة للهجره جاءت بها امها الزهراء الى ابيها على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقالت له :

ـ سم هذه المولودة .

فقال لها :

ـ ما كنت لأسبق رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان فى سفر له .

ولما جاء النبى صلى الله عليه وسلم سأله على عن اسمها فقال :

ـ ما كنت لأسبق ربى تعالى .

فهبط جبريل عليه السلام يقرأ على النبى السلام من الله الجليل ، وقال له :

ـ سم هذه المولودة زينب فقد اختار الله لها هذا الاسم .

ورويت روايات حول مولد زينب حفيدة المصطفى . روايات ان لم يكن لها موضع فى كتب التاريخ المحققة تحقيقا علميا ، الا ان لها أثرها فى الوجدان .

فقد تحدثوا انه ذاعت نبوءة عند مولدها ، بما ينتظرها من محن وآلام ، وبالفجيعة التى ستصاب بها فى كربلاء ، وروى أن سلمان الفارسى رضى الله عنه اقبل على على بن أبى طالب رضى الله عنه ، يهنئه بالمولودة الجديدة ، فوجده حزينا واجما ، وحدثه عما ستلقاه يوم كربلاء .

وفى سنن الامام احمد بن حنبل ان جبريل اخبر المصطفى عليه السلام بمصرع الحسين رضى الله عنه واهل البيت فى كربلاء .

وروى ايضا أن زينب بنت الزهراء كانت تتلو يوما بعض آيات القرآن الكريم ، ثم توجهت تسأل أباها تفسير بعض هذه الآيات ، فأجابها رضى الله عنه . ثم أستطرد يلمح لها الى الدور الخطير الذى ستلقاه ، فاجابته رضى الله عنها :

ـ أعرف ذلك يا أبى ، اخبرتنى به أمى كيما تهيئنى لغدى !

ودهش الامام عـلى ، اذ كانت ابنته تعلم من امها فاطمة الزهـــراء ما ينتظرها من احداث دامية ، فاطرق وجهه صامتا ، وقلبه يخفق رحمة وحنانا وشفقة على ابنته الحبيبة .

عاشت زينب منذ مولدها فى المهد الحزين ، الذى لفته النبوءة المؤلمة .. ولقد لقيت من جدها الأعظم كل عطف وحنان ومحبة ، وأسبغ عليها نور النبوة والحكمة ، درجت تلك الدرة اليتيمة ، فى بيت الرسالة ، ورضعت لبان الوحى من ثدى الزهراء البتول ، وغديت بغداء الكرامة من كف ابن عم الرسول ، فنشأت نشأة قدسية ، وربيت تربية روحانية ، متجلببة جلابيب الجلال والعظمة ، مرتدية رداء العفاف والحشمة .

وقد فقدت السيدة زينب جدها صلى الله عليه وسلم وهى بنت خمس، فقدت أمها الزهراء بعد ذلك بشهور قليلة لا تتجاوز الســنة ، فحزنت لفقدهما حزنا عميقا جعلها انضج ادراكا وأرهف حسا ، فتحملت وهى صبية صغيرة ، عبء ادارة بيت ابيها ورعاية شئون اخواتها .

***

شبت زينب الطاهرة عن الطوق ، ونما عودها افضل نماء ، وزكا نباتها الطيب فى روضة النبوة ، ودوحة الرسالة ، وجملها ربها بدنا وروحا ، وطبعا خلقا ، وعنــدما بلغت مبلغ الزواج تهافت عليها الطلاب من شــباب هاشم وقريش ، ذوى الرفعة والشرف . لكن على بن أبى طالب كرم الله وجهــه ، اختار لفتاته ، عبد الله بن جعفر .

ابوه جعفر بن ابى طالب ، ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، واخو على بن ابى طالب لابويه ، وكان أشبه الناس بالمصطفى عليه السلام خلقــا وخلقــا .

وصفه أبو هريرة رضى الله عنه فقال :

ـ « ما احتذى النعال ولا ركب المطايا ولا وطىء التراب بعد رسول الله

صلى الله عليه وسلم افضل من جعفر بن أبى طالب » .

وكان الرسول يكنيه ابا المساكين .

هاجر بدينه الى الحبشة ابان اضطهاد الارستقراطية القرشية لدعوة الحق الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من عند ربه جل جلاله ، ثم رجع مع من رجع من المسلمين ، وصادف وصوله الى المدينة المنورة فتح خيبر فالتزمه الرسول ، وجعل يقبله بين عينيه ويقول :

— « ما ادرى بأيهما أنا أشد فرحا ، بقدوم جعفر أم بفتح خيبر ؟ »

وانزله الرسول الأعظم الى جنب المسجد .

سار مع كتيبة الايمان التى توجهت الى بلاد الروم فى السنة الثامنة للهجرة ، وقد جعل الرسول لواء ذلك الجيش لزيد بن حارثة ، فان أصيب، فجعفر بن ابى طالب على الناس .

ومضت كتيبة الايمان حتى اذا كانت بتخوم البلقاء ، لقيتم جيوش « هرقل » فانحاز المسلمون الى قرية « مؤتة » ودارت معركة رهيبة ، قاتل فيها « زيد » براية الرسول الكريم حتى شاط (1) فى رماح القوم ، ثم أخذها جعفر بن أبى طالب . فقاتل بها حتى اذا الحمه القتال عن فرس له شقراء فعقرها ، ثم قاتل القوم حتى قتل ، فكان جعفر أول رجل من المسلمين عقر فى الاسلام فرسه .

وروى ان الرسول الكريم لما اتاه نعى جعفر ، دخل على امراته اسماء بنت عميس ، فعزاها فيه ، ودخلت فاطمة وهى تبكى وتقول :

— واعماه !

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— على مثل جعفر فلتبك البواكى .

ودخله من ذلك حزن شديد حتى اتاه جبريل ، فأخبره ان الله قد جعل لجعفر جناحين مضرجين بالدم يطير بهما مع الملائكة فى الجنة .

وكان عبد الله بن جعفر اول مولود ولد فى الاسلام فى هجرة الحبشة، وبايع الرسول صلى الله عليه وسلم وهو ابن سبع سنين ، وزاد حبه له وعطفه عليه بعد موت أبيه جعفر ، حتى انه مسح على رأسه وقال :

— « اللهم اخلف جعفرا فى أهله وبارك لعبد الله فى سفقة يمينه — قالها ثلاثا — وفيه — وانا وليهم فى الدنيا والآخرة » .

(1) يقال : شاط الرجل ، اذا سال دمه فهلك .

كان عبد الله كريما واذ حليما ، يسمى بحر الجود . وقد وصفه ابن عباس رضى الله عنهما فقال : « كان لله ذكورا ، ولنعمائه شـكورا ، وعن الخناز جورا ، جواد كريم ، وسيد حليم ، ان ابتدأ أصاب ، وان سئل اجاب ، غير حصر ولا هياب ، ولا فحاش عياب ، حل من قريش فى كريم النصاب كالهزبر الضرغام ، الجرىء المقدام ، ليس يدعى لدعى ، ولا يدنو لدنى » .

ولما مات سنة ثمانين هجرية ، شهد جنازته أهل المدينة كلهم ، ورثاه الكثيرون ومنهم أبان بن عثمان أمير المدينة الذى وقف على حافة قبره ، ودموعه تسيل على خديه ، وهو يقول :

ـ كنت والله خيرا لا شر فيك ، وكنت والله شريفا واصلا برا .

وقال هشام المخزومى : اجمع اهل الحجاز والبصرة والكوفة على انهم لم يسمعوا ببيتين احسن مما كتب على قبر عبد الله وهما :

مقيم الى أن يبعث الله خلقه
لقاؤك لا يرجى وانت قريب
تزيد بل فى كل يوم وليلة
وتنسى كما تبلى وأنت حبيب

هذا هو الذى اختاره الامام على بن أبى طالب زوجا لابنته الطاهرة زينب ، التى بلغت من تعلق ابيها بها ، ان لقاها معه ، حتى اذا ولى أمر المسلمين وانتقل الى الكوفة ، انتقلت وزوجها فعاشا فى مقر الخلافة فى رعاية امير المؤمنين .

خرجت السيدة زينب مع الحسين وبقية اهل البيت الى كربلاء ، حيث استشهد الحسين رضى الله عنه ..

تحرك موكب الاسرى والسبايا من أهل البيت النبوى الكريم . وما كاد الركب يمر على ميدان المعركة ، حتى صاحت النساء . ولطمن خدودهن ، وصاحت زينب :

ـ يا محمداه صلى عليك ملائكة السماء ، هـذا الحسين بالعراء مرمل بالدماء مقطع الأعضاء ، يا محمداه هذه بناتك سبايا وذريتك مقتلة تسفى عليها الصبا .

فابكت كل عدو وصديق .

ودخل الموكب الحزين الكوفة .

وتجمع أهل الكوفة يبكون ، فقالت لهم زينب ، مبكتة مؤدبة ، مقومة مهذبة :

ـ يأهل الكوفة ؟

أتبكون ؟! فلا سكنت العبرة ، ولا هدات الرنة !

انما مثلكم مثل التى نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا ، تتخذون أيمانكم دخلا بينكم ، الا ساء ما تزرون !

أى والله ، فابكوا كثيرا ، واضحكوا قليلا ، فقد ذهبتم بعارها وشنارها، فلن ترحضوها ـ لن تغسلوها ـ ابدا .

وكيف ترحضون قتل سبط خاتم النبوة ، ومعدن الرسالة ، ومدار حجتكم ، ومنار محجتكم ، وهو سيد شبات أهل الجنة !

لقد أتيتم بها خرقاء شوهاء !

أتعجبون لو أمطرت دما ؟

الا ساء ما سولت لكم أنفسكم ، ان سخط الله عليكم وفى العذاب انتم خالدون

أتدرون أى كبد فريتم ، وأى دم سفكتم ، وأى كريمة أبرزتم ، لقد جئتم شيئا اذا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا »

ضج الناس بالبكاء والعويل وفزعوا من هول ما سمعوا ، وسقط فى ايديهم ، وبلغ بهم الأسف مبلغه ، ووجفت القلوب ، واقشعرت الأجساد من هول تلك المحنة الدهماء .

وعندما أدخل أهل البيت النبوى الكريم الى حيث عبيد الله بن زياد والى الكوفة ، تذكرت السيدة زينب رضى الله عنها تلك القاعة التى كان يجلس فيها ـ من قبل ـ أبوها الامام على بن أبى طالب ، دخلتها هذه المرة وقلبها متصدع مما مر بها من أحداث جسام ، ولكنها لاذت بكل كبريائها وعزة نفسها وكرامة محتدها ، معتزة بعلو حسبها ونسبها الشريف، ملتفة بجلال النبوة ، وجلست منتحية ناحية من القاعة تحف بها اماؤها .

فتساءل ابن زياد عن هذه المتحازة وحدها ومعها نساؤها .

فقال بعض امائها :

ـ هذه زينب بنت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنت الامام على كرم الله وجهه .

فقال متشفيا فيها :

ـ الحمد لله الذى فضحكم وقتلكم واكذب أحدوثتكم .

فردت عليه السيدة زينب بكل اباء وشمم :

ـ الحمد لله الذى أكرمنا بنبيه صلى الله عليه وسلم وطهرنا من الرجس تطهيرا ، انما يفتضح الفاجر ويكذب الفاسق وهو غيرنا .

فلم يصبر ابن زياد على قولها ، بل رد عليها قائلا :

ـ كيف رايت صنع الله فى أهل بيتك واخيك ؟

هنا تتجلى أسمى معانى الايمان العميق والصبر الجميل والشجاعة النادرة فى قولها له :

ـ ما رايت الا خيرا . هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتال فبرزوا الى مضاجعهم ، وسيجمع الله بنك وبينهم فتحاج وتخاصهم ، فأنظر لمن الفلج يومئذ . ثكلتك امك يابن مرجانة !

فأثار هذا الرد الحازم حفيظة ابن زياد ، فقال لها وهو فى أشد حالات الغيظ :

ـ لقد شفى الله قلبى من طاغيتك الحسين والعصاة المردة من اهل بيتك .

فقالت له :

ـ لعمرى لقد قتلت كهلى وقطعت فرعى واجتثثت أصلى فان كان فى هذا شفاؤك فلقد اشتفيت .

اثار هذا النقاش بينها وبين ابن زياد حماسا وغيرة على بن الحسين رضى الله عنهما على عمته ، فانبرى صائحا يا بن زياد !

ـ الى كم تهتك عمتى بين من يعرفها ومن لا يعرفها ؟

فالتفت اليه وقال : من انت ؟

فرد عليه فى ثبات :

ـ أنا على بن الحسين .

فقال ابن زياد :

ـ أليس الله قتل على بن الحسين ؟

قال على :

ـ كان لى اخ يسمى عليا قتله الناس بأسيافهم .

فقال ابن زيادة :

ـ بل قتله الله .

قال على فى ايمان عميق :

ـ « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها » .

فيسأله ابن زياد فى دهشة وعجب :

ـ أو بك جراة على جوابى وفيك بقية للرد ؟ ثم صاح بغلمانه أن يذهبوا به فيضربوا عنقه .

فتعلقت به عمته السيدة زينب وقالت :

يابن زيادة حسبك من دمائنا ما ارتويت وسفكت . وهل ابقيت احدا غير هذا ؟ والله لا أفارقه فان قتلته فاقتلنى معه .

وقال على !

ـ اسكتى يا عمة حتى أكلمه ، والتفت اليه قائلا :

ـ أبالقتل تهددنى ، أما علمت أن القتل لنا عادة وكرامتنـــا من الله الشهادة ؟

فنظر ابن زياد اليها فترة ثم قال :

ـ عجبا للرحم ، والله انى لأظنها ودت لو أنى قتلتها معه ، دعوة فانى أراه لمـا به مشغولا .

ولمـا أصبح ابن زياد امر براس الحسين رضى الله عنه فطيف به على رمح فى الكوفة ، ثم انفذوه مع رءوس اصحابه الى يزيد بن معـاوية ، وامر بنسائه وصبيانه ، فجهزوا وحملوا على الأقتاب وسرح بهم الى دمشق ، وعلى بن الحسين مقيد مغلول اليدين .

فلما مثلوا بين يدى يزيد وأماه الراس الشريف ، تطاولت فاطمة وسكينة ابنتا الحسين رضى الله عنهم ينظران الى الراس والدموع هاطلة . والافئدة

واجمة ، والقلوب مضطربة ، واحسن يزيد بذلك ، فاضطرب وجعل يتطاول بدوره ليستر الراس الشريف عنهما .

وكان في مجلس يزيد رجل شامي ضخم الجثة أحمر الوجه ، ظل يحدق في فاطمة بنت علي — وكانت شـــابة وضيئة — ويلتهمها بنظرات جشعة ، فأجفلت منه خائفة مشمئزة ، وقام الرجل الى يزيد فقال :

— هب لي هذه .

خافت فاطمة ، واخذت بثياب اختها زينب ، فقالت السيدة زينب !

— كذبت والله ولؤمت ! ما ذلك لك وله .

فغضب يزيد ، وقال :

— كذبت والله ، ان ذلك لي ، ولو شئت أن أفعله لفعلت .

قالت زينب :

— كلا والله ، ما جعل الله ذلك لك الا أن تخرج من ملتنا ، وتدين بغير ديننا .

فاستطار يزيد غضبا وقال :

— اياى تستقبلين بهذا ؟ انما خرج من الدين أبوك وأخوك .

فقالت زينب :

— بدين الله ودين أبي ودين اخي وجدي اهتديت أنت وابوك وجدك .

قال يزيد :

— كذبت يا عدوة الله ؟!!

قالت زينب !

— انت أمير مسلط ، تشتم ظالما ، وتقهر بسلطانك .

فاستحى يزيد وسكت عنها .

وعاد الشامي يقول :

— يا أمير المؤمنين ، هب لي هذه الجارية .

فقال يزيد !

— أغرب ، وهب الله لك حتفا قاضيا !

كشف يزيد عن رءوس الشهداء وانثنى يعبث بقضيب في يده ، بثنايا الحسين رضي الله عنه ، ويقول شامتا متشفيا .

يا غراب البين أسمعت ، فقل
انما تذكر شيئا قد فعل
ليت أشياخى ببدر شهدوا
جزع «الخزرج» من وقع الأسل
لا هلوا واستهلوا فرحا
ثم قالوا يا « يزيد » لا تشل

فانبرت له السيدة زينب فى ثقة وايمان ، وثبات جنان ، وجعلت تردعه وتزجره ، وتطلم غروره بهذه اللطمات ، قالت :

(الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على رسوله وآله أجمعين ، صدق الله سبحانه حيث يقول : **ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى ان كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون (١) »** .

ظننت يا يزيد حين اخذت علينا اقطار الأرض وآفاق السماء ، فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى ، ان بنا هوانا على الله وبك عليه كرامة ، وان ذلك لعظيم خطرك عنده ، فشمخت بأنفك ونظرت فى عطفك تضرب اصدريك (٢) فرحا ، وتنفض مذوريك (٣) مرحا جذلان مسرورا ، حين رايت الدنيا لك مستوسقة ، والأمور متسقة ، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا ، فمهلا مهلا انسيت قول الله تعالى :

« ولا يحسبن الذين كفروا انما نملى لهم خير لانفسهم انما نملى لهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين (٤) » .

أمن العدل يابن الطلقاء (٥) تخديرك حرائرك واماءك وسوقك بنات رسول الله سبايا قد هتكت ستورهن ، وأبديت وجوههن ، تحدو بهن الأعداء من بلد الى بلد ، يستشرفهن أهل المناهل والمنافل ، ويتصفح وجوههن القريب والبعيد ، الدنى والشريف ، ليس معهن من رجالهن ولى ، ولا من حماتهن حمى ، وكيف يرتجى مراقبة من لفظ فوه اكباد الأذكياء ونبت لحمه من دماء الشهداء ، وكيف يستبطأ فى بغضنا أهل البيت من نظر

---

(١) سورة الروم : ١٠
(٢) منكبيك .
(٣) المذوران : جانبا الاليتين ولا واحد لها ، اى ماضيا يتهدد .
(٤) سورة آل عمران : ١٧٨ .
(٥) الطلقاء : هم آباء يزيد الذين اطلقهم الرسول صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة . فقال ، اذهبوا فانتم الطلقاء .

الينا بالشنف والشنآن ، والاحن والاضـــغان ، ثم تقـــول غير متأثم ولا مستعظم !

لا هــلوا واســـتهلوا فرحا ثم قالوا يا يزيد لا تشل

منحنيا على ثنايا ابى عبد الله سيد شباب اهل الجنة تنكتهـا بمخصرتك ، وكيف لا تقول ذلك وقد نكأت القرحة ، واستأصلت الشاقة ، باراقتك دماء ذرية محمد صلى الله عليه وسلم ونجوم الارض من آل عبد المطلب، وتهتف بأشياخك زعمت انك تناديهم ، فلتردن وشيكا موردهم ولتودن انك شللت وبكمت ولم تكن قلت ما قلت ، وفعلت ما فعلت ، اللهم خـــذ لنا بحقنا ، وانتقم ممن ظلمنا ، واحلل غضبك بمن سفك دماءنا وقتل حماتنا ، فوالله يا يزيد ما فريت الا جلدك ولا حززت الا لحمك ، ولتردن على رســول الله صلى الله عليه وسلم بما تحملت من دماء ذريته وانتهكت من حـــرمته في عترته ولحمته ، حيث يجمع الله شملهم ويلم شعثهم ويأخذ بحقهم .

((ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل احيـــاء عند ربهم يرزقون)) .

وحســبك بالله حاكما وبمحمد صلى الله عليه وسلم خصيما وبجبريل ظهيرا ، وسيعلم من سول لك وامكنك من رقاب المسلمين ــ بئس للظــالمين بدلا ــ ايكم شر مكانا واضعف جندا ، ولئن جرت على الدواهي مخاطبتك ، اني لأستصغر قدرك ، واستعظم تقريعك واستكثر توبيخك ، لكن العيــون عبرى ، والصدور حرى ، الا فالعجب كل العجب لقتل حزب الله النجباء ، بحزب الشيطان الطلقاء ، فهذه الايدى تنطف من دمائنا ، والافواه تتحلب من لحومنا ، وتلك الجثث الطواهر الزواكي تنتابها العواسل (الذئاب) ، وتعفرها امهات الفراعل (الضباع) ، ولئن اتخذتنا مغنما لتجدنا وشـيكا مغرما ، حين لا تجد الا ما قدمت يداك وما ربك بظــلام للعبيد ، والى الله المشتكى وعليه المعول ، فكد كيدك ، واسع سعيك ، وناصب جهدك ، فوالله لا تمحو ذكرنا ، ولا تميت وحينا ، ولا تدرك امدنا ، ولا تدحض عنك عارها، وهل رأيك لها فنــد (كذب) ، وايامك الا عدد ، وجمعك الا بدد ، يوم ينادى المنادى الا لعنة الله على الظالمين ، فالحمد لله رب العالمين الذى ختم لاولنا بالسعادة والمغفرة ، ولآخرنا بالشهادة والرحمة ، نسأل الله ان يكمل لهم الثواب ، ويوجب لهم المزيد ويحسن علينا الخــــلافة انه رحيم ودود وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

لم يستطع يزيد مع ما هو عليه من سلطان وملك وهيبة يخشاها اكثر الناس ، ان يقاطع كلام السيدة زينب ، أو ان يمنعها من الاستمرار فيه .

مع انه من لاذع القول ، رغم وجودها فى ذلة الاسر دامية القلب دامعة العين مما مر بها من احداث جسام .

واراد يزيد بن معاوية ان يخرج من هذا المـازق الذى وقع فيه والحرج الشديد الذى اصابه من افتضاح حقيقة أمره ، فلم يستطع ان ينطق بغير هـذه الكلمة :

يا صـــيحة تحمد من صـــوائح ما اهون النوح على النوائح

واراد يزيد ان يكفر ولو بعض الشيء عن سوء صنيعة وشـــنيع فعلته ، فعرض على السيدة زينب الأموال الكثيرة التى نهبت منها وكذلك غـيرها لتأخذها عوضا عن الحسين رضى الله عنه وانصاره . فقالت :

ـ يا يزيد ما اقسى قلبـك ، تقتل اخى وتعطينى المـال ، والله لا كان ذلك ابدا .

وامر يزيد ، النعمان بن بشير ان يجهزهم بما يصلحهم فى رحلتهم الى المدينة المنورة وان يصحبهم فى ركبهم اليها ، فخرج ومعه بعض رجاله ومنهم بشر بن حذلم ، فاحسنوا الصحبة طول الطريق الى المدينة ، وكان بشر محبا لله ولرسوله ولآل البيت النبوى الكريم ، على خوف من بنى أميـــة وكان لسان حاله يقـول :

احب الحســـين ولكنمـــا
لســـانى عليـــه وقلبى معه
حبست لســانى عن مدحه
ضرار اميـــة ان تقطعـــه
اذا الفتنة اضطرمت فى البلاد
ورمت النجاة فـكن امعـه

ولـما بلغوا مشارف المدينة المنورة قالت فاطمة بنت على لاختها زينب :

ـ يا اخية ، لقد احسن هـــذا الرجل الينا فى صحبتنا فهل لك فى أن نصـــله ؟

ـ والله ما معنا شيء نصله الا حلينا .

واخرجتا سوارين لهما ودملجين ، فبعثتا به الى الرجل ، معتذرين اليه عن ضآلة الهدية . ولكن الرجل رد اليهما الحلى قائلا :

ـ لو كان الذى صنعت انما هو للدنيا كان فى حليكن ما يرضينى ودونه، ولكن والله ما فعلته الا لله ، ولقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* * *

تولى على المدينة ذهول عميق ، وروعة عظيمة ، عندما سمعت بشر بن حذلم يرفع صوته بالبكاء وينشد قائلا :

يأهل يثرب لا مقام لكم بها
قتل الحسين فادمعى مدرارا
الجسم منه بكربلاء مضرج
والرأس منه على القناة يدار

ثم نادى : هذا على بن الحسين مع عماته واخواته قد حلوا بساحتكم ونزلوا بفنائكم ، وانا رسوله اليكم اعرفكم مكانه .

فخرج الجميع رجالا ونساء ولم ير اكثر من ذلك اليوم باكيا او باكية وهم يستقبلون ذلك الركب الكريم وينادى قائلا :

اترجو امة قتلت حسينا
شفاعة جده يوم الحساب

واندفعت زينب بنت عقيل بن ابى طالب . ومعها نساؤها وهى حاسرة تلوى بثوبها وتصرخ :

ماذا تقولون ان قال النبى لكم
ماذا فعلتم ، وانتم آخر الأمم
بعترتى وبأهلى بعد مفتقدى
منهم اسارى ، ومنهم ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائى اذ نصحت لكم
ان تخلفونى بسوء فى ذوى رحمى

ولما سمع والى المدينة عمرو بن سعد (١) اصواتهن وصعد المنبر فاعلم الناس بمقتل الحسين رضى الله عنه .

ولما بلغ عبد الله بن جعفر قتل ابنيه ، استرجع ، فدخل عليه بعض مواليه والناس يعزونه فقال :

ــ هذا ما لقينا من الحسين .

فحذفه ابن جعفر بنعله وقال :

ــ يابن اللخناء ، اللحسين تقول هذا ؟ والله لو شهدته لاحببت ان لا افارقه حتى اقتل معه . والله انه لمما يهون على المصاب بهما انهما اصيبا

(١) قتل الملك بن مروان عمرو بن سعد بعد ذلك قتلة فظيعة .

مع اخي وابن عمي ، مواسيين له ، صابرين معه . وان لم تكن آست الحسين يدى ، فقد آساه ولداى .

* * *

كان وجود السيدة زينب فى المدينة المنورة كافيا ، لأن تلهب المشاعر وتؤلب الناس على الطغاة ، فقد راحت تخطب الجماعات مظهرة عدوان يزيد بن معاوية وبغى عبد الله بن زياد وطغيان اعوانهما على اهل البيت النبوى الكريم ، فأثارت الثائرة وهيجت الألباب ، ولفتت انظار الاحرار الى الدم المسفوك ، والثأر المضيع ، حتى كاد الأمر يفسد على بنى أمية . فكتب عمرو بن سعد والى المدينة ليستنجد بيزيد ويقول له :

« ان وجودها بين أهل المدينة مهيج للخواطر ، وانها فصيحة عاقلة لبيبة ، وقد عزمت هى ومن معها على القيام للاخذ بثأر الحسين » .

فأمره يزيد ان يفرق البقية الباقية من اهل البيت النبوى الكريم فى الاقطار والأمصار ، وطلب الوالى الى السيدة زينب ان تخرج من المدينة فتقيم حيث تشاء . وقد عز ذلك وعظم عليها ان ترحل من ارض الآباء والأجداد ، مهبط الوحى ، وحيث توجد الأعظم العطرات لآلها ، وقالت :

ـ قد علم الله ما صار اليه امرنا ، قتل خيرنا ، وسيق الباقون كما تساق الانعام ، وحملنا على الأقتاب . فوالله لاخرجنا وان اريقت دماؤنا .

واجتمع عليها نساء بنى هاشم وتلطفن معها فى الكلام وواسينها وحبذن لها الخروج .

وقالت لها زينب بنت عقيل بن أبى طالب :

ـ يا بنت عماه ، قد صدقنا الله وعده وارثنا الأرض نتبوأ منها حيث نشاء فطيبى نفسا وقرى عينا ، وسيجزى الله الظالمين ، ارحلى الى اى بلد آمن .

وقد اختارت السيدة زينب رضى الله عنها ، مصر دارا لاقامتها لما سمعته عن اهلها وحبهم لأهل البيت النبوى الكريم .

وما كاد خبر رحيل السيدة زينب يبلغ والى مصر اذ ذاك مسلمة بن مخلد الانصارى ، حتى توجه ومعه جماعة من اصحابه ورهط كبير من اعيان مصر وعلمائها ووجهائها وتجارها ليكونوا فى شرف استقبالها . فاستقبلوها عند قرية على طريق مصر والشام شرقى بلبيس عرفت فيما بعد بقرية العباسة نسبة للعباسة ابنة احمد بن طولون .

وقد تقدم مسلمة من السيدة زينب وعزاها فى خشوع وخضوع ، وبكى فبكت وبكى الحاضرون ، ثم قالت :

- « هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون » .

وقد وافق دخول السيدة زينب مصر ، بزوغ هـــلال شـعبان سنة احدى وستين هجرية الموافق ٢٦ ابريل سنة ٦٨١ ميلادية ، وكان قد مضى على استشهاد الحسين رضى الله عنه ستة اشهر وايام .

وقد أنزلها الوالى هى ومن معها فى داره بالحمراء القصوى ترويحا لها ، اذ كانت تشكو ضعفا من أثر ما مر بها . فنزلت بتلك الدار معــززة مكرمة ، وبقيت فيها موضع اجلال المصريين وتقديرهم ، حيث كانوا يفدون الى منزلها الكريم ملتمسين بركتها ودعواتها ، مستمعين الى ما ترويه من الاحـاديث النبوية الشريفة والأدب الدينى الرفيع .

وبقيت السيدة زينب بتلك الدار اقل من عام بقليل ، فلم تر خلال مدة اقامتها الا عابدة متبتلة متهجدة صوامة قوامة تالية لآى القـرآن المجيـــد وانتقلت رضوان الله عليها الى الرفيق الأعلى عشية يوم الأحد لأربع عشرة مضين من رجب عام ٦٢ هـ ، فمهدت لها الأرض الطاهرة مرقدا لينا فى مخدعها فى دار مسلمة حيث أقامت وحيث اختارت ان تكون ضجعتها الاخيرة

أم كلثوم

كانت السيدة فاطمة الزهراء تعتز اعتزازا كبيرا باسم زينب ، فقد شاء الله أن تلد رضى الله عنها قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم انثى اخرى سمتها زينب ، وكناها جدها عليه السلام أم كلثوم .

ولما شبت أم كلثوم عن الطوق ، ونما عودها ، سارع امير المؤمنين عمر بن الخطاب الى خطبتها ، فلما طلبها رضى الله عنه من ابيها على بن ابى طالب كرم الله وجهه ، قال له :

ـ انها صغيرة .

فقال لها عمر :

ـ انكحنيها يا على فوالله ما على ظهر الأرض رجل يرصد من حسن صحابتها ما ارصد .

فقال له عمر :

ـ انا ابعثها اليك فان رضيت فقد زوجتكها .

فبعثها اليه ببرد ، وقال لها !

ـ انطلقى بهذا الى امير المؤمنين ، فقولى ارسلنى ابى يقرئك السلام ويقول ان رضيت البرد فامسكه وان سخطته فرده .

فلما اتت عمر قال :

ـ بارك الله فيك وفى ابيك قد رضينا .

ورجعت أم كلثوم الى ابيها وقالت :

ـ ما نشر البرد ولا نظر الا الى .

فقال على :

ـ يا بنيتى انه زوجك .

وجاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى مجلس المهاجرين بالروضة ، وكان يجلس فيه المهاجرون الأولون ، فجلس اليهم ، وقال لهم !

ـ رفئونى !

فقـــالوا :

— بماذا يا امير المؤمنين ؟

قال :

— تزوجت ام كلثوم بنت على بن ابى طالب . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« كل نسب وسبب وصهر منقطع يوم القيامة الا نسبى وصهرى » . وكنت قد صحبته فأحببت ان يكون هذا ايضا .

سمع المهاجرون هذا من عمر ، فرفئوه . واصدق امير المؤمنين ام كلثوم اربعين الف درهم وفوض على العباس فى تزويج ام كلثوم من عمر رضى الله عنـــه .

ورزقت ام كلثوم بولد وبنت من عمر بن الخطاب . اما الولد فســـمى « زيدا » واما البنت فسميت « رقية » .

أما زيد وكان يسمى « ذو الهلالين » فقتل فى حرب كانت فى بنى عـدى ليلا ، وكان قد خرج لاصلاح ذات البين بينهم . فضربه خالد بن اسلم مولى عمر بن الخطاب فى الظلام ولم يعرفه ، فصرع وعاش اياما ومات هـو وامه فى وقت واحد . ولم يعقب ، فلم يدر ايهما مات قبل الآخر ، فلمـا وضع للصلاة ، قدم زيدا قبل امه مما يلى الامام ، وصلى عليهما عبد الله بن عمر ابن الخطاب وسعيد بن العاص امير الناس .

اما رقية بنت عمر ، فقد تزوجت ابراهيم بن نعيم النحام ، فولدت له جارية . وماتت الجارية وماتت امها ايضا ، فانقرض ولد ام كلثوم من عمر .

وتوفيت أم كلثوم رضى الله عنها بغوطة دمشق ، عقب محنة اخيـها الحسين رضى الله عنه ، ودفنت فى هذه القرية ، ثم تسمت القرية المذكورة باسمها ، وهى الآن المعروفة بقرية الست .

صورة وصفية

وصفت السيدة عائشة رضى الله عنها الزهراء البتول فقالت : « ما رايت احدا من خلق الله اشبه حديثا وكلاما برسول الله صلى الله عليـه وسـلم من فاطمة . وكانت اذا دخلت عليه اخذ بيدها فقبلها ورحب بها واجلسها فى مجلسه ، وكان اذا دخل عليها ، قامت اليه ورحبت به واخذت بيـده فقبلتهـا » .

وقد تشبعت بالأدب النبوى الكريم ، فكانت تتحرى تقوى الله ، وتتحرج فيما اعتقدته من اوامر الدين ، حتى ظنت ان اكل الطعام المطبـوخ يوجب الوضوء . فقد دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكل عـرقا ، فجاء بلال بالأذان ، فقام ليصلى ، فأخذت بثوبه فقالت :

ـ يا أبة ! الا تتوضأ ؟

فقـال :

ـ مم أتوضأ يا بنية ؟

قالت !

ـ مما مست النار .

قال النبى :

ـ أو ليس أطيب طعامكم ما مست النار ؟

فهى فيما تجهله تتحرج ولا تترخص وتؤثر الشدة مع نفسها علىالهوادة معهـا .

وقد ذكر غير واحد من الصحابة ، وذكرت السيدة عائشة ، انها كانت لشبه برسول الله فى مشيتها وحديثها وكلامها ، وزادت عائشة رضى الله عنهـا فقالت :

ـ ما رايت افضل من فاطمة غير أبيها .

كانت الزهراء شديدة الاعتزاز بانتسابها الى ابيها ، وكانت مفطورة على يقين التدين . كان من اعتزازها بالانتسـاب الى أبيهـا انها كانت تسر بمشابهة ابنائها لأبيها ، وكانت تذكر ذلك حين تدللهم وتلاعبهم . فلم يكن احب اليها من ان يقال لها ان اسباط رسول الله يشبهون رسول الله .

وكانت فطرة التدين فيها وراثة من ابوين ، كان حسبها ما ورثتـه من الرسول الأعظم وما تعلمته منه بالتربية والمجاورة ، ولكنها اضـافت اليه ما ورثته من أمها السيدة خديجة بنت خويلد الذى تصدى لعاهل اليمن غيرة منه على الكعبـة ، وابنـة عم ورقة بن نوفل الذى شغل بالدين فى الجاهلية حتى فرغ له حياته

نشأت فى بيت رسول كريم ، ورباها نبى عظيم ، بل ولم يزل يتعهـدها بتذكيرها بحق الله ، حتى بعد زواجها ، فقد روى انه صلى الله عليه وسلم كان اذا خرج الى صلاة الفجر ، يمر ببيت فاطمة الزهراء وينادى :

ـ السلام عليكم اهل البيت ورحمة الله وبركاته . الصلاة يرحمكم الله . « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا » .

وقد خصت الزهراء البتول من ابيها صلى الله عليه وسلم بأحاديث تدل على ان الرسول الأعظم كان يختصها بمحبته ويؤثرها بمودته ، وان لهـا موضعا فى نفسه ، ومكانا من قلبه .

عن مجاهد رضى الله عنه ، قال : خرج النبى صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيد فاطمة ، فقال : « من عرف هذه فقد عرفها ، ومن لم يعرفها ، فهى فاطمة بنت محمد ، وهى بضعة منى ، وهى قلبى ، وروحى التى بين جنبى فمن آذاها فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله تعالى » .

وعن ابى ايوب الأنصارى رضى الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا كان يوم القيامة جمـع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ثم ينادى مناد من بطنان العرش ان الجليل جل جلاله يقول : نكسوا رءوسكم وغضوا أبصاركم فان فاطمة بنت رسـول الله صلى الله عليه وسلم تريد ان تمر على الصراط » .

وعن أبى أيوب الانصارى رضى الله عنه قال :

ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان ملكا من السـماء لم يكن زارنى ، فاستأذن ربى فى زيارتى فبشرنى واخبرنى ان فاطمـة سـيدة نسـاء امتى .

عن على بن ابى طالب رضى الله عنه : دخل رسول الله صلى الله عليـه وسلم على على وفاطمة ، وأخذ بعضادتى الباب ، وقال : « السلام عليكم يأهل بيت الرحمة وموضع الرسالة ومنـزل الملائكة ، يا بنيـة ان الله سبحانه وتعالى اطلع على اهل الارض اطلاعه فاختار اباك فجعله نبيا ، ثم

اطلع الثانية فاختار منهم زوجك عليا فجعله لى اخا ووصيا . ثم اطلع الثالثة فاختارك وامك فجعلكما سيدتى النساء ، ثم اطلع الرابعة فاختار ابنيك فجعلهما سيدى شباب اهل الجنة . فقال العرش ، اى ربى ، ابنى نبيك ، وابنى وصى نبيك زينى بهما فهما يوم القيامة فى ضفتى العرش بمنزلة الشفتين من الوجه » .

* * *

السيدة فاطمة الزهراء قوية الشخصية ، ثابتة الفؤاد ، عاقلة لبيبة جزلة ، ورثت عن أبيها رسول الله صلى الله عليه وسلم الفصاحة فى القول والقدرة على التعبير والبيان ، وخير من وصفه بذلك عائشة رضى الله عنها حيث قالت : « ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرد كسردكم هذا، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل ، يحفظه من جلس اليه » . وهو صاحب كلام سليم فى منطق سليم ورزق من فصاحة الموضوع كفاء ما رزق من فصاحة اللسان وفصاحة الكلام .

قال الامام ابو الفضل احمد بن طاهر فى كتاب « بلاغات النساء » : « لما اجمع ابو بكر رضى الله عنه على منع فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ فدك ، وبلغ ذلك فاطمة لاثت خمارها على راسها واقبلت فى لمة من حفدتها تطأ ذيولها ما تخرم من مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا حتى دخلت على ابى بكر وهو فى حشد من المهاجرين والانصار فنيطت دونها ملاءة ثم انت انة اجهش القوم لها بالبكاء وارتج المجلس فأمهلت حتى سكن نشيج القوم وهدات فورتهم فافتتحت الكلام بحمد الله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاد القوم فى بكائهم فلما امسكوا عادت فى كلامها فقالت :

« لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » ، فان تعزوه تجدوه ابى دون نسائكم ، واخا ابن عمى دون رجالكم فبلغ النذارة صادعا بالرسالة ، مائلا على مدرجة المشركين، ضاربا لثجنهم (١) آخذا بكظمهم ، يهشم الأصنام وينكث الهام ، حتى هزم الجمع وولوا الدبر وتفرى الليل عن صبحه واسفر الحق عن محضه ، ونطق زعيم الدين وخرست شناشق الشياطين ، وكنتم على شفا حفرة من النار مذقة الشارب ونهزة الطامع وقبسة العجلان وموطىء الأقدام تشربون الطرق (٢) . وتقتاتون القد أذلة خاشعين تخافون ان يتخطفكم الناس من

(١) الثجن بسكون الجيم وتحريكها الطريق الوعر .
(٢) الطرق : الماء الذى بالت الابل فيه .

حولكم فانقذكم الله برسوله صلى الله عليه وسلم بعد اللتيا والتى وبعد ما منى ببهم الرجال وذؤبان العرب ومردة اهل الكتاب . (كلما اوقدوا نارا للحرب اطفأها الله) .. ونجم قرن للضلال وفغرت فاغرة من المشركين قذف بأخيه فى مهواتها فلا ينكفىء حتى يطأ صماخها بأخمصه ويخمد لهيبها بسيفه مكدودا فى ذات الله قريبا من رسول الله ، سيدا فى اولياء الله ، وانتم فى بلهنية وادعون آمنون . حتى اذا اختار الله لنبيه فى دار انبيائه طهرت خلة النفاق وسمل جلباب الدين ونطق كاظم الغاوين ونبغ خامل الأفاكين وهدر فنيق (١) . المبطلين فخطر فى عرصاتكم واطلع الشيطان راسه من مغرزه ، صارخا بكم ، فوجدكم لدعائه مستجيبين وللغرة فيه ملاحظين فاستنهضكم فوجدكم خفافا واحمشكم فالفاكم غضابا ، فوسمتم غير ابلكم ، واوردتموها غير شربكم ، هذا والعهد قريب والكلم رحيب والجرح لما يندمل .

ومضت تقول : « وانتم الآن تزعمون ان لا ارث لنا ، (افحكم الجاهلية يبغون ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون) . ايها المسلمة المهاجرة اابتز ارث ابى ؟ افى الكتاب ان ترث اباك ولا ارث ابى ؟ لقد جئت شيئا فريا ، فدونكما مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك ، فنعم الحكم الله والزعيم محمد والموعد القيامة وعند الساعة يخسر المبطلون ، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون .

ثم انحرفت الى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وهى تقول :

قد كان بعدك انباء وهنبثة
لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب
اذا فقدناك فقد الارض وابلها
واختل قومك فاشهدهم ولا تغب

هذه رواية لخطاب فاطمة الزهراء ، وفى الكتاب نفسه رواية اخرى مخالفة فى لفظها ومعناها للرواية السابقة ، وقبل ايراد الروايتين قال ابو الفضل :

« ذكرت لأبى الحسين زيد بن على بن الحسين بن على بن ابى طالب صلوات الله عليهم كلام فاطمة عليها السلام وقلت له ان هؤلاء — يشير الى قوم فى زمانه يغضون من قدر اهل البيت — يزعمون انه مصنوع وانه من كلام ابى العيناء .

(١) الجمل القوى .

فقال لي : رايت مشايخ آل ابي طالب يروونه عن آبائهم ويعلمونه أبناءهم وقد حدثنيه ابي عن جدي يبلغ به فاطمة عليها السلام على هذه الحكاية ورواه مشايخ الشيعة وتدارسوه بينهم قبل ان يولد جد ابي العيناء ، وقد حدث به الحسن بن علوان عن عطية العوفي انه سمع عبد الله بن الحسن يذكره عن أبيه . ثم قال أبو الحسن : وكيف يذكر هذا من كلام فاطمة فينكرونه وهم يروون من كلام عائشة عند موت ابيها ما هو اعجب من كلام فاطمة يتحققونه لولا عداوتهم لنا اهل البيت ؟ » .

لقد نشأت رضي الله عنها وهي تسمع كلام ابيها ابلغ البلغاء . وانتقلت الى بيت زوجها فعاشت سنين تسمع الكلام من امام متفق على بلاغته بين محبيه وشانئيه ، وسمعت القرآن يرتل في الصلوات وفي سائر الاوقات ، وتحدث الناس في زمانها بمشابهتها لأبيها في مشيتها وحديثها وكلامها ، ومنهم من لا يحابيها ولا ينطق في أمرها عن الهوى .

كانت الزهراء قانعة زاهدة ، فقد التزمت بالحكمة القائلة ان الزاهد من يحب ما يحب خالقه . ويبغض ما يبغض خالقه ، ويتحرج من حلال الدنيا ولا يلتفت الى حرامها .

اسند يحيى عن محمد بن قيس قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا قدم من سفر اتى فاطمة فدخل عليها واطال عندها المكث ، فخرج مرة في سفر وصنعت فاطمة مسكتين من ورق (بكسر الراء) وقلادة وقرطين وسترت باب البيت لقدوم ابيها وزوجها ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها ووقف اصحابه على الباب لا يدرون ايقيمون ام ينصرفون لطول مكثه عندها ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد عرف الغضب في وجهه حتى جلس على المنبر ، ففطنت فاطمة انه فعل ذلك لما راى من المسكتين والقلادة والستر ، فنزعت قرطيها وقلادتها ومسكتيها ونزعت الستر وبعثت به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالت للرسول (قل له تقرأ عليك ابنتك السلام وتقول لك : اجعل هذا في سبيل الله . فلما آتاه قال : قد فعلت، فداها أبوها - ثلاث مرات - ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد ، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء » .

كانت فاطمة البتول ذات ارادة صلبة ، وعزيمة قوية ، وقد بدا ذلك في محاجتها لزوجها ، ومحاجتها لأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، وفيما كان يتوخاه على من مرضاتها بصدد المبايعة قبل وفاتها . وقد يكون من

دلائل الارادة فى المرأة خاصة انها تلزم الصمت ولا تكثر الكلام ، وقد كان من عادة الزهراء انها لا تتكلم حتى تسأل ، وانها لا تعجل الى الحديث فيما تعلم فضلا عما تعلم . ولهذا انحصرت احاديثها عن ابيها فيما كانت تسمعه منه بين البيت والمسجد ، ولم تزد عليه .

قد ماتت الزهراء فى ربيع العمر . فى الثلاثين او قبل الثلاثين ، فاذا ظهر منها هذا الجد وهذا اليقين وهذه العزة وهذه الارادة وهى فى تلك السن الباكرة فذاك ولا ريب دليل على قوة كامنة يرجع اليها حين يفسر المفسرون خلائق بنيها وما عساهم قد استمدوه من هذا الميراث المكين (١) .

---

(١) عباس محمود العقاد : فاطمة الزهراء ، ص ٧٣ .

فى الحياة العامة

عاشت الزهراء تنعم بحب الرسول الاعظم ، وكانت دارها بجوار دار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال السمهودى فى « اخبار دار المصطفى » .. « ان بيت فاطمة رضى الله عنها فى الزور الذى فى القبر ، بينه وبين بيت النبى صلى الله عليه وسلم خوخة ، وكانت فيه كوة الى بيت عائشة رضى الله عنها ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قام اطلع من الكوة الى فاطمة ، فعلم بيرهم ،وان فاطمة رضى الله عنها قالت لعلى : ان ابنى امسيا عليلين ، فاو نظرت لنا ادما نستصبح به . فخرج على الى السوق فاشترى لهم ادما وجاء به الى فاطمة . فاستصبحت فأبصرت عائشة المصباح عندهم فى جوف الليل — وذكر كلاما وقع بينهما — فلما اصبحوا سألت فاطمة النبى صلى الله عليه وسلم ان يسد الكوة فسدها » .

كانت دار الزهراء بجوار دار الرسول ، حتى يستمتع برؤية أحفاده بعد ان حرم من الأبناء الذكور .. وفجاة .

شكا ابو الزهراء ، صلى الله عليه وسلم من مرض ألم به فى ليال بقين من صفر فى السنة الحادية عشرة للهجرة ، فحسب اهل البيت والمسلمون أنها وعكة طارئة لا تلبث ان تزول ، دون أن يجرؤ أحد على الظن بأنه مرض الموت !

غير ان الزهراء لم تكد تسمع بشكوى ابيها ، حتى خافت ، واجفلت وكأنما لسعتها نار ! ذلك انها ذكرت حديثا اسر به صلى الله عليه وسلم اليها منذ ايام ، وكانت قد جاءت لزيارته وهو عند السيدة عائشة رضى الله عنها.

جاءت الزهراء تمشى لا تخطىء مشيتها مشية ابيها رسول الهدى صلى الله عليه وسلم ، وما ان رات اباها عليه السلام حتى سألته متلهفة عليه :

— ما بك يا رسول الله ؟

— مرحبا بابنتى .

— ابت مالك !؟

فقبلها نبى الرحمة ، ثم اجلسها الى يمينه ، واسر لها حديثا فبكت ، ثم اسر لها حديثا آخر فضحكت ، وتعجبت عائشة من البكاء فالضحك ،

فقـــالت :

ــ ما رايت كاليوم فرحا اقرب الى حزن .

وقامت الزهراء ، فهرعت اليها السيدة عائشة تسالها !

ــ اخبرينى ما سارك ؟.

ولكن فاطمة أبت أن تكشف وقتئذ عما اسره لها رسول الله فقـــالت لعائشـــة :

ــ ما كنت لأفشى على رسول الله صلى الله عليه وسلم سره .

ولكن بعد وفاة الرسول ، ذكرت يوما ما أسربه اليها رسول الله ، فقالت انه قال لها :

ــ ان جبريل كان يعارضنى القرآن فى كل سنة مرة ، وانه عارضنى العام مرتين ، وما اراه الا قد حضر اجلى .

فبكت الزهراء . فاسر اليها .

ــ وانك أول أهل بيتى لحوقا بى ، ونعم السلف انالك .

وضحكت الزهراء ، فرحا بأنها ستكون أول أهل بيت رسول الله لحوقا به ، ثم عادت فبكت على أبيها .

واحضرت الزهراء ابنيها الحسن والحسين الى الرسول عليه السلام فقالت له :

ــ يا رسول الله هذان ابناك فورثهما شيئا .

فقال الرسول :

أما الحسن فان له هيبتى وسؤددى ، واما الحسين فان به جـراتى وجـــودى .

واشتدت وطأة المرض على الرسول ، وأقامت الزهراء الى جانبه تخدمه وتسهر عليه حانية متجلدة ، تتكلف الصبر ، ولا تكف عن الدعاء .

لكن تجلدها خانها حين رأته وقد اشتد به الوجع ، يأخذ الماء بيـده ويجعله على رأسه وهو يقول :

ــ واكرباه !

فتبكى الزهراء وتقول بصوت يفيض حزنا ولوعة :

ـ واكربى لكربك يا أبتاه !

فرد عليها وهو يرنو اليها فى عطف .

ـ لا كرب على أبيك بعد اليوم !

وحم القضاء ، ولحق الرسول بالرفيق الأعلى ، وترك الزهراء من بعده يتيمة حزينة .

وبكت ورثته قائلة :

أبتاه ، يا أبتاه .. أبتاه

اجاب ، ربا دعاه .. يا أبتاه

الى جبريل ننعاه .. يا أبتاه

جنة الفردوس .. مأواه .. يا أبتاه

من ربه ما أدناه .. يا أبتاه

وتجهز نعش رسول الله ، ونقل الى قبره الشريف ، وجاء أنس بن مالك يسألها الصبر الجميل ، فقالت له :

ـ يا انس ! كيف طابت انفسكم ان تحثوا على رسول الله التراب .

واسرعت الى قبر الرسول ، وأخذت قبضة من تراب القبر فوضعتها على عينيها ، وبكت وأنشأت تقول :

ماذا على شـــم تربة أحمد

أن لا يشم مدى الزمان غواليا

صبت على مصـــائب لو أنها

صبت على الأيام صرن لياليـا

وبكت ، فبكى الناس لبكائها ، وتقطعت قلوبهم وهم يرونها تفلت التراب من بين أناملها فى حركة يائسة ، ثم تحدق فى يديها الفارغتين ، وتمضى ، كمن فرغت من الدنيا .

وظلت الزهراء حزينة على أبيها ، ما ضحكت بعد وفاته مرة واحـدة حتى لحقت به .

كان أول ما شغل الناس بعد وفاة الرسول ، من الذى يخلف الرسـول عليه السـلام ؟

اجتمع المهاجرون والأنصار فى سقيفة بنى ساعدة يتشاورون .. وكادت الفتنة ان تنشب اظافرها فى المسلمين .. فالخزرج بزعامة شيخها سعد بن عبادة تطلب الامارة ، ثم نصح لهم عويم بن ساعدة باختيار ابى بكر للخلافة فاعرضوا عنه ونبذوه . ثم خطر لذى راى منهم أن يقسمها شطرين : امير من الأنصار وأمير من المهاجرين ، وما برح سعد بن عبادة على جلالة شأنه فى قومه نافرا من البيعة لأبى بكر بعد انعقـــادها وهو يأبى الا ان يستبد الأنصار بهذا الرأى دون الناس فانه لهم دون الناس » . ثم أصر على ابائه حين انفض جمع السقيفة وجاءه الرسل يدعونه للمبايعة فعاوده الغضب وقال لهم : « أما والله حتى ارميكم بما فى كنانتى من نبل واخضب سنان رمحى » وناشـــدوه الا يشق عصا الجمـــاعة فعاد يقول : « انى ضـــاربكم بسيفى ما ملكته يدى ، مقاتلكم بولدى واهل بيتى ومن اطاعنى من قومى .. وايم الله لو ان الجن اجتمعت لكم مع الانس ما بايعتكم حتى أعرض على ربى » .

وكان هناك خطر آخر ، هو خطر الفتنة التى راح ابو ســفيان يوقد نارها بين على والعباس وبين بنى هاشم وسائر بطون قريش ، يعــد قوما بنصرة بنى امية ونصرة قريش من ورائها ، ويوسوس لقوم آخرين بمثل هذا الوعد ، وما كان يستهدف انصاف بنى هاشم ولا أن يؤيد الانصار ، وانما أراد الوقيعة التى يخذلهم بها جميعا ويخرج منها بالسيادة الأولى التى كانت له على قريش فى الجاهلية .

كان على بن أبى طالب فى تلك الساعة العصيبة الى جوار الجثمان الطاهر المسجى فى حجرته ، فدخل عليه أبو سفيان وقال :

ـ يا أبا الحسن ، هذا محمد قد مضى الى ربه ، وهذا تراثه لم يخرج عنكم ، فأبسط يدك ابايعك !

وقال عمه العباس :

ـ يابن اخى ، هــذا شيخ قريش قد اقبل ، فامدد يدك ابايعك ويبايعك معى . فأنا ان بايعناك لم يختلف عليك أحد من بنى عبد مناف ، واذا بايعك عبد مناف لم يختلف عليك قرشى ، واذا بايعتك قريش لم يختلف عليك بعدها أحد من العرب .

اجاب على :

ـ لا والله يا عم ، اني لأكره أن ابايع من وراء رتاج .

وما لبث ان دخل ابو ذر الغفارى وبعض انصار على ، ونقلوا اليه ما كان من امر بيعة السقيفة ، وقالوا له انه اولى بأمر الخلافة من أبى بكر واخذوا يعجمون عيدان الراى ، فانتهوا الى أن يعيدوا النظر فى امر بيعة السقيفة .

وقال أبو سفيان :

ــ اما والله انى لأرى عجاجة لا يطفئها الدم . يا لعبد مناف فيم أبو بكر من امركم ؟ اين المستضعفان (على والعباس) ؟

واتجه أبو سفيان الى على قائلا :

ــ ابسط يدك ابايعك . فوالله لو شئت لأملانها على أبى فضيل (ابى بكر) خيلا ورجلا . ولكن عليا راى ان فى مقال أبى سفيان نذير تأليب وفتنة ، فقال له :

ــ طالما غششت الاسلام واهله ، فما ضررتهم شيئا ، لا حاجة لنا الى خيلك ورجلك . انك تريد امرا لسنا من اصحابه .

واتجه ابو سفيان الى العباس ، وقال له :

ــ انك والله لاحق بميراث ابن اخيك .

فرده العباس كما رده على .

واخذ عمر بن الخطاب الزبير بن العوام على بن ابى طالب الى أبى بكر الصديق ، وهناك ثار الحديث من جديد حول بيعة السقيفة . فأبو بكر لم يختره الانصار الا لانه من المهاجرين ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرا وكان اكبر المهاجرين سنا . وهو الذى اختاره الرسول ليؤم الناس فى الصلاة ، ولكن عليا اصر على انه أحق بالأمر ، واحتج بنفس المنطق وقال :

ــ انا احق بهذا الأمر منكم ، لا ابايعكم وأنتم أولى بالبيعة لى ، أخذتم هذا الأمر من الأنصار ، واحتججتم عليه بالقرابة من رسول الله ، فأعطوكم القادة وسلموا اليكم الامارة ، وانا احتج عليكم بمثل ما احتججتم به على الانصار .

وعاد على .. وتحدث الى بعض الأنصار والمهاجرين ، ولكنهم رفضوا أن ينقضوا بيعة تمت ، ولم يتبعه الا القليل .

وعاد على الى داره ، وهو يسبح فى بحار من الفكر .. وبينما هو كذلك انطلق صوت المؤذن :

الله أكبر الله أكبر .. الله اكبر .. أشهد أن لا اله الا الله .. اشهد ان لا اله الا الله .. أشهد أن محمدا رسول الله .. اشهد أن محمدا رسول الله .

واتجه على رضى الله عنه الى الزهراء وقال لها :

– اتحبين أن يزول هذا النداء من الوجود ؟

– لا .

– اذن سأبايع أبا بكر ..

وتمت البيعة لأبى بكر ، والتاريخ يسجل اروع صفحات الايمان العميق والاخلاص المجرد .

بايع على بن أبى طالب رضى الله عنه أبا بكر الصديق ، وكاد الخلاف ينتهى بانطواء الحديث عن الخلافة ، لولا خلاف آخر كان بين السيدة فاطمة الزهراء من ناحية ، وبين أبى بكر من ناحية اخرى حول فدك .

وفدك قرية بينها وبين المدينة يومان أو ثلاث ، كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقسم فيئها بين آل بيته وفقراء المسلمين ، فلما قضى رسول الله ، وبويع ابو بكر ، أجمع على منع الزهراء فدك . فارسلت فاطمة الى أبى بكر تسأله ميراثها فيها وفيما بقى من خمس خيبر ، فقال ابو بكر :

– ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : اننا معشر الانبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة . واني والله لا اغير شيئا من صدقة رسول الله عن حالها التى كان عليها .

وقد احتجت الزهراء عليه بقوله تعالى عن نبى من انبيائه – زكريا عليه السلام – « يرثنى ويرث من آل يعقوب » وقوله تعالى : « وورث سليمان داود » .

فقال أبو بكر :

– يا بنت رسول الله . انت عين الحجة ومنطق الرسالة لا يدلى بجوابك ولا أوقعك عن صوابك . ولكن هذا أبو الحسن بينى وبينك هو الذى أخبرنى بما تفقدت ، وانبانى بما اخذت وتركت .

وجاء فى شرح نهج البلاغة لابن ابى الحديد : ان ابا بكر قال : يابنة رسول الله ، والله ما ورث ابوك دينارا ولا درهما وانه قال : ان الأنبياء لا يورثون .

فقالت : ان فدك وهبها لى رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال : فمن يشهد ذلك ؟

فجاء على بن أبى طالب فشهد وجاءت أم أيمن فشهدت أيضا ، فجاء عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف فشهدا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقسمها .

فقال ابو بكر : صدقت يابنة رسول الله ، وصدق على ، وصدقت أم ايمن ، وصدق عمر ، وصدق عبد الرحمن بن عوف ، وذلك ان مالك لأبيك، كان رسول الله يأخذ من فدك قوتكم ويقسم الباقى ويحمل منه فى سبيل الله ، فما تصنعين بها ؟

قالت : اصنع بها كما يصنع أبى !

قال : فلك على الله أن اصنع كما يصنع فيها أبوك

قالت : الله لتفعلن .

قال : الله لأفعلن .

قالت : اللهم أشهد .

وكان أبو بكر يأخذ غلتها فيدفع اليهم منها ما يكفيهم ويقسم الباقى ، وكان عمر كذلك ، ثم كان عثمان كذلك ، ثم كان على كذلك » .

وفى خلال الخلاف على هذهالقضية قال عمر لأبى بكر :

ـ انطلق بنا الى فاطمة فانا قد أغضبناها . فانطلقا فاستأذنا عليها فلم تأذن لهما ، فأتيا عليا فكلماه ، فادخلهما . فلما قعدا عندها حولت وجهها الى الحائط فسلما عليها فلم ترد عليهما السلام . فتكلم أبو بكر فقال :

ـ يا حبيبة رسول الله ، والله ان قرابة رسول الله أحب الى من قرابتى، وانك لأحب الى من عائشة ابنتى ، ولوددت يوم مات أبوك انى مت ولا أبقى بعده ، افترانى أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وامنعك حقك وميراثك فى رسول الله ؟ الا انى سمعت أباك رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا نورث . ما تركنا فهو صدقة .

فقالت : أرأيتكما ان حدثتكما حديثا عن رسول الله تعرفانه وتفعلان به ؟

قالا : نعم .

فقالت : نشدتكما الله الم تسمعا رسول الله يقول : رضاء فاطمة من رضائى وسخطها من سخطى ؟

قالا : نعم ، سمعناه من رسول الله .

قالت : فانى أشهد الله وملائكته انكما أسخطتمانى وما ارضيتمانى ، ولئن لقيت النبى لأشكونكما اليه .

فقال أبو بكر : انا عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة .

ثم انتحب يبكى حتى كادت نفسه تزهق .. ثم خرج فاجتمع اليه الناس فقال لهم :

— يبيت كل رجل منكم معانقا حليلته مسرورا بأهله وتركتمونى وما انا فيه ؟ لا حاجة لى فى بيعتكم ، اقيلونى بيعتى .

ورفض المسلمون أن يقيلوا ابا بكر من البيعة خشية الفتنة .

والذى يهمنا من قضية فدك ، انها تدل بما لا يدع مجالا للشك على أن الزهراء رضى الله عنها كانت حينما تؤمن بحق . تتمسك به ، ولا تفرط فيه .. وهذا خلق لا يتوافر الا فيمن كانت لها الشخصية القوية ، والارادة الصلبة ، والعزيمة المتينة ، والايمان العميق .

وفاتها

حزنت الزهراء حزنا شديدا على فراق الرسول . حتى روى أنهـا لم تبتسم بعد وفاته ، وزادها الحزن نحولا على نحول ، وضعفا على ضعف، فخذلت جوارحها ومشى اليها الموت وهى ما تزال فى ميعة الصبا ، وربيع العمر .

وشعرت رضى الله عنها ، بقرب نهاية الأجل ، وانتقالها الى الرفيق الأعلى .. فنادت بنيها فعانقتهم وقبلتهم وملأت عينيها منهم ، ثم دعت اليها أسماء بنت عميس فقالت لها :

ــ يا أمه ، أسكبى لى غسلا .

واغتسلت الزهراء كأحسن ما كانت تغتسل ، ثم قالت لها :

ــ يا امه ائتينى بثيابى الجدد .

وجاءتها أسماء بثيابها الجدد ، فلبستها ، ثم قالت لها :

ــ قد اغتسلت فلا يكشفن لى أحد كتفا ، أتستطيعين أن توارينى بشىء؟

فأجابتها :

ــ انى رأيت الحبشة يعملون السرير للمرأة ، ويشدون النعش بقوائم السرير فعمل لها نعشها قبل وفاتها ، ونظرت اليه وقالت :

ــ سترتمونى ستركم الله .

وتبسمت رضى الله عنها ، ولم تر مبتسمة بعد وفاة أبيها الا ساعتها .

واغمضت عينيها ، ونامت ، وانتقلت من الدار الفانية الى الدار الباقية.

وكانت وفاتها ــ على ارجح الأقوال ــ ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من رمضان من العام الحادى عشر للهجرة (٢٢ نوفمبر ٦٣٢ ميلادية) ودفنت بالبقيع ليلا حسب وصايتها اذ انه صلى الله عليه وسلم كان قد دفن ليلا أيضا ، وصلى عليها على بن ابى طالب والفضل بن العباس .

وحزن المسلمون على وفاتها . يقول ابن عباس :

« **ولما علمت المدينة بوفاة السيدة فاطمة الزهراء ، ارتجت بالبكاء من** الرجال والنساء ودهش الناس كيوم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

اما على رضى الله عنه فقد حزن عليها حزنا لازمه منذ وفاتها ، فقد عاد بعد دفنها الى البيت ، فاستوحشه ، وجزع لفقدها ، ثم أخذ يقول :

أرى علل الدنيا على كثيرة
وصاحبها حتى الممات عليل
لكل اجتماع من خليلين فرقة
وكل الذى دون الفراق خليل
وان افتقادى فاطمة بعد احمد
دليل على أن لا يدوم خليل

* * *

وقد طويت آخر صفحة من تاريخ حياة فاطمة الزهراء ولكن ظلت شخصيتها مقدسة عند المسلمين ، فهى فضلا عن انها بضعة الرسول الأعظم وحبيبته وريحانته ، فهى ايضا الصورة المثالية للام الفاضلة ، والسيدة الكاملة .

السيدة نفيسة

رضى الله عنها

مولدها ونشأتها

الشريفة الطاهرة ، البضعة الناضرة ، والزهرة الزاهرة ، سليلة النبوة ، وفرع الرسالة ، كريمة العنصر والمنبت ، زكية المغرس والمحتد ، نفيسة ، بنت الحسن الأنور بن زيد الأبلج بن الحسن السبط بن علي بن ابي طالب رضى الله عنهم .

قال ابن عباس رضى الله عنهما قال النبى صلى الله عليه وسلم :

« خلق الناس من اشجار شتى ، وخلقت انا وعلى بن ابى طالب من شجرة واحدة . فما قولكم فى شجرة انا اصلها ، وفاطمة فرعها ، وعلى لقاحها ، والحسن والحسين ثمارها ، وشيعتنا أوراقها . فمن تعلق بغصن من اغصانها ساقه الى الجنة ، ومن تركها هوى الى النار » .

أبوها الحسن الأنور ، شيخ بنى هاشم فى زمانه ، واليه انتهت الرياسة على بنى الحسن فى زمنه ، كان اماما ، وعالما جليلا ، من كبار اهل البيت ، ومن سروات العلويين وأشرافهم وأجوادهم ولى المدينة من قبل الخليفة العباسى ، ابى جعفر المنصور خمس سنوات . ثم حبسه فى بغداد خوفا منه لدسيسة القيت فى اذنه كانت كاذبة خاطئة وما زال فى حبسه حتى مات المنصور فأخرجه ابنه وخليفته المهدى وأكرمه واعاده الى منصبه ورد له ما كان قد صادر ابوه من أمواله وممتلكاته .

ولما ولى الحسن المدينة للمرة الثانية كان بها رجل فقير يقال له « ابن أبى ذئب » فقربه الحسن واحسن اليه ، وما زال يرعاه حتى صلحت حاله ، وكثر ماله ، ثم قربه الحسن الى المنصور ، فلما اصبحت له حظوة عند الخليفة شرع يتكلم فى حق الحسن ، وينم عليه ويدس له ، حتى قال للمنصور عنه : انه يطمع للخلافة ! فاستقدمه المنصور وحبسه .

ولما عاد الحسن الى منصبه فى ولاية المدينة معززا مكرما منعما عليه بالجزيل من الأموال ، ظن ذلك الرجل « ابن أبى ذئب » ان الحسن منتقم منه ، لكن الحسن كان أسمى خلقا ، فقد أخذه بالعفو والاحسان ، فلم يخاطبه فيما قدمت يداه ، ولا عاتبه ، بل ارسل اليه بهدية عظيمة ، فكان آية فى مكارمه وعلو شمائله .

ومن كريم خلقه ، انه اتى بشاب مخمور ، اثناء ولايته للمدينة ، فقال له الشاب :

ـ يا ابن رسول الله لا اعود . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم . وانا ابن ابى أسامة بن سهل بن حنيف . وقد كان أبى مع أبيك كما علمت .

فقـــال :

ـ صدقت ، هل انت عائد !

قال :

ـ لا والله .

فأقاله وامر له بخمسين دينارا ، وقال له تزوج بها . فتاب الشاب وحسنت سيرته ، فوالاه الحسن بالاحسان .

وقد قصده الشعراء والمادحون بقصائدهم لكرمه وغزير علمه ، فما خيب لاحد منهم فيه أملا .

وكان جم التواضع . دخل عليه أحد الشعراء وانشده : « الله فرد وابن زيد فرد » فغضب وقال : هلا قلت : « الله فرد وابن زيد عبد ؟ » ونزل عن سريره والصق خده بالأرض .

فعل هذا اسوة بالرسول الاعظم . كان اذا عظمه احد اصحابه أو وفوده مرغ خده فى التراب .

وكان رضى الله عنه تقيا صالحا مجاب الدعوة ، ختم حياته بأحسن خاتمة ، حيث مات وهو فى طريقه الى الحج . ولما كان موته قريبا من مكة فقد نقل اليها ودفن بها .

امها ، فأم ولد ، وليس ذلك بضائرها ، ولا ما ينقص من قدرها ، فقديما تسرى أبو الأنبياء ابراهيم عليه الصلاة والسلام هاجر فولدت له اسماعيل عليه السلام ، فكان من نسله رسول الهدى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

وكان أبوها الحسن من أم ولد ، وكذلك زيد بن على رضى الله عنهما ، من أم ولد . وقد دخل على هشام بن عبد الملك ، فقال له :

ـ بلغنى انك تحدث نفسك بالخلافة ، ولاتصلح لها لانك ابن امة .

فقال له : اما قولك انى احدث نفسى بالخلافة ، فلا يعلم الغيب الا الله ، واما قولك انى ابن امة ، فاسماعيل ابن امة اخرج الله من صلبه ، خير البشر محمدا صلى الله عليه وسلم ، واسحق ابن حرة ، أخرج من صلبه القردة والخنازير .

فقال له : قم . فقال : اذا لا ترانى الا حيث تكره . فلما خرج من الدار قال : ما احب احد الحياة الا ذل . فقال سالم مولى هاشم : بالله لا يسمعن هذا الكلام منك احد .

وكان زيد رضى الله عنه ، من احسن بنى هاشم عبادة . قال ابو حنيفة :

ـ شاهدت زيد بن على كما شاهدت أهله فما رأيت فى زمانه افقه منه ولا أعلم ، ولا اسرع جوابا ولا ابين قولا ، لقد كان منقطع القرين ، وكان يدعى بحليف القرآن .

فلا شية فى أن تكون السيدة الشريفة نفيسة رضى الله عنها من أم ولد ، فان لها من آبائها الكرامة والجلالة ، وهى فرع شجرة الرسالة ، وعضو من اعضاء الرسول ، وبضعة من الامام والبتول ، وهى السيدة العفيفة ، الطاهرة العابدة .

استهل نورها ، وظهر ضياؤها ، بولادتها بمكة المكرمة فى يوم الاربعاء الحادى عشر من شهر ربيع الأول سنة خمس واربعين ومائة من الهجرة . وما ان بدت اشراقتها حتى فرحت بها امها ، واستبشر بها ابوها ، فقد عقد اليمن بناصيتها ، وامتزج الخير بانفاسها ، فانطلقت السنة الأسرة بحمد الله على هذه النعمة الجليلة التى انعم بها عليهم ورزقهم اياها .

نشأت رضى الله عنها ، نشأة نبوية ، فانها بعد ان درجت بمكة ، تحوطها العزة والكرامة ، استصحبها ابوها ، وقد اوفت الخامسة من عمرها ، الى المدينة المنورة ، وعاشت معه بداره ، وهو الأطم الذى كان قد ابتاعه . فهدمه ، وبناه قصرا ، سمى بالحمراء .

وقد اخذ ابوها يلقنها ما تحتاج اليه من امور دينها ، ودنياها . وكانت تذهب الى المسجد النبوى تسمع من شيوخه ، وتتلقن الحديث والفقه من علمائه ، وقد سمعت من الامام مالك بن انس موطاه .

حكى الحافظ ابو عبد الله بن برعش فى كتابه « تحفة الاشراف » ان الامام زيد الأبلج رضى الله عنه جد السيدة نفيسة كان يأخذ بيد ولده الحسن

الانور والد السيدة نفيسة ويدخل الى قبر جده المصطفى عليه الصـــــلاة والسلام ويقول :

ـ يا سيدى يا رسول الله ، هذا ولدى الحسن انا عنه راض .

ثم يرجع وينصرف ، فلما كان فى بعض الليالى ، نام زيد فراى الرسول صلى الله عليه وسلم . وهو يقول له :

ـ يا زيد . انى راض عن ولدك الحسن برضاك عنه . والحق ســبحانه وتعالى راض عنه برضاى عنه .

فلما ولى الحسن المدينة ، كان يذهب الى قبر جده رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأخذ بيد ابنته نفيسة ، وهما بداخل المقام الشريف ويقول :

ـ يا سيدى يا رسول الله . انى راض عن ابنتى نفيســة . ويرجـــع فما زال يفعل هذا حتى راى الرسول صلى الله عليه وسلم فى المنام وهــو يقــول له :

ـ يا حسن انا راض عن ابنتك نفيسة برضاك عنها . والحق ســبحانه وتعالى راض عنها برضاى عنها .

زواجها

بلغت السيدة نفيسة الخامسة عشرة من عمرها ، فرغب فيها شباب آل البيت النبوى من بنى الحسن ، وبنى الحسين رضى الله عنهم ، كما تهافت على خطبتها الكثير من شباب اشراف قريش لما عرفوه من خيرها وبرها ودينها وصلاحها وما نشأت عليه من عبادة ربها ، واقبالها على طلب العلم . فكان ابوها يأبى عليهم ، اجابة طلبهم ، ويردهم ردا جميلا .

ثم جاء السيد اسحق المؤتمن بن جعفر الصادق ، يخطبها من أبيها ، فصمت ولم يرد عليه جوابا .

فقام اسحق من عنده ودخل الحجرة النبوية الشريفة وقال بعد السلام :

ــ يا رسول الله انى خطبت نفيسة بنت الحسن من أبيها ، فلم يرد على جوابا واننى لم أخطبها الا لخيرها ودينها وعبادتها . ثم خرج من الحجرة الشريفة .

فرأى والدها النبى صلى الله عليه وسلم تلك الليلة فى المنام فقال له :

ــ « يا حسن زوج نفيسة لاسحق المؤتمن » .

فعقد له عليها فى يوم الجمعة الخامس من شهر رجب سنة ١٦١ هـ .

واسحق هو بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين ابن الحسين رضى الله عنهم .

وكان اسحق من اهل الفضل والاجتهاد والورع والصلاح ، روى عنه الحديث ، وكان ابن كاسب بن يعقوب اذا حدث عنه يقول : « حدثنى الثقة الرضى اسحق بن جعفر » . وقد اخذ اسحق كثيرا من أبيه جعفر الصادق الذى كان اماما نبيلا ، وعالما جليلا ، أخذ الحديث عن أبيه وحده وعين واليا على المدينة من قبل العباسيين بعد ذلك بزمن .

وكان جعفر ، ابو اسحق ، ثقة لا يسأل عن مثله ، روى عنه الكثير من افاضل الرواة قال ابن ابى حازم : كنت عند جعفر الصادق يوما واذا بسفيان الثورى على الباب فقال : ائذن له . فدخل ، وقال له جعفر :

ــ يا سفيان . انك رجل يطلبك السلطان فى بعض الأحيان ، وتحضر عنده ، وانا اتقى السلطان . فأخرج عنى غير مطرود .

فقال له سفيان : حدثنى حديثا اسمعه منك واقوم .

فقال : اليك هذا الحديث .

« حدثنى ابى عن جدى عن ابيه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من انعم الله عليه نعمة فليحمد الله ، ومن استبطأ الرزق فليستغفر الله ، ومن حزبه أمر فليقل لا حول ولا قوة الا بالله .

ثم قال خذها يا سفيان . ثلاثا وأى ثلاث ، فانصرف سفيان بما نال .

وكان جعفر رجلا شجاعا مهيب الجانب . راجح العقل ، متقد الذهن . كثير المناقب والكرامات . وكان مجاب الدعوة اذا سأل الله شيئا لا يكاد يتم قوله الا وهو بين يديه .

ذاك هو اسحق المؤتمن اخذ عن ابيه جعفر الصادق كثيرا من علومه وآدابه واخلاقه حتى اصبح له شأنه ومقامه .

كان لهذا الزواج السعيد الموفق اثره فى مجرى حياة هذه السيدة الشريفة ، فقد كان متجاوبا مع ما نشأت عليه من حب لله ، وانصراف الى طاعة الجليل جل جلاله .

وبزواج اسحق المؤتمن من السيدة نفيسة اجتمع فى بيتها نوران : نور الحسن ونور الحسين رضى الله عنهما .

وقد ولدت منه السيدة نفيسة ابا القاسم وام كلثوم ولم يعقبا .

مكث اسحق المؤتمن بعد وفاة السيدة نفيسة رضى الله عنها زمنا ليس بالكثير ، ثم توفى ودفن بالمدينة المنورة .

فى رحاب خليل الرحمن

قالت زينب بنت يحيى المتوج : « ان عمتى نفيسة كانت تقرأ القرآن وتبكى وتقول :

« الهى وسيدى يسر لى زيارة خليلك ابراهيم عليه السلام » .

كانت تتطلع الى زيارة هذا النبى العظيم ، والرسول الكريم ، الذى كان مثلا رائعا فى قوة العقيدة وجلال التضحية ، وروعة الايمان .

شاء الله اختبار يقينه وايمانه ذلك الاختبار الدقيق ، فأمره بذبح ولده اسماعيل ، فصدع بأمر ربه ، ونجح فيما امتحن فيه نجاحا باهرا .

ولما مات اسكن الله روحه السماء السابعة ، كما جاء فى قصة الاسراء والمعراج على حين اسكن غيره من الانبياء والمرسلين السابقين سموات ادنى .

وامر الله تعالى ابراهيم واسماعيل ببناء الكعبة فيبنيانها ، ويأمره ان يؤذن فى الناس بالحج فيفعل ويدوى صوته فى الآفاق ولا يزال يدوى . .

وهو ابو الانبياء انه ابو ابيها محمد بن عبد الله رسول الله ، وان له بشارة به قال الرسول صلى الله عليه وسلم : انا دعوة ابراهيم عليه السلام حيث يقول : « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم » .
وفى حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام :

« انا دعوة ابراهيم ، وبشرى عيسى ، ورؤيا امى آمنة » .

ورحلت الى الشام لزيارة ابراهيم عليه الصلاة والسلام . قالت السيدة نفيسة رضى الله عنها :

« ما ان بلغت المقام الكبير والضريح العظيم حتى اجهشت بالبكاء . بكاء السرور لتحقيق امنيتى فى زيارة الخليل ثم جلست فى خشوع أقرأ من آيات الله ما ورد فى خليل الرحمن .

لما كانت قراءتى فى تدبر وتفكر وخشوع وخضوع ، احسست حينئذ احساسا يقرب من المادية ، ان الخليل أمامى ، وحينئذ خفق قلبى . وخشع بصرى وقلت :

« يا جدى الاكبر . جئت اليك بجسدى وروحى ، وقد جاءت روحى من قبلى . فهل احظى برضاك ، وصالح دعاك، وتوجيهاتك الشريفة لى، حتى اتعبد لآخر لحظة فى حياتى .

وحينئذ سمعت صوتا مجلجلا يقول :

ــ يا ابنتى يا نفيسة ابشرى فانك من الصالحات القانتات . وانك باذن الله موفقة . الا اننى اوصيك بان تقرئى سورة المزمل وتتدبرى معنـــاها . وستعلمين طرق العبادة التى لا مشقة فيها لان الله لا يكلف نفسا الا وسعها. وانت يا ابنتى تتعبدين الى درجة الارهاق ، الذى يضنى جسدك . ومع ذلك تتحاملين على نفسك وتغرقين فى العبادة .

يا ابنتى : اقرئى قول الله تعالى لرسوله الكريم « **ان ربك يعلم انك تقوم ادنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك** . . الى آخر سورة المزمل (١) » . وقد جعل الله العبادة فى الليل اختيارية بعد ان كانت اجبارية لان الله يعلم ان من عباده من يجاهد فى سبيل الله ويسعى لنيل رزقه. ولا بد له من الراحة ليقوم بعمله هذا . والجهاد عبادة والسعى فى ســبيل الرزق عبادة . وادارة شئون المنزل للسيدات عبادة .

اذكرى ذلك وارحمى نفسك . واعطيها قسطا من الراحة . لتقوى على العبادة من غير ارهاق مؤلم . واعلمى انك موفقة . وانك مباركة وانك فى الصف الأول بين الصالحين والصالحات . وكونى فى جميع خطواتك القدوة الصالحة لغيرك ليقتدى بك من اراد الله له الخير والسعادة .

وحينئذ قلت : يا جدى العظيم ، فقال : أستغفر الله .

قلت : يا جدى الاكبر . سانفذ هذه التوجيهات ، وارجو من روحك الطاهرة ان تهب روحي صفاء حتى ابلغ ما اتمناه لنفسى من القربى الى الله . حتى القاه وهو عنى راض . وهذه هي امنيتى التى لا امنية بعدها .

فقال : يا ابنتى ابشرى فان الله قد استجاب دعواتك . ولن انســـاك حتى نلتقى فى عالم الروح . فى عالم الخالدين ثم بين يدى الله رب العالمين، يوم تجزى كل نفس ما عملت ، والعاقبة للمتقين (٢) .

---

(١) تقول السيدة نفيسة رضى الله عنها ان جميع الانبياء والمرسلين قد وهبهم الله حفظ كتابه المبين بقدرته وباللغة التى نزل بها وهى العربية . وهذا اختصاص للانبياء فى برزخهم.

(٢) محمد شاهين حمزة : السيدة نفيسة ، ص ٥٥ ــ ٦٢ .

صورة وصفية

كانت السيدة نفيسة رضى الله عنها ، من السائحات ، العابدات ، نشأت فى النسك ، والاخلاص لربها ، تصوم النهار ، وتقوم الليل ، باعت نفسها لله ، ووقفت حياتها ولذاذاتها على نهوضها بطاعة الله .

قالت زينب بنت يحيى المتوج : خدمت عمتى نفيسة اربعين سنة ، فما رأيتها نامت الليل ، ولا افطرت بالنهار ، فقلت لها :

ــ اما ترفقين بنفسك يا عمتى ؟

فاجابتنى :

ــ كيف ارفق ، وان امامى لعقبات لا يقتحمها الا الفائزون الصابرون المصابرون ؟

وكانت هى بالمدينة المنورة لا تفارق حرم جدها المصطفى عليه الصلاة والسلام قارئة ، ذاكرة باكية ، راكعة ساجدة ، ضارعة داعية . وقد حجت الى بيت الله الحرام ، ثلاثين حجة ، اكثرها مشيا على الاقدام ، تحببا فى طاعة الله ، وتقربا اليه حتى تظفر منه بالجزاء الأوفى .

وكانت ــ عليها رضوان الله ــ تجزئها الوجبة : الاكلة الواحدة فى اليوم والليلة ، بل ربما اجزأتها زمنا اطول من يومها وليلتها .

قالت زينب بنت يحيى المتوج : كانت عمتى نفيسة تأكل فى كل ثلاثة ايام اكلة واحدة ، وكانت لها سلة معلقة ، امام مصلاها ، فكانت كلما اشتهت شيئا وجدته فى السلة وكنت أجد عندها ما لا يخطر بخاطرى ، ولا اعلم من اين يأتى فعجبت من ذلك ، فقالت :

يا زينب من استقام مع الله تعالى ، كان الكون بيده وفى استطاعته .

كانت رضى الله عنها ، كريمة الخلق ، شريفة الطبع ، غراء المكرمات ، فقد صاغها الله من معدن كريم ، وانبتها نباتا حسنا ، فجمعت خلال الفتوة والمروءة ، فكانت معطاءة فياحة ، فياضة نفاحة جمة الميزات كثيرة الصلات ، وهى مع هذا زاهدة متقشفة ، قد مالت عن زخارف الحياة .

وهب لها احد الامراء، مائة الف درهم وقال : خذى هذا المال شكرا لله تعالى . لتوبتى . فاخذته . وصرته صررا بين يديها وفرقت الصرر عن آخرها وكان عندها بعض النساء، فقالت لها : يا سيدتى . لو تركت لنا شيئا من هذه الدراهم لنشترى به شيئا فنفطر عليه ؟ !

فقالت لها : خذى غزلا غزلته بيدى فبيعيه بما نشترى به طعاما نفطر عليـــه .

فذهبت المرأة وباعت الغزل وجاءت بما افطرت به هى واياها . ولم تأخذ من المال شيئا فهى الجوادة الكريمة ، وهى من قوم يؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة . نشأت زاهدة فى الدنيا . لم تمل بها زخارف الحيـــاة الدنيا . وما كانت تلتفت وابوها امير المدينة له قصوره ، وحدائقه وماله الى شىء من اولئك . بل مالت بطبعها منذ صغرها الى حياة الـعـــد عن بهرج الحياة وزينتها مقبلة على اخراها ، فالدنيا الى نفاد . وما عند الله باق .

عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« يا ابا هريرة : الا اريك الدنيا جميعها ، قلت : نعم فأخذ بيدى الى مزبلة فيها رؤوس اناس وعذرات وخرق وعظام . ثم قال عليه الســـلام : يا أبا هريرة هذه الرؤوس كانت تحرص كحرصكم وتأمل آمالكم . ثم هى اليوم عظام بلا جلد ثم ستصير رماداً . وهذه العـــذرات الوان اطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها ثم قذفوها من بطونهم فأصبحت والنـــاس يتجافونها . وهذه الخرق البالية كانت رياشهم وثيابهم . فأصبحت الرياح تصفقها . وهذه العظام عظام دوابهم التى كانوا ينتجعون عليها اطراف البلاد فمن كان باكيا على الدنيا فليبك » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « اذا اراد الله بعبده خيرا زهده فى الدنيـا ورغبه فى الآخرة » .

كانت السيدة نفيسة زاهدة ، وكان امامها فى طريق الزهد هو الرســول الأعظم الذى احاطت بسيرته ، وكان مرشدها هو ما قاله الرسول وما فعل . كان الهدى النبوى هو نبراسها الذى تستضىء به .

كان هجرها للدنيا واقعا على كل ما يعوقها عن الله وطاعته ومرضاته ، ويعوقها عن العمل لآخرتها والتزود لها .

كانت الآخرة وكان الموت نصب عينيها ، حسبنا دليلا على ذلك حفـرها قبرها بيديها وقضاؤها فيه شطرا من وقتها كل يوم تستلهم منه العظات :

وتستوحى الصالحات . ثم هى بعد ذلك زوجة ، وام ، ترعى الله فى زوجها، وفى ولديها .

وهى محبة للعلم والمعرفة ، تاخذ منهما بحظها وتعطى منهما ما تشاء ، ولمن يشـــاء .

كانت السيدة نفيسة رضى الله عنها تستهدف انهاض الانسان ، وازدهار الحيـــاة .

كانت رضى الله عنها حريصة الحرص كله الا تأكل الا مع زوجها ، برا به وحفاظا على رضاه مؤمنة بأن رضا الزوج من رضا الله ، وكثـــيرا ما كانت تردد دعاء مأثورا عنهـــا ، هو قولها : « الهى وســـيدى ومولاى ، متعنى واسعدنى برضاك عنى ، ولا تسبب لى سببا يحجبك عنى » .

واكثر ما تقول هذا الدعاء ، وهى متعلقة بأستار الكعبة . طوافة حـــول البيت العتيق ، تقوله وهى تنشج باكية،هكذا كان دعاؤها الصادر من صميم فؤادها ، الشاكر لأنعم ربها ، الهادف الى دوام رضا المولى عليها المستعيذ برحمته ان تمتحن بالحجاب عنه ، لأن محنة الحجاب ، هى اشد الوان العذاب على الأحبـــاب .

كانت صبورة فى عبادتها ، قوية النفس فى نسكها ، وصيامها وقيامها ، فانها لما احتضرت وهى صائمة ، الحوا عليها بأن تفطر ، فقالت :

ـ واعجباه اننى منذ ثلاثين سنة ، وانا اسأل الله عز وجل ان القـــاه ، وانا صائمة أفافطر الآن ، هذا ما لا يكون . ثم اخذت فى قراءة سورة الانعام، فلما وصلت الى قوله تعالى : « لهم دار السلام عند ربهم » لفظت نفسها ، وادركتها وفاتها .

كانت رضى الله عنها نبيلة النفس، محمودة الشمائل ، اريحية الطبع ، يتمثل كرم الخلق فى منطقها وافعالها ، وكأن اخـــلاقها سبكت من الذهب المصفى ، وكانما شمائلها اتقى من الندى .

وتلقب السيدة نفيسة بكريمة الدارين ، لعوارفها ، وصنائعها وشفاعتها يوم القيامة لقاصديها ، وبجناح الرحمة لتواضعها . وخضـــوعها لله جل

بلاله ، وشفقتها ورحمتها وبرها وصلتها لذويها وقاصديها ، ويستظل زائرها بجناح رحمتها .

ومعيسة العلم لما استنبطته من دخائل العلم ، واستجلته من غوامضه وما نشرته على طالبى الاستفادة منها ، فكان يرجع اليها فى المشكلات ، ويستصبح بضوئها فى المعضلات ، وتشد اليها الرحال من كل مكان ، فى طلب ما حذقته واحكمته ، من علوم بيت النبوة . فرضى الله عنها ، فهى من تلك السلالة الزكية ، والأسرة المحمدية ، التى ورثت العلم والحكمة ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

رحلة السيدة نفيسة الى مصر

احب الشعب المصرى السيدة نفيسة رضى الله عنها قبل قدومها اليه فى غام ٩١٣ هـ حينما سمع بأنبائها وهى بالمدينة المنورة وتشوق اليها ، فلما قدمت استقبلها استقبالا رائعا واقامت فى دار كبير تجار مصر جمال الدين بن عبد الله بن الجصاص ، واقامت بها اشهرا ، والناس يفدون اليهـا زرافات ووحدانا من جميع الآفاق ، يلتمسون بركتها ويرجون دعاءها ، ويرون فى اشراقتها اشراقة بيت النبوة وعترة المصطفى صلى الله عليه وسلم .

ثم انتقلت من هذه الدار الى دار ام هانىء ثم انتقلت الى دار ابو السرايا ايوب بن صابر ، فجاء الناس اليها ، واشتد الاقبال عليها والتزاحم عـلى بابها حتى عاقها ذلك عما فرضت على نفسها من أوراد وعبادات . فاعتـزمت أن تغادر مصر الى المدينة المنورة ، لتقضى بقية عمرها فى هدوئها وعبادتها ، ومناجاة ربها ، وتلتزم حرم جدها المصطفى عليه الصلاة والسلام فاشتد ذلك على الشعب ، وشق عليه أن تفارقه ، وقد لمس نفحاتها ، وعرف تقـواها ، وما افاضه الله تعالى عليها من فيوضات ، وما يحيطه بهـا من تجليـات ومشاهدات . فالتمس منها العدول عن عزمها ، والبقـاء فى مصر . فأبت ، ففزع الى والى مصر السرى بن الحكم يشفعه لديها لترضى . فبعث هـذا رسولا وكتابا فأصرت . فجاء اليها بنفسه راجيا ملحا باسم الشـعب . فقـالت له :

ـ انى كنت قد اعتزمت المقام فى مصر . غير انى امراة ضعيفة . وقـد تكاثر الناس حولى . واكثروا من زيارتى . فشغلونى عن اورادى . وجمـع زادى لمعادى . الى ان منزلى هذا يضيق بهذا الجمع الكثيف . والعـدد الكثير ، وقد زاد حنينى الى روضة جدى المصطفى صلى الله عليه وسلم .

فقال لها السرى :

ـ يا بنت رسول الله . انى كفيل بازالة ما تشكين منه . وعلى ان امهد لك السبيل . واهيىء لك ما فيه راحتك ، ورضاك . اما ضيق المنزل ، فان لى دارا واسعة بدرب السباع وانى اشهد الله تعالى انى قد وهبتها لك ، واسألك أن تقبليها منى ، ولا تخجلينى بردها على .

قالت السيدة نفيسة :

– انى قد قبلتها منك . ثم قالت :

– ماذا اصنع بهذه الجموع الكثيرة والوفود الغفيرة ؟

اجاب السرى :

– تتفقين معهم على يومين فقط كل أسبوع ، فيهما يكون التلاقى ، وليكونا السبت والأربعاء . وتتفرغين فى الأيام الباقية لمولاك . فقبلت .

وشاع هذا القبول فشاع السرور والفرح فى الناس . وبقيت وطاب لها المقام فى مصر وسماها الشعب « نفيسة المصرية » حبا لها . وتقديرا لشخصها الكريم .

وفاتها

أقامت السيدة نفيسة رضى الله عنها فى دارها ، عابدة ، سائحة نقية نقيه ، حتى آذنت شمسها بالمغيب ، وتنتقل من دار الفناء الى دار البقاء .

قالت زينب بنت يحيى المتوج : تألمت عمتى فى اول يوم من رجب (سنة ٢٠٨ هـ) وكتبت الى زوجها اسحق المؤتمن كتابا ، وكان غائبا بالمدينة تطلب اليه فيه المجىء اليها وموافاتها . لاحساسها بدنو اجلها ، وفراقها لدنياها . واقبالها على اخراها . وما زالت متوعكة الى ان كان اول جمعة من شهر رمضان . فزاد عليها الألم وهى صائمة ، فدخل عليها حذق الأطباء فأشاروا عليها بالافطار لحفظ قوتها ولتتغلب على مرضها فرفضت ثم انشدت تقول :

اصرفوا عنى طبيبى	ودعونى وحبيبى
زاد بى شوقى اليه	وغرامى فى لهيب
طاب هتكى فى هواه	بين واش ورقيب
لا ابالى بفوات	حيث قد صار نصيبى
ليس من لام بعدل	عنه فيه بمصيب
جسدى راض بسقمى	وجفونى بنحيبى

فانصرف الأطباء ، وهم معجبون بقوة يقينها ، وثبات دينها ، وسألوها الدعاء فقالت خيرا ودعت لهم .

وشاءت السيدة الكريمة ان تختم حياتها بالقرآن الكريم ، واستفتحت بسورة الانعام حتى اذا بلغت قوله تعالى : « لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون » غشى عليها .

تقول زينب بنت اخيها : فضممتها الى صدرى ، فتشهدت شهادة الحق ، وصعدت روحها الى باريها فى السماء .

وبكى الناس ، وسمع النحيب فى كل دار .

ووصل زوجها اسحق المؤتمن فى اليوم نفسه ، ليجدها قد انتقلت الى رحاب الله وليقول لهم : انه يريد ان ينقلها الى المدينة المنورة لتـــدفن فى البقيـــع .

وحزن الناس حزنا شديدا ، وهرعت جموعهم الى دار الأمير واستجاروا به يريدون ان يتدخل بنفوذه لدى اسحق ان يدفنها فى مصر ، وان يرجـــع عن عزمه ونقلها الى المدينة وبخاصة انها حفرت قبرها بيـــدها فى دارها . فسأله الأمير فى ذلك وقال له :

ــ بالله لا تحرمنا مشاهدة قبرها . فانا كنا اذا نزل بنا امر جئنا اليها فى دارها نسألها الدعاء ، فما ننتهى من دعائها الا وقد كشف الله عنا ما نزل بنا . فدعها لتكون فى أرضنا ، فاذا نزل بنا امر جئنا الى قبرها ، فسألنا الله تعالى عنـده .

فاصر اسحق على نقلها ولم يرض ما طلبه القوم وما عرضـه الوالى . فجمعوا له مالا وفيرا اوسقوا به بعيره الذى قدم به من المدينة ، وسألوه أن يقبل هذا المـال ويعدل عما يريد ، فأبى المـال واستنكره ، وابى العدول عن عزمه ، فتركوا المـال وانصرفوا .

فلما اصبح الصباح ذهبوا اليه ليجددوا له الرجاء ، فوجدوه على غـير ما تركوه بالأمس . قال لهم انى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نومى فقال لى : رد عليهم اموالهم وادفنها عندهم ولا تعارض اهل مصر فيها .

وكان يوم دفنها يوما مشهودا : ازدحم فيه الناس ازدحاما شديدا ، كلهم يريد ان يشترك فى الصلاة عليها وتشييع جنازتها . واديت الصــلاة فى مشهد حافل جليل ، لم ير له مثيل ، ودفنت فى قبرها الذى حفــرته بيــدها .

كرامات السيدة نفيسة فى حياتها

الكرامة امر خارق للعادة يظهره الله على يد عبد صالح من عباده اكراما له ، دون ان يكون للعبد سلطان فى هذا الأمر . اى ان الله تعالى قد يجرى الكرامة على يديه دون قصد ولا ارادة منه .

وتكلم الناس فى الفرق بين الكرامات والمعجزات .

يقول الامام أبو اسحق الاسفرايني :

المعجزات دلالات صدق الأنبياء ، ودليل النبوة لا يوجد مع غير النبى . كما أن العقل المحكم لما كان دليلا للعالم فى كونه عالما لم يوجد فيمن لا يكون عالما .

وقال القاضى ابو بكر الأشعرى :

ان المعجزات تختص بالأنبياء ، والكرامات تكون للاولياء كما تكون للانبياء ولا تكون للاولياء معجزة ، لأن من شرط المعجزة اقتران دعوة النبوة بها . والمعجزة لم تكن معجزة لعينها . وانما كانت معجزة لحصولها على أوصاف كثيرة ، فمتى اختل شرط من تلك الشرائط لا تكون معجزة . واحد تلك الشرائط ، دعوى النبوة والولى لا يدعى النبوة . فالذى يظهر عليه لا يكون معجزة .

ويقول المناوى فى مقدمة الطبقات :

« وهى جائزة بل واقعة حسبما نطق به النص القرآنى والحديث النبوى اما القرآن فلقصة اهل الكهف حيث اقاموا فيه ثلثمائة سنة وازيد نياما احياء بلا آفة ولا غذاء وليسوا بأنبياء باجماع الفرق . وقصة مريم حيث حملت بلا ذكر ووجد الرزق عندها بلا سبب ، وتساقط عليها الرطب من شجرة يابسة بلا موجب .

وقصة واصف بن برخيا حيث احضر عرش بلقيس من مسافة بعيدة فى طرفة عين .

واما السنة فحديث جريج الراهب الذى كلمه الطفل الرضيع كما فى الصحيحين ، وحديث اصحاب الغار الذى انطبق عليهم الصخر ، وحديث البقرة التى ركبها صاحبها فالتفت اليه وكلمته .

ومن حوادث الصحابة صيحة عمر ــ يا سارية الجبل . واضاءة السوط

كالمصباح لاسيد بن حضير فى ليلة مظلمة » .

ومن الكرامات التى رويت عن السيدة نفيسة ، لتبين مدى الرعاية التى شملها الله عز وجل بها .. ما يلى : ــ

● عن سعيد بن الحسن . قال :

توقف النيل فى زمن السيدة نفيسة رضى الله عنها نقلق الناس وجاءوا الى السيدة نفيسة يسالونها الدعاء . فلبت ودعت . واعطتهم قناعها فجاءوا به الى النهر وطرحوه فيه . فما رجعوا . حتى زخر النيل بمائه وزاد زيادة عظيمة .

● طلب حاكم ظالم انسانا فى أمر تافه ، ليعذبه ، فجاء الرجل الى السيدة نفيسه واستجار بها فدعت له أن ينجيه الله من ظلم ذلك الحاكم وقالت له : « امض اليه فقد حجب الله تعالى عنك نظر الظالمين » . فذهب. وادخل عليه وارقف امامه مع الواقفين . فلم يره فسال عنه اعوانه : اين فلان ؟

فقالوا : ها هو انه واقف بين يديك .

فقال : مالى لا اراه ؟ انى والله لا اراه .

فقالوا له : انه مر بالسيدة نفيسة ، فاستجار بها وسألها الدعاء ، فدعت له بخلاصه من الظالمين .

قال الحاكم : وهل بلغ من ظلمى أن يحجب الله عنى المظلوم بالدعاء ؟ يارب انى تبت اليك . فلما تاب وكان مخلصا فى توبته راى الرجل واقفا امامه مع الواقفين . فقربه واكرمه وتصدق على الفقراء والمساكين . وبعث الى السيدة نفيسة بمبلغ كبير فقسمته صررا ووزعتها عن اخرها على المحتاجين .

● تزوج رجل من اهل المغافر بامراة ذمية فجاء منها بولد . فاسر فى بلاد العدو . فاخذت المراة تبحث عنه فى كل مكان حتى اعياها الأمر وقصدت البيع تسال عن الاسرى وابنها بينهم فيها دون نتيجة حتى يئست .

واخيرا قالت لزوجها :

ــ بلغنى أن بين اظهرنا امراة صالحة مجابة الدعاء . يقال لها نفيسة بنت الحسن . اذهب اليها . فلعلها لولدنا فيعود الينا فقد برح بنا غيابه الطويل . فان جاء آمنت بدينها .

فجاء الرجل الى السيدة نفيسة وقص عليها القصة فدعت له أن يرد الله عليه ولده . وعاد الرجل الى بيته .

فلما كان الليل اذ بالباب يطرق فخرجت المراة فاذا بابنها على الباب . وبعد ان فرح الجميع بعودة الغائب . سألته أمه عن أمره فجعل يحدثها وأباه عن أمره وكيف عاد . فقال : كنت واقفا ياأماه على باب المعتقل فى الوقت الفلانى (وهو الوقت الذى دعت فيه السيدة نفيسة) وأنا فى خدمتى . فلم اشعر الا ويد وقعت على القيد وسمعت من يقول اطلقوه فقد شفعت فيه السيدة نفيسة بنت الحسن . فأطلقت من الغل ثم لم اشعر بنفسى الا وانا على راس محلتنا هذه فسرت حتى وقفت على الباب وطرقته فخرجت انت .

وشاعت هذه الكرامة فى الحى فأسلمت المراة واسلم معها عدد كبير من اهل الحى وصارت المراة من خدام السيدة نفيسة اعترافا بفضلها .

● خرجت امتها جوهرة فى ليلة ذات مطر غزير لتأتى سيدتها نفيسة بماء للوضوء فأخذت تخوض فى ماء المطر المنهمر فى ذهابها وايابها وعادت دون ان تبتل لها قدم .

● كان لامرأة عجوز أربع بنات وكن جميعا يتقوتن من غزلهن تجمع امهن غزلهن فى اسبوع وتمضى به الى السوق وتبيعه ثم تشترى بنصف الثمن الذى حصلت عليه كتانا وبالنصف الثانى ما يكفيهن من الطعام اسبوعا .

وحدث فى يوم من الأيام ان اخذت الأم غزل بناتها وخرجت من دارها الى السوق فى يوم جمعة كعادتها فى كل اسبوع ، وبينما هى فى طريقها والغزل فوق راسها ملفوفا فى قماش احمر انقض طائر فجأة على رزمه الغزل واختطفها وارتفع ، ووقعت المرأة على الارض مشدوهه وغشى عليها . فلما افاقت بكت على غزلها الذى ضاع واخذت تتساءل وهى تذرف دموعها مادا تفعل بايتامها ومم تطعمهن اسبوعا ؟ واستمع الناس الذين تجمعوا حولها الى قصتها المحزنة ، واشار اليها بعضهم ان تذهب الى السيدة نفيسة وتسألها الدعاء ان يفرج عنها ما نزل بها من كرب عسى الله أن يزيل عنها ما بها ببركة ايمانها فمضت اليها وقصت عليها قصتها باكية . فاشفقت عليها السيدة نفيسة ورحمتها ، وقالت :

« يا من علا فقدر وملك فقهر ، أجبر من امتك هذه ما انكسر . فانهن خلقك وعيالك .

دعت لها بهذا الدعاء وطلبت اليها أن تبقى فان الله على كل شيء قدير ، فقعدت المراة وفى قلبها من جوع بناتها التهاب .

وبعد قليل .. اقبل جماعة يطرقون باب السيدة نفيسة ويستأذنون فى الدخول فأذنت لهم فدخلوا تحدثوا اليها وقالوا ان لهم امرا عجبـــا . وقالوا : نحن من التجار كنا مسافرين فى سفينة فلمـــا قربنا من بلدتكم اصطدمت سفينتنا بصخرة وانفتحت وأخذ الماء يتسرب من هذه الفتحة ونحن نحاول سدها فلا تنسد . فاستغثنا بالله تعالى ، وذكرنا . وتوسلنا بك اليه أن ينقذنا من هذا البلاء الذى حم . فاذا بطائر يطير فوقنا ويلقى علينا خرقة بها غزل . فوضعناها فى المكان المنفتح فانسد باذن الله تعـــالى وبركتك وسلمنا وقد جئنا بخمسمائة درهم فضة هدية شكرا لله تعـــالى فبكت السيدة نفيسة وقالت :

– « الهى ما أرأفك والطفك بعبادك الحمد الجميل والشكر الجزيل » .

ثم نادت العجوز وقالت لها :

– بكم تبيعين غزلك كل اسبوع ؟

فقالت :

– بعشرين درهما .

فقالت لهـــا :

– أبشرى فان الله تعالى عوضك عن كل درهم خمسة وعشرين درهما . وقصت عليها قصة التجار والسفينة والغـــزل ودفعت لها ذلك المبلغ . فخرجت العجوز باكية من شدة الفرح وهرولت الى أولادها . تخبرهم بما حدث . وكيف رد الله عليها غزلها ببركة السيدة نفيسة رضى الله عنها .

● كان فى جوار السيدة نفيسة يهودى له ابنة مقعدة .

فقالت لها امها ذات يوم : انى ذاهبة الى الحمام ، ولا ادرى ما أصنع بك فهل لك أن نحملك معنا ؟

اجابت : لا .

قالت : هل تقيمين فى البيت وحدك ؟

قالت البنت : لا ، ولكن احمليني يا أماه عند هـــذه الشريفة التى فى جوارنا . حتى تعودى . فدخلت اليهودية على السيدة نفيسة واستأذنتها

فى المجىء بابنتها الى دارها فأذنت . فجاءت بهـــا ووضعتها فى جانب من البيت ومضت .

وحان وقت صلاة الظهر فأحضرت السيدة نفيسة ماء وتوضـأت ، فجرى من مائها شىء الى جانب الصبية فجعلت تبل يدها منه وتمر على أعضائها فزال عنها ما كان بها باذن الله وهبت تمشى على رجليها وكأنه لم يكن بها شىء . فلما جاءت أمها خرجت اليها ماشية فسألتها فأخبرتها بما حدث فعجبت وأسلمت وأسلمت معها اسرتها وأسلم من علم بالقصـــة من حيها .

نفيسة العلم والمعرفة

السيدة نفيسة رضى الله عنها من أهل بيت زقوا العلم زقا ، وهى عالمة غير معلمة . وفهمة غير مفهمة ، فمادة علمها مما منح وفتح به على رجالات بيتها الرفيع وأفيض عليها الهاما .

وكان لها مكانة مكينة بين الأئمة وأساطين المجتهدين . ومما يثبت ما لها من اجلال واكبار فى قلوبهم ، ما روى أن بشر بن الحارث ــ وكان من جلة علماء عصره ، زاهدا ورعا جمع فى صدره بين علمى الشريعة والحقيقة ــ وكان من زوارها وقد مرض وعادته السيدة نفيسة ، وبينما هى عنده فى أثناء عيادته اذ دخل الامام أحمد بن حنبل ليعوده ــ ولما عرف من بشر أن هذه السيدة هى نفيسة بنت الحسن أحسن تحيتها ، وطلب من بشر أن يسألها لهما صالح الدعوات وكان هذا الطلب دليلا على علمه بمقامها الروحى العظيم ، وبدعائها المستجاب .

فقال لها بشر :

ــ أيتها السيدة الجليلة المقبولة الدعوة . انا نسألك جميعا خالص الدعاء .

فقالت :

ــ اللهم ان بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل يستجيران بك من النار فأجرهما يا ارحم الراحمين . وبعد أن دعت لهما دعاءها ، طلبت اليهما أن يدعوا لها فوافقا ، وتقول السيدة نفيسة رضى الله عنها :

« لقد نعمت بمعرفة الأخ فى الله الامام أحمد بن حنبل حينما كان عند صديقه بشر بن الحارث ، وهو على جانب عظيم من العلم والمعرفة وعلو القدر عند الله وقد استجبت لطلبهما ودعوت لهما ، كما طلبت اليهما أن يدعوا لى فكان ذلك . والله مجيب .

وكان من زوارها الامام الشافعى ، وكانت دارها بالنسبة له ــ بمثابة الواحة الوارفة وسط صحراء جرداء . وقد اعتاد أن يزورها وهو فى طريقه الى حلقات درسه فى مسجد الفسطاط ، وفى طريق عودته الى داره . وفى غير ذلك من الأوقات .

وكان يسمع منها الحديث النبوى الشريف . ويصلى التراويح فى شهر رمضان فى مسجدها . وكثيرا ما كان يسألها الدعاء . وكان اذا مرض بعث اليها بأحد أصحابه كالربيع الجيزى و الربيع المرادى فيقول لها :

ـ ان ابن عمك الشافعي مريض ويسألك الدعاء .

فترفع بطرفها الى السماء . وتدعو له . فلا يرجع رسوله الا وقد عوفى الشافعي من مرضه .

فلما مرض مرضه الأخير الذي مات فيه أرسل اليها على جاري عادته، ملتمسا منها الدعاء فقالت للقاصد :

ـ متعه الله بالنظر الى وجهه الكريم .

فلما عاد الناصر سأله الشافعي عما فعل فنقل اليه ما قالت . فعلم أنه ميت . واخذ يوصي . ثم اوصى ان تصلى هي عليه في رحاب بيتها .

فلما توفي جاءوا به الى بيتها تنفيــــذا لوصيته ، بعد ان صلى عليه ابو يعقوب البويطي أحد اصحابه صلاة الجنازة مع المشيعين . فصلت هي عليه مرة اخرى مع لفيف من السيدات الصالحات . وقد بارك الرسول صلى الله عليه وسلم هاتين الصلاتين اللتين لم يسبق لهما مثيل فيما مضى .

وروى احد الصالحين ممن حضر صلاة جنازة الشافعي ، قال عقب اداء الصلاتين :

ان الله تعالى غفر لكل من صلى على الشافعي بالشافعي ، وغفر للشافعي بصلاة السيدة نفيسة رضي الله عنها عليه .

وقد انعت رضي الله عنها على الشافعي فقالت : « يرحم الله الشافعي، انه كان يحسن الوضوء » ، وهذه على ايجازها شــــهادة عالية جامعة ، تحتوي طي كلماتها القصار المعاني الرائعة لأن الوضوء أساس العبادة ، واذا كان الأساس حسنا فان كل ما يبنى عليه حسن . فكأن لسان حال هذه الشهادة الموجزة البليغة يقول : أن الشــــافعي رضي الله عنه ، كان حسن الاجتهاد .

وقد زارها في حياتها اكابر العلماء .. عثمان بن سعيد المصري الملقب بورش ، وذو النون المصري وعبد الله بن الحكم ، وعبد الرحمن بن عبدالله ، وأبو موسى يونس بن الإعلى الصدفي وأبو علي الروزباري ، وأبو الحسن الدينوري ، وأبو بكر احمد بن نصر الدقاق ، وبنان بن احمد الواسطي ، وشقران بن عبد الله المغربي .. وغيرهم من الأكابر .

يقول الامام الشعراني في لطائف المنن يصف احدى زياراته لها :

وقد دخلت عليها مرة فوقفت على باب مشهدها تأدبا ، ودخل أصحابي الى قبرها . فلما نمت جاءتني وعلى رأسها مئزر صوف ابيض وقالت لي : أنا نفيسة . اذا جئت للزيارة فادخل الى قبري ، فقد اذنت لك . فمن ذلك اليوم ادخل لزيارتها وأجلس تجاه قبرها .

الحياة البرزخية

الانسان جسد وروح .. فاذا فارقت الروح الجسد . بدات حياة البرزخ (١) . وحياة البرزخ ليست امتدادا لحياة الدنيا ؛ فهى مغايرة لها ، وليست على شاكلتها والا كان الانتقال اليها عبثا وتكرارا ، فضلا عن ان الواقع المشاهد يؤيد تلك المغايرة ، فما رجع أحد من الحياة البرزخية الى الدنيا حتى يكون شاهد صدق على انها امتداد دنيوى .

وهى ايضا ليست الحياة الأخروية ، لأن الحياة الاخروية لها ميقات وأشراط وعلامات ما زالت فى علم الله تعالى .

فالحياة البرزخية اذن حياة بين حياتين :

حياة فيها حياة . تحلل فيها الميت من ظلامه وطينيته ودخل منطقة الروح والحق والنور ، فرأى فيها ما حجب عنه فى الدنيا وأبصر ما غط عليه ، وعلم فيها ومنها ما كان وسيكون .

« **فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد** » .

ورأى منها مكانه فى العالم الأخروى ومكانته يوم القيامة . قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « ان احدكم اذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ان كان من اهل الجنة ، فمن اهل الجنة ، وان كان من اهل النار فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة » .

فى الحياة البرزخية صديقون وشهداء احياء فى قبورهم ، وفيها جاحدون كافرون معذبون فى رمسهم .

وفيها رسل الله من ملائكة ، وأنبياء يعيشون فى اجوائها ؛ يسمعون ويرون ويحسون ويشعرون .

يقول الامام الشعرانى فى كتابه « الجواهر والدرر » :

« ان أرواح الأنبياء وأرواح الكمل باقية على الخدمة فى جنة البرزخ ،

---

(١) البرزخ فى اللغة : الحاجز بين الشيئين . والوقت الذى بين الموت والبعث . والبرزخ الحاجز الفاصل الذى يمنع الشىء من ان يختلط بغيره . قال الله تعالى : « **بينهما برزخ لا يبغيان** » . اى حاجز يمنع البحرين من ان يختلط احدهما بالآخر .

لكن خدمتها هناك دون خدمتها فى دار الدنيا ، وذلك لأن البرزخ له وجه واحد الى طلب التكليف وهو الذى الى الدنيا ، أما الوجه الآخر فهو الى الآخرة ولا تكليف هناك » .

ويقول ابن القيم :

والأرواح بعد المفارقة تلحق بأشكالها واخوانها وأصحاب عملها ، ولها بعد المفارقة صحة ومرض ، ولذة ونعيم ، وألم أعظم مما كان لها حال اتصالها بالبدن بكثير » .

ويقول أيضا ابن القيم :

لقد تظاهرت الأدلة من القرآن ، والسنة ، والآثار ، والاعتبار ، والعقل ، والقول ، ان الروح ذات قائمة ، تصعد وتنزل ، وتتصل وتنفصل وتخرج وتذهب وتجىء ، وتتحرك وتسكن ، وعلى هذا القول أكثر من مائة دليل .

ويقول عبد الكريم الجيلى :

اذا كانت الأرواح فى الدنيا على الخير كانت مطلقة على الخير فى البرزخ . وان كانت فى الدنيا على الشر كانت مطلقة على الشر فيه .

ويقول الامام الرازى فى تفسيره :

ان الأرواح البشرية الخالية من العلائق الجسمانية ، المشتاقة الى الاتصال بالعالم العلوى بعد خروجها من ظلمة الأجساد ، تذهب الى عالم الملائكة ، ومنازل القدس ، ويظهر منها آثار فى أحوال هذا العالم . فهن المدبرات أمرا ، أليس الانسان قد يرى أستاذه فى المنام ويسأله عن مشكلة فيرشده الى حلها .

عن ابن عباس قال : ضرب رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خباءه على قبر ، وهو لا يحسب أنه قبر ، فاذا هو قبر انسان يقرأ سورة « الملك » حتى ختمها .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هى المانعة ، هى المنجية تنجيه من عذاب القبر . (رواه الترمذى وقال : حديث حسن غريب) .

والأرواح تتآلف وتتعارف .

وأرواح الأموات تتلاقى بأرواح الأحياء ، والواقع المنامى ودنيا الرؤى والأحلام تثبت ذلك اللقاء الروحى وتؤيده .

وأرواح الأموات تتقارب وتتعارف بأرواح الأموات ، يدل على ذلك ما ورد فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى رواه ابن أبى الدنيا ،

قال : لما مات بشر بن البراء بن معرور حزنت عليه أم بشر حزنا شديدا ، فقالت : يا رسول الله ، انه لا يزال الهالك يهلك من بنى سلمة ، فهل يتعارف الموتى فأرسل الى ولدى بشر بالسلام ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، والذى نفسى بيده يا أم بشر انهم ليتعارفون كما تتعارف الطير فى رءوس الشجر .

فكان لا يهلك هالك من بنى سلمة الا جاءته أم بشر عقيب وفاته فقالت :

ـ يا فلان عليك السلام ، اقرأ على بشر السلام .

وقال عبيد بن عمير : ان أهل القبور يتوكفون (يتتبعون) الأخبار ، فاذا أتاهم الميت قالوا : ما فعل فلان ؟

فيقول : ألم يأتكم ؟ أما قدم عليكم .

فيقولون : لا .

فيقول : انا لله وانا اليه راجعون ، سلك به غير سبيلنا .

وعن أبى أيوب الانصارى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ان نفس المؤمن اذا قبضت تلقاها أهل الرحمة عند الله كما يتلقى البشير فى الدنيا ، فيقول : أنظروا أخاكم حتى يستريح ، فانه كان فى كرب شديد . فيسألونه : ماذا فعل فلان ؟ وماذا فعلت فلانة ؟ فاذا سألوه عن رجل مات قبله قال : انه مات قبلى .

قالوا : انا لله وانا اليه راجعون ذهب به الى امه الهاوية فبئست الأم وبئست المربية .

يقول الشيخ محمد حسنين مخلوف : ان الروح تبقى فى البرزخ حية مدركة تسمع وتبصر وتسبح سبحا فى ملك الله حيث اراد الله وقدر ، وتتصل بالأرواح الأخرى ، وتأنس بها وتناجيها ، سواء أكانت أرواح أحياء أم أرواح أموات .

وقال أيضا :

وقد تواترت الروايات الصحيحة والرؤى من أصناف بنى آدم على فعل الأرواح بعد موتها ، وانها تقرأ القرآن وتصلى وتخبر ارواح الأحياء عند لقائها ، وتقضى حوائج الناس ، وانها تقدر على ما لا تقدر على مثله حال اتصالها بالبدن فى الدنيا من هزيمة الجيوش الكبيرة بالعدد القليل ، متمثلة ، وغير متمثلة . وظاهر ان هذا هو لبعض الأرواح التى يؤذن لها بذلك .

يقول الأستاذ الشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي الديار المصرية الأسبق:

« ان ما يظهر من التصرفات على يد الأولياء لا يخالف صريح القرآن، لأن هذا التصرف الذى ينسب للاولياء هو نوع من الكرامات وهو فعل الله وخلقه ، يظهره الله اكراما لهم تارة بالهام ، وتارة بمنام وتارة بدعائهم وتارة بفعلهم واختيارهم وتارة بغير اختيار ولا قصد ولا شعور منهم ، بل قد يحصل من الصبي المميز ، وتارة بالتوسل الى الله تعالى بهم فى حياتهم وبعد مماتهم مما هو محكى فى القدرة الالهية . ولا يقصد الناس بسؤالهم ذلك قبل الموت وبعده نسبتهم الى الخلق والايجاد والاستقلال بالأفعال ، فان هذا لا يقصده مسلم ولا يخطر ببال أحد من العوام فضلا عن غيرهم .

وقال : وليس هذا التوسل ممنوعا أصلا ، لما علمت مما تقدم ، من ان المتوسل بالولى انما يطلب من الله اجابة طلبه اكراما لهذا الولى لاعتقاده ان هذا الولى اقرب منه الى الله تعالى ، وهذا لا فرق فيه بين الحى والميت لما تقدم من ان الفاعل هو الله تعالى ، بل انه بعد الموت اقرب منه حال الحياة الدنيوية ، لأن الروح بعد الممات غير مشغولة بتدبير شئون البدن .

وقال : وكما جاز ان يتوسط حى فى قضاء مصلحة حى أو ميت ، والفعل لله وحده ، يجوز أو يتوسط روح ميت فى قضاء مصلحة حى أو ميت والفعل لله وحده . والأرواح باقية على الحياة وافعالها فى عالم الملك انما تظهر بواسطة البدن بالحياة الحيوانية فاذا مات وفقد الحياة الحيوانية بقيت نفسه وروحه على حياتها الملكوتية وتعلقت بجسمه تعلقا آخر على وجه آخر يعلمه الله تعالى كما دل عليه نعيم القبر وعذابه ، فاذا كان الفعل والروح باقية خالدة . ففعلها باق وتصرفها فى افعالها لا يتغير الا بعدم ظهور الأفعال بواسطة البدن . فلا مانع عقلا أن يكون بعض أرواح الأولياء والصالحين بعد موت الأجساد سببا بدعائها وتوجهها الى الله تعالى فى قضاء حوائج بعض الزائرين لهم المتوسلين بهم بدون أن يكون لها مدخل فى التأثير — وأى فرق بين التوسط بالأحياء فى قضاء الحوائج مع الاعتقاد أن لا فاعل أى لا خالق للفعل غير الله وبين توسط أرواح الأموات فى اعتقاد ذلك ؟

والقول بأن ملوك الدنيا انما يحتاجون الى الوسائط لجواز الغفلة عليهم عن حوائج الناس بخلاف العليم الخبير ، سفسطة ظاهرة ، وتمويه على العقول ، فان الملك ووسائطه واسطة فى قضاء حوائج الطالب من الله تعالى اى لا فاعل سواه ، فلو كان اتخاذ الواسطة شركا بعد اعتقاد ان المؤثر هو الله تعالي وحده لكانت معاونة بعضنا بعضا فى قضاء المصالح شركا —

وهذا باطل بالضرورة لما يترتب عليه من بطلان الشرائع وفساد نظام العالم وعدم نسبة الافعال الاختيارية الى فاعليها فتبطل الحدود والزواجر ويختل النظـام .

قال المناوى فى شرح عينية ابن سينا فى النفس . قال الناظم فى كتاب زيارة القبور : تعلق النفس بالبدن عظيم جـدا حتى انهـا بعد المفـارقة تشتاق وتلتفت الى الأجزاء البدنية المدفونة ، فاذا زار انسان قبر انسان آخر وتغاضى عن العلائق الجسمانية والعلائق الطبيعية توجهت نفسـه الى العالم العقلى فتواجه نفسه نفس الميت وتحصل منها المقابلة كما فى المرآتين فيرتسم فيهما صورة عقلية بطريقة الانعكاس ويحصل لها بذلك كمال .

ان زيارة القبورة تارة يقصد بها الموعظة بالأموات وهذه تعم جميـع القبور والأموات . وتارة يقصد بها الاستمداد والتبرك بالمزور . وهـذا يختص بالأنبياء والأولياء والصالحين .

ان الانسان يتأثر بتصوراته وان نفسه تحت قهر سلطان الوهم ؟ فكم من انسان تحقق أن سيقتل لا محالة فتصور الموت واقعا به فمات بسبب ذلك قبل أن يقتل ــ كذلك اذا زار الانسان مشهد الحسين رضى الله تعالى عنه واعتقد أنه بمكان طاهر بين يدى ابن بنت رسول الله صلى الله عليـه وسلم استولى عليه الخشوع والخضوع وامتلأ قلبه اخلاصـا فيدعو الله مخلصا موقنا بالاجابة خصوصا اذا اعتقد أن روح الحسين رضى الله عنه تسأل الله تعالى اجابة دعاء زائره . أليس ذلك سببا فى أجابة الدعاء وقضاء حوائج الزائرين المخلصين والله هو المؤثر .

ولا نرى مسلما ولو عاميا يتوهم فضلا عن أن يعتقد لله شريكا فى خلقه ، فمهما اعتقد الزائر أن المزور أظهر منه روحا واصفى نفسا بما أعطاه الله تعالى من الكمال الانسانى وان كان العوام لا يستطيعون التعبير عما تكنه صدورهم من حسن العقيدة وكمال الايمان .

كرامات السيدة نفيسة بعد وفاتها

السيدة نفيسة رضى الله عنها تفيض فى برزخها ، كما كانت تفيض فى الحياة الدنيا حيوية ومحبة ، ومن علاها تمد يدها ، وتهدى علمها . وتبث ايماءاتها للاحباء بالعمل الصالح والاقبال على طاعة الله جل جلاله .

ولها رضى الله تعالى عنها كرامات لا حصر لها ، هى آية على اكرام الله تعالى اياها ، وعلى ما خص الله به آل البيت النبوى الكريم من كرامات وأسبغ عليهم من نفحات وفيوضات .

● كان بمصر رجل يقال له : عفان بن سليمان المصرى ، وجد فى داره مالا مدفونا ، فتصدق منه على الفقراء والمساكين والأيامى واليتامى وابناء السبيل . وكان لا ينام حتى يطعم خمسمائة بيت منهم . ويتلقى الحجاج من العقبة ، ويحمل المنقطع منهم . واشترى من وزير مصر ــ احمد بن سهل ــ ألف حمل برا ، ثم حصل غلاء شديد ، بلغ فيه ثمن البر ثلاثةأمثال الثمن الذى اشتراه به ، فأراد الوزير أن يشتريه منه بالثمن الحاضر ، فأبى . وقال : انما ادخـر ثمنـه عنـد الله تعالى ، وفرقه على الفقراء والمساكين . فتغيظ منه تكين أمير مصر ، وكان جبارا عنيدا ، شكاه الناس لأبى الحسن الدينورى ، فوعظه ، فلم يقبل واخرجه الى بيت المقدس ، وشكوه الى بنان ابن أحمد الواسطى الواعظ ، فوعظه ، فلم يقبل ، واخرجه الى بلاد المغرب ، فأمر بسلب أموال عفان المذكور . فتوجه عفان الى الشريف على بن عبد الله ، واخبره بالأمر ، وانه عازم على مهاجرة مصر الى غيرها من البلاد . فتوجه به الشريف على الى مقام السيدة نفيسة . وجلس كل واحد منهما فى جانب من القبر الشريف . وقرأ شيئا من القرآن الكريم . وتوسلا بها الى الله تعالى فى أن يدفع ظلم تكين عن عفان ، ويفرج كربه ، فأخذتهما سنة من النوم ، فرأى الشريف على السيدة نفيسة تقول له :

ــ خذ عفان ، وتوجه به الى تكين ، فقد قضيت حاجته .

فاستيقظ وتوجه به اليه ، فلما دخل عليه ، وقف تكين على قدميه ، وهو ترتعد فرائصه ، وقد حم لوقته . وقال :

ــ رأيت السيدة نفيسة تقول لى ، اكرم الشريف عليا ، وارجع عن عفان ، فانه استجار بنا .

فقال الشريف : هذا عفان بين يديك

فقال تكين : والله لم اره . يا رب انى تائب . فأبدره فى الحال . وقال له : انت عتيق السيدة نفيسة واكرمهما . وتصدق بمال وفير ، وحسن شانه ، واحسن الى أهل مصر . ولازم زيارة السيدة نفيسة ، الى أن توفى يوم السبت العاشر من ربيع الأول سنة احدى وثلاثين وثلاثمائة . وحمل الى بيت المقدس ، كوصيته ، وكان يقول : أهل مصر يخافوننى ، وانا أخاف دعوة عفان عند ضريح السيدة نفيسة ، واقام بعده ولده على طريقته فى الاحسان والزيارة . وتوفى عفان فى سنة اثنتين وعشرين وثلاث مائة ، ودفن فى طريق مصر .

● حكى عن أبى العز اليمانى ، انه قال : كنت عزيزا فى قومى ، أثيرا فى عشيرتى ، من اكثرهم مالا وضياعا ، فاستطلت بنفسى وشمخت بأنفى وتكبرت على الناس . واحتقرت امرهم فلم البث حتى ذهب مالى ، فضاقت بى الأرض بما رحبت ، وعزانى الصديق ، وفرح الحسود فقال لى صديق: عليك بالصالحين عسى الله ان يفرج عنك ما نزل بك ، فاعتزلت الناس ، فرايت فى نومى كانى فى فضاء واسع ، فيه نور ساطع ، يظهر تارة ويختفى تارة اخرى . فاخذنى العجب من ذلك فاذا بقائل يقول : هذا نور السيدة نفيسة بنت الحسن . فقلت : عسى الله أن يجمع بينى وبينها فأسألها الدعاء بزوال كربتى . فقيل لى : انها ماتت . فقلت : أغتنم بركة زيارتها . فسمعت من يقول : انا نفيسة يا ابا العز . فارق نفسك ، وانزع عنها سوءها .

فقلت : فارقتها فرقة لا عودة لى اليها . وانى تبت الى الله عز وجل مما فرط منى .

فقالت : ابشر . فقد قبلت التوبة . وزالت الحوبة .

فأصبحت فرحا بما رايت وانصلح حالى بعد قليل من الايام . وزادنى الله ــ بفضله وكرمه ــ أضعاف ما كنت فيه . ببركتها رضى الله عنها .

● اورد ابن اياس ، فى حوادث سنة ٩٢٦ ، أن شخصا يقال له محيى الدين ابن مثرى ، كانت له ابنة صغيرة لها من العمر نحو سبع سنين ، وكان ابوها ساكنا فى المراغة ، بالقرب من مزار السيدة نفيسة رضى الله عنها . وكان على راس تلك البنت كوفية من الذهب ، فوقفت تلعب مع الصغار فى الحارة ، وكان لهم جار صبى أمرد ، فطمع فى الكوفية الذهب التى على راس البنت ، فلعب بعقلها ، وقال لها امك فى السيدة نفيسة ،

وأرسلت تطلبك هناك ، فمضت معه ، واخذ معه عبدا اسود ؛ فلما توجهوا بتلك البنت الى تربة خراب خلف مزار السيدة نفيسة القيا بالبنت فذبحاها هناك . وحملاها والقياها فى فسقية هناك ، واخذا الكوفية التى على راسها وتركاها تتخبط فى دمائها ، فاقامت هناك يوما وليلة ، فكثر التفتيش عليها من امها وأبيها ، فنزل ابوها الى السوق وأوصى التجار بمراقبة الكوفية الذهب التى كانت على راس ابنته ، فاذا راوها ، اتوه بها ، فبينما هو فى الصاغه ، واذا هو بالصبى الامرد يعرض الكوفية للبيع ، فقبضوا عليه ، وتوجهوا الى باب الأمير كمشبغا ، فلما عرضوه على الوالى ، اقر بانه اخذ الكوفيه ، من فوق راس البنت ، وانه ذبحها ، ورماها فى فسقية ، خلف مزار السيدة نفيسة ، فقالوا له : امض معنا ، وارنا ذلك المكان الذى رميتها فيه . فخرج معهم ، وهو فى الحديد ، واتى بهم الى تلك الفسقية التى رماها فيها ، فنزل ابو البنت اليها ، فوجدها راقدة . وهى مذبوحة وفيها بعض روح ، ولم ينقطع وريدها من الذبح ، فحملها وطلع بها من تلك الفسقية ، فلما بلغ الأمير ذلك ، ارسل فاحضر الجميع بين يديه ، وقصوا عليه قصة الصبى وما جرى له مع البنت ، فحزن الامير . وقال لها : من فعل بك هذا ؟ فأشارت الى الصبى والعبد الأسود الذى على باب البيت ، الذى تسكن فيه البنت ووالدها واحضروا للبنت من ضمد لها جرحها الذى برقبتها وعاشت بعد ذلك وبرات من الجرح .

وقد قالت البنت ، انه بعد ان القيا بها فى الفسقية ، دخلت عليها امراة ، وعلى وجهها قناع وقالت : لا تخافى انى أنا السيدة نفيسة ، وغدا تخلصين من هذا المكان . ثم مسحت الدم من رقبتى فانقطع فى الحال . وسكن روعى مما كنت فيه .

● قال الامام الشعرانى رحمه الله تعالى : دخلت انا لقبر السيدة نفيسة مرة ، فوقفت على باب مشهدها الأول ادبا ، ودخل اصحابى الى قبرها ، فلما نمت جاءتنى وعلى راسها مئزر صوف ابيض ، وقالت لى : أنا نفيسة فاذا جئت للزيارة ، فادخل الى قبرى فقد اذنت لك . فمن ذلك اليوم ، وانا ادخل لزيارتها واجلس تجاه وجهها .

● وقال الامام الشعرانى : رايت فى كلام الشيخ ابى المواهب الشاذلى انه راى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد اذا كان لك الى الله تعالى حاجة فانذر لنفيسة الطاهرة ولو بدرهم ، يقض الله تعالى حاجتك .

● ذكر المرحوم محمد فيضى باشا مدير الأوقاف المصرية سابقا : فقدت والدتى عقدا ثمينا لها من اللؤلؤ وبحثت عنه كثيرا فلم تجده . فتوجهت الى

مقام السيدة نفيسة وطلبت من الله عز وجل أن يرده اليها ببركتها ، وعادت ونامت . وفى نومها رأت السيدة نفيسة تعطيها العقد وتقول لها « تحفظى عليه » فاستيقظت . فوجدته فى يدها .

● ذكر المرحوم محمد باشا فوزى : انه لما كان فى أسيوط رئيسا لمجلس الاستئناف راى وهو فى حالة بين اليقظة والنوم ، بعد أن ادى صلاة الفجر سيدة دخلت عليه وقالت له : « انتقل من هذا البيت فى هذا اليوم حالا » فاستيقظ واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم عاد الى ما كان عليه من نومه . فرآها فقالت له ذلك ايضا . فاستيقظ مذعورا واستعاذ بالله العظيم وعاد الى نومه . فرآها للمرة الثالثة وقالت : « أنا نفيسة بنت الحسن .. واعادت ما قالته مرة ثالثة . فأجابها بالامتثال للامر ، واستيقظ وبحث عن بيت فى الحال وانتقل اليه وما أن تم نقل جميع ما بالبيت حتى سقط جميعه وتهدم من غير ضرر لنفس ولا مال .

● كان للمرحوم الشيخ محمود الجباسى ، خادم مقام السيدة سكينة بنت الحسين ، رضى الله عنهما ، اخت صالحة ، تسلمت حليا ، كان على نعش اخت محمد ذكر الله الحداد عند دفنها بالقرافة النفيسية ، ولما ارادت ان تسلم الورثة الوديعة ، فاذا بقلادة من الذهب ضائعة ، فاتهموها بسرقتها ، واعتدوا عليها ، فذهبت الى مقام السيدة نفيسة شاكية ، باكية، تتضرع لربها ، وتتوسل بصاحبة المقام ، ان تظهر براءتها ، فرأت سيدة بهية الطلعة لها جلالة ووقار فى عنقها قلادة شبيهة بالقلادة الضائعة ، فسارعت اليها ، واخذت منها القلادة ، والسيدة ساكنة هادئة ، ثم ذهبت بها الى أهل المتوفاة ، واعطتهم القلادة ، وأخبرتهم بواقعتها ، فاعتذروا اليها ، واكرموها .

المشهد النفيسى

بنى المشهد النفيسى على يد ابن السرى بن الحكم امير مصر ، وهذا المشهد قائم على القبر الذى حفرته السيدة نفيسة رضى الله عنها بيديها فى حياتها ، ودفنت فيه عند موتها فى عام ٢٠٨ هـ

وكان مكتوبا على اللوح الرخامى الموضوع على باب الضريح ، وهو الذى كان مصفحا بالحديد ما يلى :

بسم الله الرحمن الرحيم

« نصر من الله وفتح قريب . لعبد الله ووليه مسعد بن أبى تميم الامام النتصر بالله أمير المؤمنين . صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وابنائه المكرمين .

امر بعمارة هذا الباب السيد الأجل امير الجيوش سيف الاسلام ناصر الأنام كافل قضاء المسلمين وهادى دعاة المؤمنين عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه المؤمنين وادام قدرته واعلى كلمته وشد عضده بوالده الأجل الافضل سيف الأنام جلال الاسلام ، شرف الأيام ، ناصر الدين خليل أمير المؤمنين ، زاد الله فى علائه وامتع امير المؤمنين بطول بقائه فى شهر ربيع الآخر من سنة اثنتين وثمانين واربعمائة » .

والقبة التى على الضريح جددها الخليفة الحافظ لدين الله عبد المجيد العلوى سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، وأمر بعمل الرخام الذى بالمحراب

وكان مكتوبا على باب الضريح البيتان الآتيان وهما للامام الشافعى رضى الله عنه :

يا أهل بيت رسول الله حبكم — فرض من الله فى القرآن أنزله
يكفيكم من عظيم القدر أنكم — من لم يصل عليكم لا صلاة له (١)

وقد جدد المشهد عدة مرات احداها على يد الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٧١٤ هـ وأخرى فى سنة ١١٧٣ هـ حيث جدد رحابه ورونقه الأمير عبد الرحمن كتخدا .

---

(١) اى لا صلاة كاملة .

وقد كتب على باب الضريح بالذهب على الرخام البيتان الآتيان ، وهما للعلامة محمد بن اسماعيل النفراوى المالكى :

عرش الحقـــائق مهبط الأسرار قبر النفيســـة بنت ذى الأنوار
حسن بن زيـد بن الامـــــا م على ابن عم المصطفى المختـار

وله أيضا ، ما كتب على باب القبة بالذهب على الرخام ، وبهما حساب السنة التى جدد فيها المشهد :

عبـد رحمن لعفو قـد ترجى قـد بنــاها روضـــة للزائرين
فلذا ارختهــا يا زائريهـــا ادخلوها بســلام آمنـين .

وقد أمر عباس باشا الأول بصنع مقصورة لقبرها من النحاس الأصفر مكتوب عليها :

مقصـــورة اتقنت لله صـــنعتها تستوجب الشكر عند الله والناس
تذيع همـة منشـــيها مؤرخة من بعض طيب احسان لعبـاس

واقيم بناؤه الحالى فى سنة ١٣١٢ هـ وافتتح للعبادة فى سنة ١٣١٤ باحتفال فخم .

وقد ورد فى بعض المراجع انه لما ازيل البناء القديم ورفعت الأتربة عن صحن المسجد ظهرت مقامة القبر مبنية بالطوب اللبن . وحدثت ثغرة فى المقامة فسولت للمهندس المشرف على بناء المسجد نفسه أن يمد يده من الثغرة ليستطلع ما فى القبر ، فمدها فمست جسما كجسم النائم ، فأصيب كفه فى الحال بدمل استمر فى علاجه ثلاثة اشهر ولم يبرأ منه الا بتفلة من فم احد الصالحين معروف باسم الشـيخ سليم ابى حسين المسلمين ، بعد أن استتابه فتاب وقرأ الفاتحة !

وهذه الحكاية لا تزال ذائعة فى حى السيدة نفيسة الى الآن .

قال المقريزى « قبر السيدة نفيسة أحد المواضع المعروفة باجابة الدعاء بمصر » .

وكان كافور الأخشيدى لا يدع زيارة السيدة نفيسة فى كل يوم خميس وعندما يبدو له باب المشهد من بعيد يترجل ويمشى ويدخل حاسر الرأس ويسأل الله تعالى فى ضريحها حوائجه فتقضى ، ويفى بالنــذر ، وكان يأتى بالمسك والطيب والشمع والزيت والقناديل ، ويحسن الى خدم المقام والفقراء كثيرا ، واستمر على ذلك الى أن توفى بمصر فى سنة ٣٥٦ هـ .

وما زال المشهد النفيسى مرفوع الأركان ، سميك البنيان يشع منه الضياء وتنبعث من حفافيه النفحات والبركات .

المراجع

ـ القرآن الكريم	
ـ تفسير البيضاوى ، وابن كثير	
ـ نور الأبصار	الشبلنجى
ـ اسعاف الراغبين	محمد الصبان
ـ الصواعق المحرقة	أحمد بن حجر الهيثمى
ـ تاريخ الرسل والملوك	الطبرى
ـ اسد الغابة	عز الدين بن الأثير
ـ الاستيعاب	ابن عبد البر
ـ نهج البلاغة	ابن ابى حديد
ـ رياض الأحزان وحدائق الأشجان	محمد حسن القزويتى
ـ اخبار الزينبات	العبدلى
ـ الرياض النضرة	المحب الطبرى
ـ الجواهر النفيسة فى مناقب السيدة نفيسة	
ـ لطائف المنن	الامام الشعرانى
ـ محمد رسول الله	عبد الحميد جوده السحار
ـ بطلة كربلاء	د . بنت الشاطىء
ـ فاطمة الزهراء	عباس محمود العقاد
ـ السيدة زينب	على احمد شلبى
ـ السيدة زينب	محمود الشرقاوى
ـ الحياة البرزخية فى القرآن	د . محمود بن الشريف
ـ السيدة نفيسة	محمد شاهين حمزة
ـ كريمة الدارين	أحمد فهمى محمد
ـ حكم الاسلام فى التوسل بالأنبياء والأولياء عليهم السلام	محمد حسنين مخلوف

رقم الايداع بدار الكتب ٧٨/٤١٨٨

الترقيم الدولى ٤ – ١١٦ – ٢٢٦ – ٩٧٧ ISBN

مطبعة المعرفة - عمارة التأمين
ميدان لاظوغلى - ت : ٢٥٥٢٩٩٠